وائل رداد

رواية



RD7

دار اكتب



مَوْتُ سَرِيرِيٌّ

وائل رداد

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع



بداية

عَقِبَ عودته للسَّكن، هُرِعَ (شاهر) للثلاجة، فالتقطَ منها شيئًا بسرِّية وعناية، بعدها، تمدَّدَ على فراشه دون طعام غداء أو حتى تبديل ثيابه..

كانت الحُقنةُ في جيبه جاهزةً ومُعدَّة للاستخدام، مادة (R.D.5) الملائكية! العذبة! صانعها قِديسٌ يستحقُّ جائزة نوبل على هديته للبشرية جمعاء.. يستحقُّ الجنة!

لقد مَنَحَ البشرية أمَلَ الاستمرار في الهُراء الأزلي.. أزالَ الغطاء كاشفًا عن الإبرة، طَرَقَها بترفُّقٍ بأنامله، ذَرَفَ الرأسُ المُنمنمُ بعض السائل، فبحثَ عن الأوردةِ المُتفرعة في ذراعه بعد رَبْطِها بحبلٍ مَطاطيٍّ، ضَرَبَ الموضع المَنشودَ بضع مراتٍ مُتفقِّدًا الأوردة، ثم دسَّ



الإبرة في أحدها وهو يعضُّ شفته السُّفلى، ومن ثم استرخى مُباشرًا التحليق..

كان ذلك عندما طرَقَ شَخصٌ الباب مرتين بأدب جَمٍّ قبل أن يَدْلُفَ..

الشيخ (نزار) – كما كان يُحبُّ أن يُلقّبه – طالبٌ في كلية الشريعة والقانون، نحيلٌ كأعواد قصب السكر، له نظرة طيبة مُتسمةٌ بالهدوء والرزانة، وكعادة الأكثرية الساحقة من طلبة كُليّته كان يُطلق لحيته، ولم يكن يُمشّطُها مُطلقًا..

أحيانًا يُرحّبُ بقُدومه، وأحيانًا أخرى يتعمّدُ مُضايقته عن طريق تشغيل الأغاني الغربية الصّاخبةِ بُغيةَ حَمْلِه على الرّحيل!

اليوم – لحُسن الحظ – كان يتوقُ لرؤيته والتّسامُر معه قليلًا..

تبسّم وهو يردُّ تحية الشيخ (نزار) بمثلها، ودعاه للجلوس على السرير الذي ظَلّ مُتمددًا عليه، فجلس قائلًا وأصابعه تُداعبُ لحيتَه:

- صباح الخير، ما لك مُلتحفًا الفراش كالمومياوات هكذا؟

- صدري كالجحيم، كلما سعلتُ شعُرْتُ بالقَطِران يكادُ يُخالطُ دَمي..

- الله يشفيك ويعافيك.. كله من الدخان!

- الحق أنه قد نَهَشَ حَلْقي نَهْشًا.. ابن الملعونة!



- لا حول ولا قوة إلا بالله..

- كيف حالك أنت؟

- نحمدُ الله..

- وكيف حال أيام الدراسة المُضنية معك؟

ردَّ كمن يتنهَّدُ:

- الحمد لله على كل حال.. ماذا عنك؟

- الحق بأني ضِقْتُ بكليتي والجامعة ذَرْعًا..

- إن الله مع الصابرين..

- صبر (أيوب) ما كان ليُجاري صبري..

- أستغفر الله العظيم..

- والله حانق علي..

- نحمدُه في السَّراءِ والضَّراءِ..

- قد أصابني بالتهابٍ.. والله أعلم!

- وفي الصحة والمرض..

- نغضبُ ونحنقُ على كل شيء ونحن لا شيءَ إذن..

- هنالك أمور في الحياة تستحقُّ أن نحيا لأجلها..

- معك حق، لذا قررتَ وُلوجَ كُلية أخرى..

- إذن فقد وجدتَ ضالَّتك!

- وهل وجدتَ أنتَ ضالَّتك أخيرًا؟ إنك تبتسمُ رغم كل ما قُلتُه لك!

بلغت بسمة (نزار) من السعة ما دفع (شاهر) للتخابُثِ أثناء الحديث تدريجيًّا:

- أم تراه نُصفَك الآخر يا شيخ؟

تورَّدَ وجهُ الشاب قليلًا، فأدرك (شاهر) إصابته منتصف الهدف بالضبط.

سأله بدهاء كي يزيدَ من ارتباكِه:

- مَنْ سعيدةُ الحظّ يا نمِس؟

- بنتُ الجيران!

- وكيف أدركتَ أنها ضالَّتك المَنشودة؟

- لمحتُها وهي عائدة لمنزلها مع والدها..

- وأعجبَتْك؟

- كانت نظرةً يتيمةً وكافيةً..

- مُحبِطةٌ أم مُحفِّزةٌ؟



- أعوذ بالله منك! ما بالك أنتَ؟

- صدقتَ.. الطيبونَ للطيبات..

- لكنني مُترددٌ وقَلِقٌ..

- من الظروف.. أفهمك..

- من كل شيء..

- فَوِّضْها إلى الله وتوكَّل عليه..

- ذلك ما عَقدتُ العَزْمَ عليه..

- والأهل؟

- ماذا بشأنِهم؟

- هل هم موافقون؟

- مَبدئيًا أجل..

- ماذا تقصد بمبدئيًا يا أخي؟

- الوالدةُ مُتحمِّسةٌ ومُوافقةٌ..

- كعادة الأمهات الحميمة..

- لكن الوالدَ مُتصلِّبُ الرأيِ مُتيبِّسُ الرأسِ..



- كديدن الآباء أصحاب المزاج الكَدِرِ الذين لا يشعرون بعذاباتَ أبنائهم..

- والبنتُ؟

وهنا صَمَتَ كأنما أصابتْهُ صاعقةٌ من الخَرَسِ المُباغِت..

هبَّ نصف (شاهر) العلوي، وبإشارةِ نَصْرٍ من سبَّابته لَوَّحَ بها في وجه (نزار)، صاحَ:

- اصطدناك بالجُرْمِ المَشْهود.. حادَثْتها يا نِمْسُ إذن؟!

أجابَ وحُمرةُ الحياء تطْغَى على لونِ بشرته الطَّبيعي:

- كفَّ عن ترديد ذلك كما لو كانتْ وَصْمَةً، أردتُ فقط معرفة رأيها لأني خشيتُ أن ترفضني..

- معك كل الحقِّ، هو شعور بغيض فيه طَعْنٌ للرجولة ومَذَلَّةٌ.. وبِمَ ردَّت عليك؟

أجاب مُنبسطَ الأسارير:

- ماذا تظنُّ؟

- بناتُ حواء لم يعدنَ بريئات!

- لكنهنَّ مُخلصات في الحبِّ على الأقل..



- رأيي أنهنَّ صِرْنَ مُخلصاتٍ للمادة أكثر، تمثيلية روميو وجولييت انتهتْ!

- لا أوافقُك الرأي، فالفتاةُ كانت – وما زالت – مُستعدَّةً لبَذْلِ كل غالٍ ورخيصٍ لأجل مَنْ تُحبُّ..

- كلام روايات وأفلام.. دعني أقصُّ عليك ما دار بين ابن خالي وخَطيبته، كان قد رآها أوّلَ مرةٍ في منزله، جاءت مع والدتها لزيارة والدته، فوقَعَ أسيرَ هَواهَا بسهولة، لكنها بعد ذلك اختارت شابًا آخر لتحطِّمَ بذلك آمالَ قَلْبه..

عَلِمَ خالي بالأمر، كان رَجُلًا مُتفهِّمًا، كما أنه اتَّسمَ بالدهاء، فراقَبَ خَطيبَ الفتاة حتى اكتَشفَ أنه يُعاقِرُ الشَّرابَ، فأخَذَ والدَ الفتاة –وكان قريبه– في نُزهةٍ عَفوية، ومَرَّا بالقُرب من إحدى الحانات التي يسهرُ فيها الفتى، وهكذا، تساءل خالي لَمّا لَمَحَهُ خارجًا من الحانةِ وهو سكران بعفوية: أليسَ هذا خَطيبَ ابنتكَ؟

- ماكِرٌ للغاية خالُك هذا!

- فُسِخَتْ خُطبتُهما، كانت صدمة هائلةً للفتاة، فقد أحبَّتْ خطيبها من صميم قلبها كما يبدو، ونتيجةً لذلك أُصيبت باكتئاب حادٍّ وحالةٍ نفسيةٍ غريبةٍ أدت إلى تَساقُطِ شَعْرِها، حتى غدت مُرَوِّعَةَ الشكل كالفزّاعة!



- أرأيتَ؟ أنتَ بذاتك قلتَها: "أحبَّته من صميم قَلْبها"، انظرْ ما أصابَ المسكينةَ من جرَّاءِ حُبِّها الذي فَشلَ..

تجاهَلَ (شاهر) ملحوظةَ صديقه مُواصِلًا السَّردَ بتعنُّت:

- المهمُّ أن ابن خالي تقدَّم لخطبتِها رغم ذلك..

- الحبُّ أعمى، صَدَقَ مَنْ قالَ ذلك!

- قلتُ له إن شَعْرَ المرأةِ تاجُها، فردَّ قائلا بأني لا أفْقَهُ في مَذْهَبِ الحُبِّ شيئًا!

- أتفقُ معه، وماذا حَدَثَ بَعْدَها؟

- فُسِخَتْ خطبتُهما..

- لماذا؟

- اتَّضحَ له أنها فتاةٌ أنانيةٌ طمَّاعةٌ وسليطةُ اللِّسان، لا تُقدِّرُ سوى المال!

- يا سبحانَ الله! لكن ذلك لا يُؤيِّدُ نظريتَك مُطلقًا، يجب أن نكفَّ عن إطلاق النَّظريات المُرتجَلَة ذاتَ التعاميمِ الطائشة..

- يا بُني نحنُ مع النساء مجردُ دُمَى للَّهوِ، كُلهُنَّ مُجنداتٌ لدى (إبليس) اللَّعين!

***



(شاهر) ما زال على حاله.. على سريره مُتأمِّلًا السَّقف باستمتاع وتعبير الانتشاء بادٍ على تقاسيمه الخاوية.. عندما اندفَعَ إلى داخل الحجرة بَغتةً.. الشيخ (نزار)!

بدا واجمًا، مُتجهِّمَ الملامِح وهو يُتمْتِمُ:

- السلام عليكم..

فردَّ عليه باسمًا كمن أصابَه دُوارٌ:

- وعليكم السلام.. ما لك؟

- الدنيا دارُ ابتلاءٍ..

- ومَنْ قال إنها دارُ نعيمٍ ورخاءٍ؟

- ألا تبًّا للدنيا بأسْرِها!

- أوافقك الرأي، لكن، ما بالُك تَنطقُها بغيظٍ هكذا؟

تنهَّدَ كمنْ بَهَتَتْهُ مُصيبةُ المصائب، وهَمْهَمَ مُتضايقًا:

- كيفَ حالُك أنتَ؟

- لا تتهربْ من السؤال.. لكن لحظةً، الموضوع له علاقة بجولييت، أليسَ كذلك؟ .

- بلى..

- ما الذي جرى بينَكُما؟



- وافقتْ على خطبةِ شابٍّ آخر!

- انتكاسةٌ أليمةٌ، هوِّن عليك يا شيخ..

- ناقصاتُ عَقْلٍ ودينٍ!

تبسَّمَ مُرغمًا وهو يتنهَّدُ، ثم تساءلَ:

- هل أستطيعُ تدخين سيجارة؟

- افعلْ ما بدا لك..

- هل تَسمَحُ لي أن أستمِعَ لبعض الموسيقى؟

- لا!

- إذن، دعني أقصُّ عليك ما دار بين ابن خالي وخطيبتِه البلهاء..

ظَهَرَ العُبوس عليه مُجدَّدًا وهو يُسارِعُ بالقول:

- حكيتَها لي من قبلُ مَراتٍ عِدَّة!

وظلَّ يُراقِبُه مُدةً دونَ أن ينطقَ بكلمة، كان يُراقبُ منفضةَ السجائر المُمتلئة عن آخرها بالأعقاب حتى فاضت بحملها..

حيَّاهُ وخرج عَقبَ محادثتهما السريعة، فرَقَدَ (شاهر) على ظهره مُتأمِّلًا سقف الحجرة، حيثُ تدلَّت مروحةٌ متهالكةٌ تدورُ مُصدرةً صوتَ أزيزٍ ضوضائي، كانت الرطوبة خانِقةً، وقد شعُرَ برغبةٍ في النوم للخلاص من الشعور المُمضِّ بالاختناق..



فجأةً.. ارتعدَ بَدَنُه رِعْدَةً هستيريةً، وهَدَلَ نصفُه العلوي على الأرضية، في حين ارتجفتْ ساقُه اليُمنى بشدَّة، وكأنه يُنازِعُ تحت الماء أملًا في الوصول للسَّطحِ للتنفُّسِ، وانفجرت رغوةٌ بيضاءُ شنيعةٌ من بين شفتيه.. كان هذا قبل أن يتحوَّلَ إلى جُثة، أو أن هذا ما شعر به..

لا بُدَّ أن المادة اللَّعينةَ الرائعةَ السببُ!

***

حفلةٌ جميلةٌ مُقامةٌ في الدار تتميَّزُ بتلقائية..

والدتُه أصرتْ على إقامتها، ووالده حَضَرَها على مَضَضٍ لأن لا وقت لديه لهُراء أعياد الميلاد، فقد وَعَدَ ذلك المساء – وفي هذا التوقيت تحديدًا– بمُوافاةِ شخصٍ ما في مكانٍ اتُّفِقَ عليه مُسبقًا، شقة مستأجرة لا يدري أحدٌ عنها شيئًا باستثنائه هو وشخص خاص يهمه أمرُه كثيرًا!

رَدَّدَ ثرثرةً عن تفاهةِ أعياد الميلاد لم يجد لها أذنًا مُصغيةً، أبدى تبرُّمًا وهو يُشاهدُ الكعكة المُغطاة بطبقةٍ ثقيلةٍ من الكريمة المَخفوقة والشموع المغروسة بها، ويُنصِتُ لأنشودة "سنة حلوة يا جميل" المُضجِرَة.. وانتظر بنفادِ صبرٍ إطفاءَ ولدِه الوحيد عشرَ شُموعٍ بأنفاسه الضعيفة وسط تهليل المَدعوِّين وتشجيعهم..

طال انتظاره، فقرب فمه من الشموع قائلًا لولده:



- دعني أساعدْك وإلا بقينا هنا حتى منتصف الليل!

أطفأ الشموع بنفخة واحدة وزوجُه تُطيلُ النظرَ إليه بعتابٍ ولوْمٍ، لكنهُ تجاهَلَها مُقبِّلًا الصبي في جبهتِه قائلًا بعجلة:

- عُقبال مئة سنة يا (شاهر)..

قبّلت الأمُّ وحيدَها على خدِّه، في حين أشار الأبُ إلى ساعته من وراء الابن وتحت أنظار الأم، التي اكتفت بنظرةٍ مُتجهمة وهي تُشيرُ إليه أن يرحل.. بإمكانك الرحيلُ ما دامتْ رفقتنا لا تسرُّك إلى هذا الحدّ!

والصبي لم يكن سعيدًا، لا هدايا باستثناء دفتر رسم وأقلام تلوين، حتى الكعكة التي قطّعوها رمقها بنظرات القرف والازدراء، فهو لم يعد يطيق الحلوى..

جلست الأمُّ مع بعض النّسوةِ يُثرثِرْنَ، وتنحّى الأطفال للّعب والعبث بأثاث المنزل، في حين انتحى (شاهر) جانبًا كي يُخرج علبة السجائر التي سرقها من حُجرة والده..

تناولَ سيجارة وهو يُشاهدُ من خلال النافذة والده واقفًا يُشعلُ سيجارةً هو الآخر باسمًا لخلاصه أخيرًا من ذلك السجن، بدا سعيدًا، لم يكن كذلك قبل دقائق معدودة..

والدتُه تُحادثُ جاراتها وتضحكُ.. تضحك ملء فمها، تضحك شامتةً لسماعها خبر طلاق ... بنتها المُقربة..



الأولادُ يختلسونَ النَّظرَ إليه، سادَ الهمزُ واللَّمزُ، وكأن أحاديثَ النِّسوة لا تكفي، انتقلت عدوى التَّهكُّمِ والشَّماتةِ لأنجالهم أيضًا! يقلدون طريقته في التدخين ويتضاحكون ساخرين!

كَتَمَ سُعالَه بكفِّه، وذهب إلى الحمام حيث أقفل على نفسه الباب هناك..

شَعُرَ بشيءٍ من السكينة.. أنا داخل مكانٍ نَتِنِ الرائحة ومُقفلٍ، لا أحد يحسُّ بي، لا أحد يسأل عن وجودي، أنا منبوذ كصراصير هذا الحمام! لن يفتقد وجودي أحد.. أبدًا!

ثم لم يشعر إلا وتيارٌ كالكهرباء العنيفة يسري في عُروقه.. انتفض بدنه بضع مرات، وتدفقت رغوةٌ بيضاءُ بغزارةٍ من بين شفتيه، وتحولت مُقلتاه للونٍ أبيضَ مُفزعٍ، وكأن مسًّا قد أصابَ بَدَنَه الضئيلَ..

توقف أخيرًا عن الانتفاض، وهَمَدَ تمامًا كما لو استحال جُثةً هامدة..

***

عندما فَتَحَ (شاهر) مقلتيه الواهنتين وجد نفسه راقدًا على سريره داخل سكن الجامعة..

كان العَرَقَ يتسرَّبُ من جميع مسامات جلده، وبنبرةٍ هستيريةٍ أخذَ يُردِّدُ وأنفاسُه تتلاحق كما لو كان عائدًا من سباقِ ماراثون:



- مجرد كابوس.. مجرد كابوس مُفزعٍ!

نَظَرَ من خلال النافذة، فأبصر الأُفُقَ يصطبغُ بلونٍ أرجوانيٍ خلّابٍ، دفعَه لأن يقولَ هامسًا:

- الفجرُ ينبلجُ..

ونَهَضَ من على الفِراش بتثاقُلٍ مُردِّدًا في خلاصٍ:

- كابوسٌ مُفزعٌ.. مجرد كابوسٍ مُفزِعٌ!



الجُزْءُ الأَوَّلُ



1

تدحرجتْ كُرةُ قدمٍ مُتّسخةٌ بالطين الجافّ وعلامات الأصابع العارية بين الأقدام الحافية العنيفة.. صغار يمارسون اللُّعبة كأنهم في حَرْبٍ، يتشاجرون بأكثر مما يتسلون، ويحاولُ بَعضُهم تحطيمَ سيقانِ بعضٍ بهجماتٍ رُعْنٍ هَدَفُها الأذية البحتة..

في ذلك الحي الفقير القَذِرِ، حيثُ يجلس الشُّبانُ بجذوعٍ عاريةٍ طلبًا لبعض النسائمِ البارِدةِ التي لا تجيءُ ذات ظهرٍ قائظ، وتبركُ النسوةُ الدميماتُ كالنوق لغَسْلِ الخضراواتِ تمهيدًا لبيعها، مُراقباتٍ أنجالَهنَّ وعيونُهنَّ غير مهتمة، وألسنةٌ لا تكاد تتوقّفُ عن قَذْفِ الثَرْثَرَةِ، والرجال باذُو الشَراسةِ والخُطورة وهم يتبادلون الأحاديث وتدخين لَفائفَ يدويةَ الصُنع، ولربما تلمح مُسنًّا عركته الأيام يضطجعُ على قارعة الطريق مُتضمخًا بالعرقِ، والذُبابُ مُجتمعٌ عليه، فلا يكاد يطرف له جَفنٌ..

بدا حيَّ أشباحٍ لا أثرَ للحياة فيه، فقط مُمارساتٌ رتيبةٌ كئيبةٌ، الشتائم الداعرة والجدفة ترتفع فتستقبلُها آذان النّسوة بضجرٍ غير مُعْلَنٍ، والعفاريت الصغيرة تتشاجر بشراسة تُعجبُ الشيطان، يتقاذفون فيما بينهم فلا يسلم عِرْضٌ أبدًا..

تمُرُّ فتاةٌ لَعوبٌ مرتدية تنورة قصيرة ومطوَّحةً بساقين ملويتين ببراعة، فيتصايح الشبان بجموح مُطالبين المليحة الجريئة بمزيد من الجرأة، يُطاردونها بنظراتٍ ناريةٍ، وأفواههم إمَّا مفغورة أو ناطقة بالعباراتِ القَذرةِ المتلمظة، فلا تُظْهِرُ المليحة اشمئزازًا إلا لرَكْضِ الجُرذان قُرب كعبيها، وقد تتوقّف لتردَّ لهم بعضًا مما قذفوها به، فتبصُق صوبَ هذا، وتشتمُ أمَّ ذاك، ثم تلصق بالجميع وصمة "أبناء الحرام" قبل أن تغيبَ..

تَحْدُثُ ثورةٌ مُفاجئةٌ بين صفائح القمامة الصَّدئة.. إذ وثب قطٌّ قذر أعور بَغْتةً بُغيةَ اصطياد جُرذٍ يَقتاتُ عليه، قبل أن يُهرع بعيدًا في رُكْنٍ بعدما ظَفرَ بغنيمته التي تقْطُرُ منها القذارةُ..

الرائحة كريهة، لا تُحتملُ، كأنّها رائحة الغائط في قِماطِ طِفْلٍ، والجميعُ غيرُ آبهٍ للروائح، والشّتائمِ، والمُشاجرات، كأنه جَحيمٌ نَتِنٌ على الأرض، بُقعةٌ لا يُصدِّقُ وجودُها ما لم تَرَها، والمحزن أنك تراها.. هكذا فكَّرَ (شاهر) مُتأمِّلًا "ديستوبيا" التي ولجها بقدميه.. بدا أنيقًا مُقارنةً مع الأسمال التي يتلفعون بها، ارتدى بذلة رماديةً غامقة مُبخّرةً



وقميصًا سماويًا، بصره محجوب بنظارة سوداء رَمَقَ عَبْرَها الحياة الوحشية مهمومًا.. لربما كانت فكرةً سيئةً.. قدومه إلى هذا المكان الذي يعاني أسوأ صُنوف الشَّظف، بم كان يفكر بحَقّ الجحيم؟ المكان كانَ وكرًا، جُحَرَ ثعابين، وليسَ مَسْكَنًا لآدميِّين..

اشرأبت الأعناق صَوبَه، الجميع توقَّفَ عما يقوم به، كأن الزمن ذاته توقَّفَ في الحي القَذِرَ، حتى الجُرذان في مستودعات القمامة ركدت، الأنظار مُثبتةٌ عليه، تُتابِعُه بشَغفٍ وكراهيةٍ وتحفُّز..

الصغار توقَّفُوا عن الشِّجارِ وهَتْكِ الأعراض بالألْسُنِ، كانت الكرة تتدحرج ببطءٍ حتى استقرت بين قدمي الغريب.. تأمَّلها ساكنًا قبل مَدِّ أنامله والتقاطها.. ببطء رَفَعَها حتى واجهتْ بَصَرَه، كما لو كان يتأمَّلُ كُرةً كريستاليةً ذات أنوارٍ خلَّابة..

التقطَ الشُّبانُ طرف الخيط، رحبُّوا بالمواجهة، أخرجوا السلاح الأبيض واقتربوا بحماسةٍ لا تخلو من حَذَرٍ، بدوا كنُمورٍ يافعةٍ باحثة عن فرائسَ، ففَتَحَ أناملَه ليُسقطَ الكُرةَ..

تدحرجت جانبًا، فتابعتها أبصارُهم كأنها رسالةٌ ما، عادوا لمراقبته، كان صامتًا كصَنَمٍ، يتابِعُهم ببصرِه كما يتابعونه، كانت معركةَ تحديقٍ بالأبصار..

- "ماذا تريدُ؟"



أخيرًا كَسَرَ أحدهم حاجز الصمت، حتى إن بعضهم تنهّد بارتياحٍ، كان الصمت مُطبقًا وغريبًا في حضرة ذلك الغريب، وتحمّس أكثر الصبية فتعالت الصيحات المتحمسة:

- "اخلعوا عنه ثيابه!"

- "افتحوا بطنه!"

- "اخرسوا يا خنازير!"

خَرِسَ الصِّبيةُ كالدمى التي فرغت من بطاريالها، في حين، رجع الاهتمام المتربص كله صوب الغريب الصامت..هل ينطقُ؟ متى ينطق؟ لماذا لا ينطق؟ أهو أصم؟ أم أخرس؟ أهو مجنونٌ كي يظهر بقدميه في حي كهذا الحي بهندامه المرتب ذاك؟

- "أبحثُ عمّن يُدعى (ضيوي)!"

بدت جُملةً عاديةً خرجت من فمٍ طبيعي، لكن بدا لوقعها على نفوسهم أثرُ الصاعقة، وأدركوا -على نحو ما- أن الغريب الآن بات مَمنوعًا من اللّمسِ حتى ينظر كبيرهم في أمرِه..

- "هلم.."

ساروا وسار يتبعهم دون أن يحيد بصر أحدهم عن الدَّرب المقصود، زُقاق ضيق عبروه، مياه المجاري الطافحة في كل شبرٍ ورُكنٍ، والناموس متجمع فوق البِرَك المائلة للخُضرة المتعفنة، تقاطرت مياه



الثياب المغسولة والمنشورة على الشرف فوقهم كالأمطار، الرطوبة تزيدهم اختناقًا كلما ضاق الممر، أبصر (شاهر) في آخره بابًا شبهَ موارب، وقبل أن يبلغوه توقّفَ الفتى الذي يقودهم قائلًا للجميع:

- انتظروا..

قَصَدَ بها الزائر طبعًا دون أن ينظر إليه، وغابَ بالداخل مُدةً قصيرة تاركًا الشاب بين أعوانه، يلوكونه بأنظار حادة تنبش عن سر زيارته لمقر قيادتهم، لكنه وقف غير آبهٍ لشيء، لا يتحرك به سوى صوت أنفاسه المنتظمة..

- "ادخل.."

انبثق الصوتُ من العتمة المُبهمة، فجاوز (شاهر) الجميع ليلج بخطًى رتيبةٍ وجرأة غير معقولةٍ، لم يزر مكانًا كهذا في حياته من قبل، لكنه مستعدٌّ الآن لما هو أكثر..

لم يتبين سوى ظهر الفتى المتحرك بسبب العتمة الدامسة والنظارة على عينيه، لكنه لم يخلعها.. تبع الفتى فحسب إلى غرفة تشعُّ بضوءٍ أحمر خانقٍ.. وبالداخل، تمدَّدَ رجل في أواخر الستينيات من عمره، ذو حاجبين كثّين على أريكة خشبية مُرتديًا جلبابَ نومٍ مُقلّمٍ، وقد وضع قدمًا فوق الأريكة وأراح الأخرى على البلاط حيث جلست امرأة غير محتشمةٍ تجهز له "النرجيلة"..



تصاعَدَ البخور من مبخرة عثمانية مُتدلية من السقف، على الجدران فراء ثعالب وبضع قطَعٍ أثرية مُتدلية، غدارات وسيوف من عهدٍ إسلامي مُندثرٍ..

الجدار وراء الرجل حمل لوحة ذات إطار مُزخرفٍ دُونت عليها آياتُ سورة الصمد، فكّر (شاهر) بالتناقض هنيهة دون إظهار ذلك في تعابير وجهه المستكينة..

- "دعونا.."

خرجَ الكل إلا المرأة المشغولة بالتعميرة، وبنظرات ناعسة ولهجة ملول غَمْغَمَ الرجل دون حتى أن يرفع وجهه لتأمُّل ضَيفه:

- نعم؟

- (R.D.6)..

- آه!

قالها بفهمٍ مُستهزِئًا.. كما لو كان المطلب شريحة قمر صناعي مُتطور من ميكانيكي سيارات نصاب،ماذا تصنع تحفة مثل (R.D.6) في هذا الجحر القذر؟

أخيرًا، اعتدل (ضيوي) في جلسته، لا ذوق ولا احترام.. لقد ولج الوكر بقدميه وعليه التحمُّل..

تجاهَلَ (شاهر) رغبةَ القَتْلِ المعتَملةَ في نفسه، إذ تمنّى فصل رأس هذا الرجل النّتن عن جسده.. وبتؤدة غمْغَمَ:



- أريدُه ولو نبشت الأرض بحثًا عنه..

فتبسَّم الرجل واضعًا قدمه المُشقَّقة في حِجْرِ المرأة قائلًا لها بازدراء:

- دلِّكي..

نفذت بانصياعٍ تامّ، ونظر الرجل حوله باحثًا عن رُفقةٍ غير موجودة قائلًا باستهزاء:

- تائه يا أولاد الحلال!

- أين أجدُه؟

- ارجعْ يا بني فالعمر..

وإذ بشاهر ينقضُّ عليه ليُطبقَ على حنجرته بأصابع كالكلابات!

فأطلقت المرأة شهقةً، وقبل إطلاقها صيحةً باغتَها (شاهر) بتحديق زاجرٍ لا يُهادِن، فانكتمت..

اختنق الرجل، سال زَبَدُه حتى بَلَغَ القبضة التي لا تمزح، وأنصت إلى لهجة تهديد لا يبدو صاحبُها غاضبًا إلى ذلك الحدّ:

- "لا تُمثّل دور الرئِّس عليَّ! أنا لا أمتثلُ لبصقةٍ، وأنت مجرد بصقة.. هل ينصتُ عاقلٌ لبصقةٍ؟"

- "آغغغغغ!!"

جرس هاتف يرنُّ..

ثمة هاتف، هاتف على الطراز القديم من زخارف مُذهَّبة.. أفلت (شاهر) ضحيته التي فقدت الثقة المتعالية تمامًا..



وبذُعرٍ، تناول (ضيوي) السماعة مَلهوفًا وهو يدفع المرأة بقدمه في وجهها، صارخًا بغضبٍ فجرّهُ هَلَعُه:

- إليكِ عني! خارجًا!

هُرعت للخارج مَذعورةً ويَدُها لا تكفُّ عن لطم صَدْرِها، في حين وضع (ضيوي) السماعة على أذنه.. لم ينطق بحرف وهو يستمع للطرف الآخر يتحدث، هزّ رأسَه قبل أن يضع السماعة بمكانها متأمِّلًا (شاهر) بنظراتٍ مُتخوفةٍ..

لم يتفاجأ (شاهر) عندما انكشف جزءٌ من الجدار، دار على مِحورٍ عموديٍّ يسمحُ بمرور شخص واحدٍ لا أكثر، رأى نورًا أبيض كادَ أن يطغى على الضوء الأحمر المَقيت الذي وَقَفَ بمحيطه، وبنبرة شَابَها توتُّرٌ دمدم (ضيوي):

- المُعلّم سيقابِلُك..

رَمَقَه (شاهر) بصمتٍ.. قالَها كمثقّفٍ باستخدامه لتلك الكلمة، كأنما يتكلم عن (أرسطو) لا عن صاحب غُرزةٍ أو مقهًى..

لم يتردَّدْ ولو حتى ثانيةً، اندفع للداخل تاركًا التابع الكلب، كان مجرد كلبٍ من كلاب المُعلم إذن كما توقّعَ بالضبط..

لا وجود لسوى مَلكٍ واحدٍ على أية مملكة، حتى وإن كانت كهذه في السوء والانحدار..



2

على النقيض تمامًا، وجد (شاهر) نَفْسَه في مكتبة!

المكان مُرتَّبٌ ونظيفٌ ينمُّ عن ذوقٍ رفيعٍ في انتقاء الأثاث غالي الثمن، المكتبة احتلت الجدار الخلفي وراء المكتب العريض الذي اصطُفت عليه تماثيل بُرنزيةٌ لحُورٍ عارياتٍ متموضعات، ثمة صندوق خشبي يحمل صورة أيل يبدو أنه صندوق سيجار، أقلام شفرة فضية، سكين فتْحِ خطابات..

وعلى كرسيٍّ دَوَّارٍ وَثيرٍ جَلَسَ.. المُعلم.. لا يمكن إلا أن يكونه.. رجل وقور يرتدي نظارات مظللة، وبذلة أنيقة سوداء مضمخة بعطر فاخر فوَّاح، ورابطة عنق كحلية دسَّ بها دبوسًا مُذهَّبًا، كان ممتلئًا، لحيته كَثةٌ ذات لونٍ رمادي تخللته بعض حُمرةِ الحنَّاء، شبْهُ أصلع، وقد أطالَ ما تبقَّى له من شَعْرٍ حتى بَلَغَ كتفيه..



مدَّ يده بترحابٍ داعيًا ضيفَه للجلوس على الكرسي الوحيد الموجود هنالك، بدا كرسي اعترافٍ أو تعذيبٍ، لم يجلس (شاهر) بل ظلَّ واقفًا ينتظر..

أشعل المُعلم غليونًا عنابيًا بتؤدةٍ مُراقبًا النظارة السوداء التي أخفت عيني صاحبها بإحكامٍ.. فَرَغَ من طُقوس الغليون، فنفثَ دُخانه الضَّبابي كقاطرةٍ وهو يفتح الصندوق عارضًا على (شاهر) سيجارًا يُدخّنه..

- "لا ألْمَسُ هذه الأشياء فهي لا تعجب سوى ضيوفي، إنهم يحبون التظاهر بالفخامة وكأنّهم رجالُ أعمالٍ أو ملوكٌ، الحَمقى! يظنون نّ مجرد تدخين سيجار سيجعل منهم أصحاب شأنٍ وهم مجرد صعاليك!"

- "لا أدخن.."

رَمَقَه الرجل بمقلتي صقر.. كانت حدقتاه نافذتين يمكن تبيُّنهما من وراء زجاج نظاراته المعتمة، بدا كأنه استشفَّ كل ما يبتغيه من مُراقبة تعابير ضيفه المُتجهِّمة، وبثقةٍ هَمَسَ:

- أمتأكدٌ أنتَ؟ لا أحد هنا يرفُضُ الدخان، إنه الهواء الذي نتنفَّسُه!

- أقلعتُ..



- هذا شأنك، يقولون إن للإرادة علاقة بالإقلاع، هذا هُراء، الإقلاع يأتي عندما يضجر المرء ويفقد لذة الإحساس بالشيء..

- (R.D.6)..

- آه.. بديل السجائر الأنسب! أتحلم بإيجاد المخدر رقم واحد حاليًا؟

- أين أجدُه؟

- بالخارج ستجدُ العشرات، لا بل المئات من الضباع الجائعة، أعتقد أن الخواطر راودتك بشأن هذا المكان وخارجه، لا ريبَ بأنك فكّرت، مَلكٌ خفيٌّ للصعاليك يَسَعُه السيطرة على تعطُّشهم للدم والمال والمخدرات والنساء، يضع توازنًا للإبقاء على سير الأمور الطبيعي دون مشكلات..

كما لاحظتَ أجدُ عزائي بالقراءة، أنا رجلٌ مُتعلّمٌ يا سيدي، ولن أقول عن نفسي مُثقفًا، المثقفُ لا يقول عن نفسه: أنا مثقف! هذا زيف لا شك فيه، مُكابرة وغرور أيضًا..

طالعتُ كثيرًا حتى شابَ بصري بعض الضعف، لكن لا بأس، هذه ضريبة أدفعُها عن طيبِ خاطر لمعرفة أفكار الأقدمين، كما أنها تنسيني ما يدور من هُراءٍ وخواءٍ في العالم الخارجي..



في الحياة أمورٌ أهمُّ من مُجردِ مَعرفةِ مكانِ شيءٍ أو شخصٍ، ومن الانتقام! الانتقامُ سخافةٌ جعلتنا أقرب للهمجية، فقد علمتني السنون مراقبة الجميع بعيني الحياد وبكثيرٍ من الشفقة، هل سمعتَ بسيزيف؟

- دُلّني على المادة وإلا..

- كلُنا سيزيف كما ذكر (كامو)! كلنا ذلك الإنسان العابث، أعمالُنا هُراء، وأقوالُنا هواء، نحن نأكل ونشرب ونتعاشر، أنت قادمٌ من عالمٍ تأكلون فيه لحوم الخِراف والطيور، وتشربون الماءَ المنقى، والعصائر الطازجة، والمشروبات الروحية، تتزوجون كي تمارسوا المُتع الجسدية بالحلال، ولتنجبوا ذُريةً تدركون سَلَفًا ميراثها في الحياة..

ثم تهبط للقاع بقدميك؟ في هذا الوكر؟ حيث يأكلون لحوم بعضهم بعضًا؟ ولا يشربون سوى الخمور الرديئة؟ هنا الرذيلة بأسوأ صورها، والميراث مجهولٌ أيضًا.. بائع مخدرات؟ قواد؟ المستقبل هنا مُظْلِمٌ كقلوب الكفار يا سيدي.. أنت قَدمْتَ من عالمٍ مثاليٍّ خيِّرٍ بقدمين متهورتين، تظنُّ عالمنا فِهرسًا في كتاب الفساد والظلام، مُفعمًا بمصطلحات المخدرات والدعارة، أنت وأمثالك تزورون المكان لمصطلحات عجيبة أجدُها مُضحكةً لحدِّ البكاء، شرُّ البلية ما يُضْحِك.. تحسبوننا سوبر ماركت للأشياء العَفِنَة!

الأحراش في كل مكان يا صاحبي، عالَمُك الذي قَدمْتَ منه ليسَ استثناءً من ذلك، الآن وأثناء حديثنا ستجدُ زوجتك نائمةً في أحضان



شخصٍ آخر، ستجدُ رجُلًا وقورًا يَعملُ أستاذًا في مدرسة ابتدائية يُداعبُ صَبيًّا مُداعبتَه لفتاة، ستجدُ في فنادق الدرجة الأولى التي يصورونها في البرامج السياحية على أنها الجنة- غُرفًا مُقفلةً، هل فكرت بفتح إحداها؟ ستجد رجالًا مع قاصرات، وعجائز مع مراهقات و..

- لا تُحدِّثني عن عالَمِك العَفِنِ، فلم آتِ لسماع الحواديت المَقيتة..

لم يغضب الرجل، ابتسم فحسب قائلًا بتؤدة:

- لسنا بمستنقع لبصق الخيرين من أمثالك، فارحلْ بسلامٍ وابصُقْ في مستنقعك الخاصِّ..

- سأبصُق في وجهك إن لم..

قاطعه الرجل مُقهقهًا، ثم أشار بسبابته قائلًا ببسمةٍ واسعةٍ أظهرت نواجذَه:

- لا تُصدِّقْ ثقتَك بنفسِك فهي زائفةٌ!

لا تُصدِّقْ رواياتِ البطولة، فالكتابة أسهلُ من الفِعْلِ، أستطيعُ بقلمي هذا أن أسلخ جلد دُبٍّ بأظفاري! لكن الواقع أعسر بكثير.. صَدِّقْني!

صَرَخَ (شاهر) ضاربًا سطح المكتب بقبضته:



- (R.D.6)؟!

- آه! الإدمان مُشتعل، مثل اللافا في العروق!

استعادَ (شاهر) قبضته لاهثًا كالراكضِ، فهَمَسَ المُعلم:

- لا تحاوِل الاستخفاف بي فأنتَ لم تُخفْني..

- أريدُ المادة اللعينة فحسب.. أرجوك!

راقَبه المُعلمُ مَليًّا.. كان يحاول النَّبشَ بعُنفٍ فيما وراء نفسية هذا الشاب الواقفِ أمامه، لكنه اصطدم دومًا بنظاراته السوداء المُداهنة..

- "اخلعْ هَذه.. دعني أنظرْ في عينيك.."

مدَّ (شاهر) يده وخلع النظارة، فنظر المُعلم بصمتٍ طويلٍ..

قَطَعَه أخيرًا لمَّا قالَ بشَغَفٍ:

- مجرد مُدْمنٍ تَعِسٍ آخر..

- لا أريدُ شفقتَك..

- شفقتي؟ الشفقةُ ثَمنُها بَخْسٌ في أسواقنا!

- كم تُريدُ؟

- كم ستدفعُ؟

- ما تطلبُه..

- المطلوبُ فادحٌ، لن تَقْدرَ عليه..



- لا يهمُّني..

- ربما أساعدُك حقًا، فأنتَ كائن ميَّال للوثْب بين العالمين، بإمكانك تحقيق الكثير، عَزْمُكَ على السير حتى مبلغ الهدف أمْرٌ مُثيرٌ للاهتمام!

أرى ألا ضَيْرَ من مساعدة زبونٍ قديمٍ وعزيزٍ على جيوبنا وخزينتنا لكن بشروطي أنا، اعْلَمْ أن المُعلم ليس مُجرد لقبٍ تافه، أنا الحياةُ هنا، أهَبُها لمن أشاء! أنا المماتُ هنا أُوقعُه بمن أشاء، أنا إلهٌ صغيرٌ في هذه البقعة الزائلة المَنسية من الأرض، لا أهابُ أحدًا، ويَهابُني الجميع..

- إذا أردتني أن أخِرَّ ساجدًا لك فأنتَ واهِمٌ..

- لا أتوقَّعُ منك غير ما قلتَه، لا تقلقْ فأنتَ لستَ من عبادي، أنت (إبليس) حينما أبى واستكبرَ!

- هل قلتُ: إنك مجرد ثَرْثَارٌ؟

- أحسبُك ذكرتَها سابقًا! لا بأس.. إذا أردتَ المادة فهي لك، لقد أجهدنا تدبير كميةٍ شحيحةٍ ونادرَة، هي لك، لكن بشرطٍ واحدٍ قد يُكلِّفُك الكثير.. أنا لا أحاولُ إخافتَك، بل أُجرِّدُ الحقيقةَ من ثيابها أمامك لتتأمَّلها بكل تفاصيلها القَذِرة.. هل أنتَ مُستعدٌّ للتجربة؟

- بكل تأكيد..



- أنت ممن يخافون بعسر، مَجيئك إلى هنا يدلُ على ذلك.. أنا أُحاولُ دَفْعَكَ إلى رؤية الحياة بمنظورِها الحقيقي، أنتَ مُرتاحٌ نِسبيًّا كونك في مكتبة نظيفة، تخاطِبُ رجلًا مُتعلمًا أنيقًا في غُرفةٍ نظيفةٍ ومُعطَّرة..

تذكُر الأنجاس والباغيات والصبية الأنذال، تذكُرْ (ضيوي) وبَغيَه والروائح الكريهة.. كل هذا مجرد غَيْضٍ من فَيْضٍ..

غابةُ البَشَرِ ليست بحاجةٍ لَمِلِكٍ، الكل يسعى بوسائل القتل والنهب حتى يصير الآمر الناهي، الدرب هنا مُلوَّثٌ، مُلوَّثٌ بِشِدَّةٍ، تفوح منه رائحة نجاسة لا تُوصَفُ، والمنظر لا يُصدَّقُ!

عُد إلى حيثُ الأمان، أوجِدْ عالمًا طبيعيًّا يبعُدُ كل البعد عن بؤرة الجنون، لا تجعل من نفسك عُرضةً للضياع من أجل هدفٍ أحمق..

لا تَدَعِ الحُمْقَ يُدمِّرْك!

رَمَقَه (شاهر) بنظراتٍ ثاقبةٍ خبيرةٍ..

لقد أدركَ أمرًا لا يمكن إغفالُه عن مُدمنٍ مُحترفٍ، إنه يتعاطى المادة منذ أربعة أعوام، لم يحتفظ خلالها بمَسْلَكٍ واحدٍ يسلكه المدمنُ المخبولُ، كان مُدْمنًا ذا أعصابٍ فُولاذية، يدمن وهو يفكِّرُ، ولا يتصرفُ بطيشٍ.. نصفُ المُدَّخرات يُنفقُه على الأكل والشرب والإيجار، والنصفُ الآخر يُنفقُه على التعاطي، (R.D.6) مادة مختلفة



عن جنون الكوكايين والهيروين المطبق، إنه مخدر يختلف عن سابقيه، تطوَّرَ من واحد إلى ستة بغير عَبَث، مُخدِّرٌ راقٍ إذا ما صُنِّفَ بدقّة..

أمالَ وجْهَه ليُطالِعَ تقاسيم المُعلم المزعوم، وبثقة شابَها استهزاءٌ هَمَس:

- أنتَ مُدْمِنُ (R.D.6).. مثلي تمامًا!

وتراجعَ مُتوقّعًا اشتعال غضَبِ المُعلم.. إلا أن الرجل صَفّقَ بيديه مُحْدِثًا دَوِيًّا كالمُفرقعات، وقَهْقَهَ قائلًا:

- عظيم! ممتاز! أنتَ الضالّةُ المَنشودةُ حتمًا!

- يجدُرُ بك فِعْلُ شيء بشأن جُنون العظمة الذي يَنْتابُك، إن (R.D.6) مُخدِّرٌ مُؤذٍ نفسيًا، أعراضه تبدأ بأمراضٍ النفسية، وتنتهي بعينين مُحمرتين وحكّةٍ وتنميلٍ بالأطراف معظم الوقت..

- لا تخفْ، لن أهرش جسمي أمام أحدٍ، أستطيع التحكُّمَ بجَرَبي!

- هذه مشكلة تخطيتُها أنا الآخر منذُ زمنٍ بمَرهَمِ دوالي الساق!

وتبسَّمَ مُتشفيًّا، حتى المَلِكُ سَقَطَ ضحية مملكة السوء الخاصة به، هذا أول ملك يفقدُ السيطرة على عَرْشِه بهذا الشكل، ويتحوّلُ إلى تابعٍ يُمارِسُ ما يمارسه أيُّ تابعٍ مُدمنٍ!

خلع المُعلم نظاراته مُطالعًا (شاهر) بحدقتين دمويتين كالأبالسة، وراقَبه طويلًا قبل قوله باهتمام:



- كيف تُخففُ من حُمرة عينيك بهذه الصورة؟

- أستعملُ قطارةً خاصةً بالعيون، أتريدُني أن أخبرُك بتركيبتها؟

- يا حبذا!

- هنالك مُقابلٌ طبعًا!

قهقهَ المُعلم مُجددًا، وأعاد نظاراته إلى عينيه قائلًا:

- لا بأس فقد اعتدتُها، كما ترى يا سيدي أنا مُهتمٌّ بمُدمنٍ مُتمكّنٍ جيدًا من أدواته، رأيتُ على شاشتي قوّتك رغم الإدمان، فأدركتُ أنك مُدمنٌ يَقظٌ! لستَ كديدن الصعاليك الذين يغرقون في دوامة السُّمِّ، فلا ينتشلهم من القاعِ سوى أطباء المشرحة..

ما دام أحدُنا يفهمُ الآخر سأخبرُك بالمطلوبِ حالًا دونما إبطاء، نحن بحاجةٍ لباحثٍ، باحثٍ مُتمرّسٍ يستطيعُ إطلاعنا على النتائج المُترتبة على إدمان مخدر (R.D.7)..

- (R.D.7)؟

- مفاجأة، أليس كذلك؟ العلْمُ لا يتوقّف عند حَدٍّ، هذه المعلومة الصغيرة سرِّيةٌ للغاية، لكنني سأُجرِّبُ الثقة بك..

نحتاجُ إلى مُدمنٍ يَقظٍ لتجربة المُخدِّر المُطوَّر قبل تداوُله بالسُّوق، لمعرفة: أكان ناجحًا أم لا؟ ابتدأنا بالفعل إنقاص كمية المُخدِّر القديم



حتى صار سلعة نادرة في السوق، (R.D.6) كان هوسًا حقيقيًا، لكننا نسعى لجعل (R.D.7) أعجوبة العالم الثامنة!

- وأنا فأر التجارب؟

- ذكرتُ كلمة "باحث" لأنها أقلُّ ضراوةً من فأر تجارب، سَمِّه استطلاع رأي.. استبيانًا! يجب أن تُدرِكَ مدى قوة المُخدِّرِ المُطوَّرِ أو ضعفه، يجب عملُ مُقارنةٍ ما بين المخدرين لرؤيةِ نتيجة سنوات العمل الشاقِّ..

- هَبْ أنني رفضتُ؟

- لا إجبارَ هنالك، لكن حالك سيصيرُ من حال البقيةِ المتأزمة بالخارج، ستظلُّ تبحث عن مُخدِّرك حتى الإعياء ولن تجدَه، فكِّر بالموافقة، فالموافقة معناها تزويدُك بمخزونٍ كالحُلم من المخدر المطوَّرِ، فإذا أثبتَّ فشلَه زودناك بكميةٍ هائلةٍ من المُخدِّر القديم.. ماذا تقول؟

ومدَّ يده طلبًا للمُصافحة، فتفكَّر (شاهر) هُنيهةً..

تنفَّسَ بعُمقٍ ثم تساءل:

- أتنوي تجربتَه؟

اكْتَفَى المُعلم بابتسامةٍ صفراءَ ولم ينطقْ، فأجاب (شاهر) نيابةً عنه:

- بالطبع تريدُ تجربتَه، الفضولُ يُساوِرُك بشأن متعةٍ جديدةٍ، لكنك تخشى العواقب..



- العواقب؟ كالموت مثلًا؟

- كالموت..

- على العُموم هذا عَرْضٌ مُغرٍ، لكنك غيرُ مُجبرٍ على تقبُّله..



3

مَشَى البدين بفانلته الداخلية المُلوَّثة ببُقعِ العرق وزيت القلي، وأظفاره الطويلة الفاحمة تهرش لدغه بعنف من أثر قَرْصِ البعوض..

تبعه (شاهر) مُتناسيًا رؤيته عبوات البيرة الرخيصة المُلقاة في أركان البناء، والجُرذان التي مَدَّت أفواهَها لتتذوَّقَ من فتحاتِ العُلب كأنما تبحثُ عن السكرة بدورها، اشتمَّ رائحة قيء، أنصتَ لأصوات صُراخ عنيف، كان عِراكًا بين رجال وعشيقاتهم، تعرَّف أنفُه رائحة الحشيش التي تُصيبُ المرْءَ بالدُّوار، وقد زكمت أنفه بقوة..

قال البدين وهو يهرش إبطه غزير الشعر:

- الأجرة عشر ليرات يوميًا.. لا ماء، إذ يجب عليك البحثُ عنه، لا كهرباء أيضًا، لكن هذا لا يهمُّك، أليس كذلك؟

كيف تعرف أيها البدين القَذِرُ ما يهمُّني وما لا يهمُّني؟



حتى القطة التي مرت بجواره حامل، تمامًا كالبشر. عالمٌ ملوَّث ببشره وحيواناته. ما الفارق بين العالَمين؟

انفتح باب إحدى الغرف لتندفعَ منه طالبةٌ في المرحلة الثانوية، عرف ذلك من مريولتها وحقيبتها المدرسية، الدموع تُغرقُ مقلتيها مع الكحل، ارتطمت به فأوقعت حقيبتها.. تناولتها مُغطيةً فمها براحة يدها..

- "(شهد)، ارجعي بحقِّ جهنم!"

هكذا ارتفع الصوت، خَشِنًا لا يخلو من تمالُك.. مرا أمام الباب، فأبصر رجلًا مكتنز البدن واقفًا بثوبٍ داخلي، صَرَخَ كالمسعور وهو يطالعُهما بسحنةٍ مُحتقنة:

- ماذا تبغيان؟! اغرُبا قبل أن..

ابتعد البدين صاحب العقار بخطًى سريعة كأن الشيطان في أعقابه، تبعه (شاهر) بذات الخطى الرتيبة، لن يتراجع ولن يتردَّد، هؤلاء مجرد حيوانات، وإذا تطلَّبَ الأمر ليتحوَّل إلى حيوان كالجميع فليكن..

- "غرفتك.."

ومدَّ البدين يدًا ملوثة بالسُّخام فنقده (شاهر) الأجرة، ناوله المفتاح الصدئ، وغادرَ وهو لا يكفُّ عن التجشؤ..



دلف (شاهر) منزله الجديد.. المكان قذر، قذر لأبعد الحدود. كأن البهائم سكنته قبْلَه، غُبارٌ وشباك عناكب، أمر مفروغ منه، لا. لن يكلف نفسه عناء إلقاء نظرة على الحمام فرائحتُه تُعبّقُ أرجاء الغرفة..

الفراشُ ملوّثٌ بالعرق الجاف وماء الرجال – ولربما النساء أيضًا، قام بقلب الفراش فوجده أفضل حالًا.. هكذا رَقَدَ بكامل ثيابه وحذاءيه وحتى نظاراته السوداء متأمّلًا السقف مشقوق الطلاء..

لم ينم.. كيف ينامُ هنا؟ في غرفة الشيطان؟ والبعوض؟ رباه! ماذا عن الرائحة؟ أهي غرفة أم قبر؟ أيرقد على فِراشٍ أم داخل تابوت فرعوني؟

الويل كل الويل لمن سَلَكَ سبيلَه.. كلمات المُعلم ما زالت تتردَّد داخل رأسه، (أفلاطون) الحي المزعوم.. تبًّا له من أفّاكٍ، وتبًّا له من حيٍّ، وتبًّا لهم من مخلوقاتٍ تُضاهي الشياطين!

مجرد قتلة وزُناة مدمنون، لا يستحقون شيئًا من كرم الدنيا، لطالما مَقَتَهُم، مقت الشرَّ الصريح غير المُغلّف، الشر الحيواني الشره المتطي أجساد النساء وذراعه مُشوّهةٌ بحقن السم، وقد كشف فمه المفغور عن أنيابٍ ملوثة بدماء الجنون..

الإدمانُ شهوةٌ، إشباعها ألذُّ وأشهى من قضاء الوطر، يشعل الحياة في روحك الساكنة، شرارة حياة في برميل من البارود، يُفجّرُه، يجعلُ الميتَ يُبعث حيًّا من جديد.. ها قد وجد سبيلًا للحياة بعد أن قضى



جُلّ عمره كالمتعفن في قبره.. إذا كان الثمن الانصياع لأوامر المُعلم فليكن، لقد وجد أخيرًا مَدعاةً للعيش من جديد، حتى وإن كان الثمن الانضواء تحت راية قانون الغاب..

خالطت أفكاره القاتمة أصواتُ ضجيجٍ، وصَخَبُ حيوانات العالم الخارجي.. أنصت للمشاجرات والصراخ والبكاء والضحك بنصف أذن كالحالم، قبل أن يغلبه سلطانُ النوم أخيرًا..

***

كان القارب الخشبي يتأرْجَحُ في عرض بحرٍ قاتمةٍ مياهُه، السماء مُغطاةٌ بغيوم دخانية، والأفُقُ لا يبشر بيابسةٍ..

وَجَدَ نفسَه جالسًا في القارب بسكينةٍ عجيبة، متمتعًا بالعُزلةِ بلا أملٍ في النجاة، البعد الآخر المجهول، لا بَشَرَ ولا أَمَلَ..

أفاقَ في التاسعة صباحًا، لا أذانَ لأنه لا مسجدَ، كان هنالك مسجدٌ وهُدِمَ، بالأحرى تهدَّمَ من تِلقاءِ نفسه، يُشاعُ أن إمامه صلى الفجر وحيدًا بلا أمل في حضور إنسانٍ واحدٍ يَهابُ ربَّه..

لم يحدث أن رُمِّمَ المسجد، كان آيلًا للسقوط كأيةِ بنايةٍ مُتهالكة، تهاوى أخيرًا وعلى رأس الشخص الوحيد الذي عاش بمرارة وخشية من الله..



نهض (شاهر) مُشبعًا بعرق غزير وآثار لسعات مثيرة للحكّة المُهيِّجة، ربما من الناموس، ولربما من آثار الإبر السابقة، لا ماء لغسْلِ الوجه..

- "ولا فطور طبعًا!"

كذا غَمْغَمَ بسخرية جامحة، وخرج من الغرفة العَفِنَة مُتبيّنًا ألا مشاجرات هنالك، الكل راقدٌ كالأموات الآن، ولن يستفيقوا إلا في الليل كالوطاويط..

الأبواب شبْهُ مُواربة، إذ لا شيء يُسرقُ، لا حُرمات، فالعذارى صرنَ مُتهتكات الأعراض، سبيلًا لكل من هبَّ ودبَّ، والداخل كالقاطنِ يظفر بكل شيءٍ بالغرفة، والأنثى بالطبع تخضعُ له مُستسلمةً كالجارية!

كانت الخواطر وحشية، ولم يصدق (شاهر) رحلة الخواطر المؤرقة التي تدفّقتْ في ذهْنه، أيُّ عصرٍ هذا؟ أيُّ انحدارٍ؟

وأين الشُّرطةُ بحقِّ الجحيم؟

كان يعلم مُسبقًا سبب عدم وجودهم، فالسلطة الأولى والأخيرة هنا للمُعلم، المُعلم المُدمن! حتى الشرطة في جيبه، هو اعترف له بذلك..

- "إذا أردتَ صُنعَ عالَم "ديستوبي" مثالي فعليك بالشرطة أولًا، دعهم يرون جزءًا من النعيم الواعد، دعْ لُعابَ رَجُلِ الأمن المُعتدّ



بنفسه يسيل حتى يجفّ، دعه يشهد أن عالم الانحدار ليس بذلك السوء، هنا يستطيع رجل أمن قبيح وممتلئ أن يظفر بأجمل فتاة وبأبخس سعْرٍ، كل القاذورات التي يأبى إظهارها في مجتمعه الذي يزعم التحضُّر بإمكانه التبجح بها هنا، لكن لكل شيء ثمَنه طبعًا..

هل تذكر عندما كان والدك يهددك بقطع المصروف أو بخلع فيشة التلفاز إن لم تذاكر؟ كنتَ تخاف على مصروفك وبرامجك التي ستفوتُها لدرجة التظاهرِ بالمذاكرة كي لا يضيع منك شيء مما تشتهيه وتتمنى اقتناءه.. أولئك الذين يتبجحون بالشارات الأمنية لن يتخلوا عن المُتع البهيمية هنا، إنها "يوتوبيا" رجال القانون قبل أن تكون يوتوبيب نحن!"

يا لها من فلسفة! ويا لها من حياة! الإدمان يسبّبُ الحكمةَ أحيانًا.. لم يكن (شاهر) رجلًا ملتزمًا، لكنه يؤمن بالله إلى حَدٍّ عدم التمادي أكثر، كان ينظر بوقاحةٍ إلى مفاتن النساء، ويغفل أكبر قدر من الصلوات، ويحلف يمين اللهو ألفَ مرةٍ في اليوم..

- "أزنُ أزنُ أزنُ!"

مُتشرّدٌ على قارعة الطَّريقِ، صبي في الثانية عشرة من عمرهِ يحمل ميزانًا. يا له من عملٍ لا يخطر على بال، حقًّا أثمة من يكترثُ لمعرفة وزنه؟ إذن فالله يرزق من حيثُ لا يعلم هؤلاء.. حقيقة!



من مستودع مواد تموينية رآهم خارجين بأحمالٍ تعجز الحمير عن حملها، أعمارهم كلهم متراوحة ما بين العاشرة والحادية عشرة أو أكبر قليلًا، لكن ظهورهم مُقوسة كالعجائز، ووجوههم مُغبَّرة بالطحين الذي يحملونه على ظُهورهم..

قادتْهُ خُطاه الرَّتيبةُ إلى مطعم (سفرجل).. إذا كان الأكل هنا بنظافة أهله..

- "أهلا بالبيك!"

تحية ساخرة التقطها سمعه، فردَّ متجاهلًا ما سمعه:

- فلافل، حمص، زيتون أسود وشاي..

- كما يأمرُ البيك!

- لستُ (بيك)!

- أقال البيك شيئًا؟

صمت (شاهر) على مَضضٍ، لن يضيع الوقت في تحطيم أسنان الرجل بينما معدته خاوية، ربما عَقِبَ أن يشبع..

لم يتجاوز عددُ الزبائن الستة أنفارٍ، كلُّهم عمال لديهم رِزقٌ شحيح، لكنه حلال على عكس أكثرية سكان الحي، احترمهم (شاهر) وإن لم يعرفهم، يكفي أنهم يعملون حتى وإن أضاعوا الأجرة

في سُكْرٍ أو مُخدِّرٍ أو أحضان غانيةٍ! ربما لأن عيونهم مُجهدة تحمل أسمى معاني المرارة الصادقة..

- "صباح الخير يا عم (سفرجل).."

دخلت برشاقة مطوحة بالهواء حقيبة جلد مدرسية، مرتدية مريولة بنات الثانوية، ورابطة شعرها الأسود القصير كيفما اتفق، كانت هي، الفتاة الخارجة من عند جاره مكتنز البدن وهي تنشج.. ماذا كان اسمها؟

- "صباح الغزلان! كيف (شهد) المجتهدة؟"

- "اصنع لي شطيرة فلافل بسرعة.."

- "الأميرة تأمرُ والعبدُ يُنفذُ.."

بدت طالبة بريئة، في الصباح تُشرقُ وفي المساء تُظلم، وعن أي دراسة تتحدث؟ البارحة أيضًا كانت مرتدية ذات المريولة، تبيتُ في أحضانه وفي الصباحِ تَذهبُ للمدرسة؟ أهذا هو النظام؟ أتراها تدفعُ رسوم الدراسة بعَرَقِ جِسمها البضِّ أيضًا؟ هذا أسوأ من أن يكون حقيقيًّا..

توقَّفت عن تطويح الحقيبة لَمَّا وقع بصرُها عليه، مليحة حقًّا، ذات بشرة نضرة قمحية، صحيح أن أنفَها أفطسُ قليلًا، لكن وجهَها فيما عدا ذلك إبداعٌ من إبداعاتِ الخالق التي لا تُحصى، ذات قوامٍ ناضجٍ ممتلئة مفاتنه، عبثت سبابتها بخُصلةٍ من شَعْرِها بغنج متظاهرة بتفقُّد



برطمانات المُخلل، لكنها حتمًا تراه. إنه واضح وضوح القُمّل في رأس الأصلع!

جَهَّزَ لها الكهل طلبها ملفوفًا في ورق جرائد، فنقدته الثمن شاكرةً، وهُرعت للخارج دون إلقاء نظرة واحدة على الغريب.. لم يكترث، فهو ليس طَفْرةً في عالم الرجال، ربما مظهره غير مُشجعٍ إلى ذلك الحَدِّ!

تناهى لمسمعه أصواتُ جَلَبة حيوانية، كأنها مظاهرة أو احتفالية بمناسبة فوز فريق كرة قدم بالكأس، ومن أول الحي ظهروا، عشرات الرجال تَقدَّمهم واحد مفتول العضلات حَمَلَ على كتفيه فتى يُلوِّحُ بجنزير وابتسامة ظافرة تملأ وجهه، كأنهم أتوا للتوِّ من تحرير فلسطين أو فتح الأندلس مجددًا..

رواد المطعم يتهامسون، أذنه مرهفة السمع تلتقط من هذا وذاك بشبه انتباه..

- "هذا (حيدر)!"

- "فعلها ابن ال.. وانتصر!"

إذن فقد انتصر (حيدر).. على مَنْ؟

- "كيف تمكَّنَ من (جمر)؟"

- "الرجل كالخرتيت والفتى كعود قصب السكر.."

مبدأ داود الذي هَزَمَ بمقلاعه جالوت يا جهلة! الفتى ماكر وغير سهل كما يتبدى من نظراته، كانوا يقتادونه بفخر أحمق وهو يرمُقُهم شزرًا بنظراته التي لم يحسنوا قراءتها، ما يهم أنه مبتسم لمثل هذين الوضيعين..

ربما كان ذاك الجمر خرتيتًا كما يقولون، لكن الفتى بدا قوي الشكيمة، ذا منكبين عريضين، وعضلات متنافرة الأوردة، نظرته غير مريحة، بها لؤم حيواني خالص..

نقر (شاهر) على الطاولة حتى وُضِعَ طعام الإفطار قبالته، مدَّ أناملَه مُلتقطًا حبة فلافل التهمها دفعةً واحدة، كان مظهره بالنظارة السود والهندام الأنيق لافتًا للنظر، كذا أفصحت نظرات (حيدر) المحتدة صوبه..

ابتسمَ في أعماقه باستهزاءٍ، هذا الصعلوك قد يهلك من ضربةِ سيف واحدة براحةِ يده القاسية....

أنزَلُوا الصعلوك عن أكتافهم، فاندفَعَ لداخل المطعم وخلفه عدد من الشبان الأوباش ارتضاهم أعوانًا له، وتفرَّقَ الحَشْدُ بالخارج كُلٌّ يسعى إلى رزقه..

طفح وجه (سفرجل) بالبِشْرِ صارخًا:

- نزل الأكل لسادة الحي وحراسه يا ولد!



بدا (حيدر) معتادًا على هذا الدلال هو وأعوانه، نظرات ضَجِرَة بانت في حدقتيه مُحملقًا في الزبائن الذين أكلوا وهم يتهامسون عنه، كان يتظاهر بتفقُّد الرعية – الوغد! – ، صعلوك بذقن صبارية وثياب بالية ملوثة بعرق العراك يتظاهر بالإمارة، أمر باعث على التقزُّز..

- "الليلة يدفنون (جمر)!"

من دون مناسبة نَطَقَ بها الصعلوك، فاشرأبَّتْ الأعناق نحوهم بفضولٍ وشوقٍ لنبش المزيد مما حصل بالضبط، فتناول (شاهر) كوب الشاي – وكان على وشك إنهاء طعامه– لاحظ (حيدر)، و(حيدر) يريد إسماع الغريب حكاية تهزُّ مفاصله وتُرْعِدُ أوصاله.. ليس أنا أيها الطفل الذي يُبلِّلُ فراشه.. ليس أنا!

بتبختر، لَوَّحَ أمير الحي وحارسه بيد طويلة الأنامل، قائلًا وقد ارتَفَعت عقيرتُه أكثر من اللازم:

- لم أحتج سوى دقيقة كي أُجْهِزَ عليه ثم..

وَضَعَ ثمنَ ما أكله ونهضَ.. صمتوا كأن على رؤوسهم الطير، ثم تساءل أحد الأعوان بتملُّقٍ مُهدِّئًا الجو:

- ثم ماذا؟

لكن (حيدر) لم ينطق، اربد وجهه قبل اندفاع لسانه:

- أنت يا هذا!

تجاهله (شاهر) وهو يمضي في سبيله، فهبَّ (حيدر) واقفًا وقفة عنيفةً أوقعت الكرسي وراءه صائحًا:

- أنت يا..

توقَّفَ (شاهر)، التفت، حَدَّقَ بنظاراته السوداء متسائلًا:

- ماذا تبغي؟

- إلى أين؟

- وما شأنك؟

هبَّ لتلك الإجابة باقي الأعوان وأحدهم يصرخ بعقيرة كالرعدِ:

- جب على قَدْرِ السؤال وإلا..

- وإلا ماذا؟

توقَّفَ الزبائن عن الأكل و(سفرجل) عن قلي مزيد من الفلافل، شابَ التوتُّرُ وجوههم، في حين ارتكز (حيدر) على الطاولة بقبضتيه مُغمغمًا ببرود:

- انا لم أُكْمِلْ قِصَّتِي..

- وأنا لا أرغبُ بسماعها..

- ستسمعها رغمًا عنك!

- لا آخذ الأوامر على محمل الجدِّ، خصوصًا من الصعاليك..



- من تقصد بالصعاليك يا وغد؟

- قصدتكم أنتم..ألم يكن الأمر واضحًا؟ أنتم صعاليك وحيوانات جاهلة إذن!

لم ينطقوا بالمزيد، التفوا حوله والشَّررُ يقدح من أعينهم، كانوا ثمانية أوباش تسلحوا بمطاوٍ ماضية وجنازير صدئة، ومن لم يحمل سلاحًا تناول من على الطاولات زجاجات مياهٍ غازيةٍ استعدادًا لتحطيمها، واستخدام أطرافها المُدبَّبَةَ الحادَّة في الذبح..

صاح (سفرجل) مُلوِّحًا بكلتا يديه:

- أُقَبِّلُ أياديكم ألا تحطموا المكان!

راق الأمر لحيدر، فصاح باستهزاء مُتصنِّعًا التحضر:

- حقًا ليس للرجل ذَنْبٌ بما سنصنعه معك.. سننتظرُكَ بالخارج!

- ارجعْ إلى أُمِّك يا بني..

تلوَّنَ وجهُ (حيدر)، ودونما كلمات زائدة هجم على غريمِه صارخًا كحيوانٍ مسعور، فتلقفه الأخير بخفَّةٍ وألقى بظهره على سطح طاولته فهشَّمَهما معًا!

لم يتحرك (حيدر)، ظَلَّ بمكانه وهو لا يكفُّ عن الأنين، فتبسَّم (شاهر) أخيرًا.. قد سقط حارس الحي بسهولة مُدهشةٍ، سقط على يدي مُدمنٍ!

فكَّر أن يستمتع بإغاظته، فليضع طرف الحذاء على رقبته وليضغط قليلًا، سيعامله كحشرةٍ كي يعرف مقداره.. لكن لا، كفاهُ ما أصابه، هذا درسٌ لا بأس به، حتى الأعوان الأوباش تعلموه بسرعةٍ..

أخلَوْا له الدَّرْبَ برؤوسٍ مُنكَّسةٍ وأطراف مُتحفِّزة، فخرج بغير هُدًى باحثًا عن سبيلٍ يقصدُه، هل يعود للغرفة أم يتعرف موطنه الجديد أكثر؟



4

السوقُ يَسودُها الهرجُ والمرجُ، لا بيعَ ولا شراء، مشاجرات دائرة بلا تجارة..

كم من بصقةٍ تفادى! وكم من كتفٍ أصابها بخشونةٍ بقصدٍ وبغير قصد، النساء في السوق يفقدن أنوثتهن، والرجال يظهرون بُرودةً وقسوةً تجاهِهُنّ، فلا هَمَّ للجميع سوى تحصيل أكبر قدر من مال تسديدِ الفواتير المتضخمة، والمتعِ الليلية المُنْسِيةِ جهد النهار وشقائه..

حسبوه زُبونًا يود الشراء، فصاروا يطاردونه ببضائعهم الرديئة، تبسَّم للكل وهو يدفعهم عن دربه بقسوة.. يا للسيرك! ألا ترون البذلة يا حمقى؟ كيف أرتدي مثلها وأحضر إلى حيكم القذر بحثًا عن سلع الدجاج والخضراوات والسمك منتهية الصلاحية؟

كانت البسطات منتشرة كالذباب حول مستودعات القمامة، أكثرها لأدوات مستخدمة في الجراحة العشوائية، أسلحة بيضاء.. أخرى انتشرت فوقها صور خليعة لأغلفة أقراص ليزر من مختلف الأقطار، هؤلاء بالذات لم يطاردوه بالبضاعة، هذا معقول، رجل ببذلة أنيقة لا يمكن أن يحضر لابتياع أفلام إباحية، ربما للعقاقير المهلوسة، مادة (R.D.6) اللعينة العزيزة، لكن سوقها يبدأ ليلًا، أما تجارة الأفلام الإباحية فمشروعة نهارًا ولا بأس بها..

كان الباعة صغارًا، كالعادة يدخنون لفائف التبغ بحنكة الكبار، وعندما يتضاحكون يتمكن من رؤية أسنانهم المُصْفَرَّة والنخرة كأسنان العجائز، لقد فقدوا براءتهم منذ اللحظة التي فتحوا بها أعينهم على الدنيا، صاروا شيئًا أخطر من الرجال، صاروا وحوشًا..

سار.. توقَّفَ عن السير.. نَظَرَ لليمين على الأرض قَليلًا، بسطة أخرى جلس عليها طفل في السابعة من عمره يضع لفافة هو الآخر، ورجل كهل يشعلها له بعود ثِقاب!

- "أنت!"

هزَّ الكهل يده بالعود حتى أطفأه، وقد علت وجهه مِسْحَةُ تساؤل بريئة، فقال (شاهر) عاجزًا عن كتم استنكاره:

- إنه مجرد طفل! ماذا لو كان ابنك؟



- هو ابني يا سيد!

وضرب كتف الصغير الباسم بقوة صائحًا بمرح:

- وأنا فخور به!

تأمّل سِحنة الكهل مليًا، احتفظ به مع ركام الذكريات العفنة التي لن ينساها ما حيي.. كيف سينسى هذا الرجل السعيد وابنه الأسعد؟

تنهّد مُواصلًا المشوار.. حقًّا إن الحياة مسلية، من قال إنها مُمِلّة باعثة على الضجر؟ لابد أنه شخص غني لم يحاول الترجُّلَ من صومعته الذهبية..

يستطيع البقاء في هذا المكان للأبد دون أن يشعر بالسأم، دروس الحياة لا تتوقّفُ، ومهما تشعر بالتكرار فأنت تعلن الهزيمة في النهاية، ما زال العالم يمتلئ بالعجائب التي تستنكر رؤيتها..

- "علكة يا عم؟ عسلية يا عم؟ ملبس؟"

وَضَعَ راحةَ يَدِهِ على كَتِفِ الصَّبِيِّ البائع وأزاحه برفقٍ جانبًا.. تنحَّى عن دربِي يا بني وإلا قتلتُك!

لكن البائع بدا مُصرًّا، التصق به كدودة في الشَّصِّ، طارده بحبة لوز بالعسل صائحًا:

- حتى المُعلم يعشقُها!

قال المُعلم! ليس معلم الصبي حتمًا فقد نطقها بضم الميم، بدا مُثقفا اللحظة التي نطق بها الكلمة.. و(شاهر) فكّر بهذا كله متسمرًا، بتفهُّمٍ التفت، بصمتٍ نَقَدَه ثمن الحلوى، فأطلق الصبي لساقيه العنان مبتعدًا..

فضّ الغلاف البلاستيكي الشفاف مُتبينًا وجود وريقة مهترئة مدسوسة، فتحها بحذر فوجدها مُدوَّنةً بخط زخرفي جميل، وبقلم حبر أسود، لا بُدَّ أنه خط المُعلم المثقف..

"عُد إلى غرفتك وامكث بها حتى أراسلُك مُجدَّدًا.."

- "مطلب سهل!"

طافَ الأرجاءَ دقائق مَعدودةً باحثًا عن مَهزلةٍ جديدة يُضيفُها إلى ملفِّ الذكريات الساخرة من الحياة، ثم دار على عقبيه راجعًا أدراجه..

***

لم يكن مطلبًا سهلًا..

لم يصدق أنه صار خاضعًا لشخص واحد يأتمِرُ بأمْرِه، صار ينتظر إشارة من شخص مُلوَّثٍ كي يدخل أو يخرج، ولربما كي يأكل ويشرب أو يذهب للحمّام فيما بعد!

ثلاثة أيام قضاها داخل الغرفة، مُنصتًا إلى المشاجرات والزَّعيقِ المُتواصلِ..



فكَّرَ بالخروج، لكن سرعان ما عَدَلَ عن الفكرة، الرسالة كانت صريحة الفحوى، المكوث معناه عدم الخروج، والخروج معناه ضياع الهدف..

راودته هلاوس، كان قد أقلع عن التدخين قبل سنوات بعد إدمان المادة السحرية، أما الآن فقد صار التدخين هدفًا آخر له، فأقسم أن يبحث عن سيجارة عندما يخرج..

المُعلّباتُ التي ابتاعها شارفت على النفاد، والمُعلم اللّعين لا يسأل عنه، هل مات؟ لِمَ لا؟ أليس الفرد المتفرد بالمُلْك والجاه هدف الجميع هنا؟ ألم تكن تلك كلماته بالحرف؟ ماذا لو أن أحد أعوانه طَبّقَ ذلك المبدأ بحذافيره واغتال المُعلم كي يحل محله وهو ها هنا قابعٌ بانتظار رسالة من جثة؟

ثم إن المَلِكَ المزعوم مُدمنٌ كغيره، ومُخدّرُ (R.D.6) قاتلٌ غير رحيمٍ كغيره من صنوف المُخدّرات، غير مستثنى من منجل الهلاك..

انتابته الكوابيس بشأن ذلك، صار ينام كثيرًا لقتل الوقت، كوابيسه باتت أكثر سوداوية.. القارب الخشبي المتأرجح في عرض بحر قاتمة مياهه يكاد أن يغرقَ، الماء كان يتسلل ببطءٍ عبر ثُقوبٍ دقيقة توطئةً لابتلاعه كاملًا بصاحبه..

أفاق بذقنٍ نامية وعرقٍ غزيرٍ وجوعٍ كافرٍ.. صوت طرقات صاخبة على بابه، ورسالة مَرَّرَها صاحبُها أسفله..

وثب كالمجنون مُلتقطًا الورقة الجديدة، كانت داخل مظروف أنيق هذه المرة، فضّة، طالع ببصرٍ شاخصٍ في شوقٍ سطورها المدونة بذات الخط الزخرفي النضيد:

"بوابة الجنة مفتوحة على مصراعيها! تعالَ حالًا لرؤيتي.."

شعر بعرقٍ باردٍ يهبط ببطءٍ كَريهٍ من جبينه حتى بلغ أسفل عُنقه، كوَّر الرسالةَ ورماها جانبًا، وحرَّرَ رِتاجَ الباب فاتحًا إياه على مصراعيه قبل ركضه إلى الخارج كالملهوف..

وأثناء هبوطه السلالم اصطدم بشابٌ هادئ الطباع كما تشي تقاسيمُه، يرتدي نظارات طبية سميكة أخذت الكثير من ملامحه، وقد حمل أكياسًا من الفاكهة والمُعلّبات صاعدًا الدرجات برويَّةٍ كأن الزمن مِلْكُ يمينه..

حدثَ ارتطامٌ عنيفٌ، وتبعثرَ كل شيء أرضًا قبل انزلاق الفتى للوراء بعنفٍ، تبدَّت آياتُ الفَزَعِ عليه مُحاولًا التشبث بأي شيء، اختل توازنه، كانت السقطة مؤدية لعواقب وخيمة حتمًا، لولا اندفاع قبضة (شاهر) وتشبُّثها باليد المناشدة..

أوقف جسمه كله، فثبَّتَ الشابُّ ناظريه في حدقتي مُنقذه قائلًا براحة:



- حمدًا لله.. لم يحدث شيء!

رأى شيئًا عجبًا في حدقتي مُنقذه، ثم لم يلبث أن اتسعَ ثغرُه بلوعةٍ عجيبةٍ..

- "(شاهر)؟ أهو أنتَ؟

يا الله! ألم تتعرفني يا رجل؟ هذا أنا.. (فيصل)! ياه! كم من سنوات.."

تلوَّنَ وجهُ (شاهر) جزءًا من الثانية ليشيَ عمّا بداخله، فتكشفت معرفته بالشاب، لكنه تجاهلَه، بل دفعه بخشونةٍ جانبًا وهو يركض لأسفل بسرعة الريح..

وظل الشاب مسمرًّا بمكانه والذهولُ يملأ وجهه..

***

الساعة الآن العاشرة ليلا..

المُعلم الداهية! يستحقُّ سمعته، إذ لم يُسلم المادة بعجلة.. لقد كان يسيطر على إدمانه هو الآخر، تمامًا كشاهر..

وربما لا! الفرق بينهما أن اللعين يمتلك مَخزونًا سريًّا من مادة (R.D.6) بخلافه، لكنه لم يتكالب على تجربة المادة المطورة، بل مَنَحَه شرفَ أن يكون كبش الفداء..

كانت المادة الجديدة كسائلٍ رقراقٍ، ذات زُرقة شفافة كماء العينين، المادة القديمة كانت ذات صُفرةٍ شفافة، مُشتقة من البروفين والبلاذون وفطر الأمانيت، ثم يأتي دور المواد السرية كخلطة كنتاكي، تلك الخلطة التي منحت المُخدرَ أسطورته، تركيبة لا يعلم بها غير الله وصانعها العبقري المجنون..

المادة الجديدة خليط بين المخدر وعقار الهلوسة، وهي عبارة عن خلطة مركبات كيماوية من باربيتيورات ومتئدرين وفولانيل وغيرها، بلا مشتقات طبيعية هذه المرة..

المفاجأة هنا - كما ذكر المُعلم - أن مادة عضوية مُستخرجةٌ من حيوانٍ، وتدخل في أحد تراكيب مخدر (R.D_7)! أي إنه المخدر الأول الذي يستخدم مادة مشتقة من حيوانٍ قَذرٍ، هذه سابقة لأن النبات هو الأساس في أية تركيبة خاصة بمخدر، و(شاهر) يستعدُّ لتجربة مخدر قد يكون مُشتقًا من عضو خنزير!

صعدت الفكرة بعصارته فصار على أهبة للتقيُّؤ بعنف، رائحة المخدر قريبة من الكلور، لا بأس، هذا لن يكون أسوأ ما قام به في حياته..

كان قد جهَّزَ أوراقًا وأقلامًا لكتابة تقريره، على رأس الورقة قام بتسجيل اسم المُخدِّر كاملًا دون اختصارات:



(Raw Death 7) وتعني الموت الخام 7، يُشاعُ أن الحرفين يُشيرانِ لتلك التسمية.. نعم؟ لا؟ من يدري؟

استطلاع رأي، بحث.. هذا المُخدِّرُ أفقدني القُدرة على الإبصار لذا أنصحُ بمنع تسويقه حالًا! هذا المخدر أصابني بالشلل؛ لذا أنصحُ بشراء كرسي مدولب قُبيلُ تجربتِه!

تبسَّمَ، توسعت الابتسامة، ضحك، تنهد.. ماذا سيخسر؟

ماذا سيخسر؟



الجُزْءُ الثاني



1

القاربُ الخشبيُّ لا يزال مُتأرْجحًا كالمهدِ في بحر المياه القاتمة، والسماءُ ما زالت مُغطاةً بغيوم ضبابية رمادية..

ما زال جالسًا في القارب بذات السكينة العجيبة، مُتمتّعًا بالعزلة بلا أمل في النجاة.. البعد الآخر المجهول، حيث المياه محيطة به من كل جانب..

جسم ضئيل يطفو على سطح الماء يدنو منه، جسم بشري ضئيل له رأس وأطراف صغيرة، قلَبَ سكينته رُعْبًا لا مثيل له..

***

تطوّعت ممرضة بإخباره تلك المعلومات القيمة التي كان يجهلُها..

أخبرته أنهم أعلنوا وفاته "إكلينيكيًا" في تمام الساعة الرابعة فجرًا، لكنه خيَّبَ توقعاتهم لما اشتعل جهاز راصد القلب بجنون بعد حوالي عشر دقائق!



عشر دقائق كاملة كان خلالها لحمًا ميتًا مُكوّمًا فوق سرير رخيص شراشفه الحكومية بالية!

كانت مُشفقةً على شبابه وهيئته المُبعثرة وحاله التي تكسر الفؤاد والخاطر، وهو بمنأى ساهمٌ عن ثرثرتها، يفكر في منجل الموت الذي تحسس أوردة عنقه قبل تغييره رأيه في آخر لحظة مُعطيًا إياه فرصة أخرى!

سيطرت عليه تلك الفكرة المُروّعةُ، فانفجر باكيًا وهي ترمقه بشفقة، وتُجفّفُ له جبينه المُتعرّقُ.. كان يرى المُعلم واقفًا يضحك بمكرٍ وهو يغمز بالعين اليسرى.. عين الشيطان! يلوح بإبرة تحوي مادة ذات زُرقةٍ شفافة قائلًا بخُبث:

- "بوابة الجنة مفتوحة على مصراعيها.. تعالَ حالًا لرؤيتي!"

هدأ نوعًا، فهمس من بين أسنانه:

- حتمًا سأفعلُ!

سألته الممرضة بقلقٍ:

- هل قلتَ شيئًا؟

- أنا جائعٌ!

***



حضر رجل شرطة كي يسأله عن المادة في دمه.. التحليل يقول إنه ليس مُخدِّرَ (R.D.6) كما يعرفونه، شيء آخر أكثر قوة يسري بدمه، شيء مُطوَّر، شيء مُخيف!

لا يعلم، حقًا لا يعلم، قد يكون كابوسًا، وقد يكون ميتًا، لكنه لم يُشِحْ بناظريه عن الشرطي المُمتلئ الذي سَجَّلَ أقواله في مُفكِّرة، كان قاسيًا في استجوابه فظًا في رُدوده، وهو أمر طبيعي، إنهم يعاملون المُدمنَ تمامًا كالمنتحر، كلاهما لا عقيدة له يستحقُّ الازدراء لاستهتاره بحياته..

وقبل نُهوضه من مقعده قال الشرطي بخشونة محنّكة:

- سنعاودُ استجوابك!

كي يقودهم للمُعلم؟ لا، حتى الشرطة نالت نصيبها من (R.D.6).. أنت يا صاحبي قد تكون نزيهًا، لكن رؤساءك ليسوا كذلك حتمًا، لا هم ولا أولادهم!

أسبل جفونه مُقرِّرًا النومَ، المزيد من النوم، قتل الوقت مُهمٌّ، يجب قتل المزيد من الوقت كي لا يشعر بشيء.. نَمْ! اقتُلْ! نَمْ! اقتُلْ!

أفاق.. الممرضة تناوله طبق حساء الدجاج المَقيت، يسألها عن المُدَّة فتخبره بإشفاق أنه على حاله منذ أسبوع.. إذن نَمْ! اقتُلْ! نَمْ! اقتُلْ!

أفاق على معاينة الطبيب، قياس الضغط ودرجة الحرارة، المبولة جاهزة لعينة جديدة، كم لبثتُ يا دكتور؟ شهرًا.. شهرًا؟!

نَمْ.. اقتُل.. نَمْ.. نَمْ!



- "على الطريقة الأمريكية.. لدينا خبر جيد وآخر سيئ!"

- "إليّ بالسيئ.."

- "للأسف، أنت لم تتماثلْ للشفاء، لا استجابة لعلاجنا، تلك المادة الجديدة قوية حتمًا، والمدهش أنها مستخرجة من.."

- "عضو خنزير؟"

- "لا، بروتين الجاموس!"

- "إذن فهذا هو الخبر الجيد!"

- "لا، الخبر الجيد أنهم لن يسجنوك، سيتم نَقْلُك لمصحّة مختصة.."

- "مصحة مختصة؟ من أي نوع؟ وكيف سيساعدونني هناك؟"

- "أحسبهم الوحيدين القادرين على ذلك الآن، فقد انتهى دورنا هنا.. حظًا مُوفقًا يا بني!"

2

تقعُ مصحَّةُ "البرعم الأخضر" على طرف الممر المتخلل "غابة السرخس" كما يطلقون عليها، والتي تحتلُّ جزءًا لا بأس به من خلفية بلدة منسية يُقالُ لها "خرم الحنطة"، حيث بُنيتْ في أواخر السبعينيات قريبًا من "الجبل الأرجواني"..

تتألفُ المصحَّةُ من ثلاثين غرفة، ولم يؤمه مرضى كُثر في تلك الأيام بسبب بعض الخُرافات الرائجة بكون المنطقة مسكونة بالعفاريت! فأغلق عقب سنة من افتتاحه، وبِيعَ بمبلغ زهيدٍ إلى مليونير مسيحي في الأربعين من عمره..

ومن دون دعاية، بدأ أهل الفضول يزورون تلك المصحة رغم أن الرجل لم يُدْخِل عليه تحسينات من أي نوع، فقط يعرجون عليه وكأن هالة من نور تقودهم نحوه! زاعمين أنهم أتوا للبحث في أصل

الحكايات المُخيفة التي تدور حوله.. كان هذا قبل الحريق الكبير الذي اندلع فيه مع مطلع الثمانينيات..

وفي عام 1988م أُعيد بناء المصحة عن طريق الحكومة التي عاودت شراءه من حفيد المليونير الراحل، ثم انتهت الأقاويل المُتعلقة بصدده، فلا أحد من العامة يعلم اليوم ما إذا كان موجودًا الآن أم لا، فقط الحكومة تعلم أنه مَقرٌ لمعالجة مدمني مخدر(R.D.6) القاتل..

***

في خريف مُكْفَهِرٍ تغمره أوراق الشجر المتساقطة كان وصول (شاهر) للمصحة..

بدا المكان صامتًا كالضريح، حاويًا للأسرار الغامضة التي لا تهمه في شيء إن وجدت!

ثمة مزرعة غير مبهجة وإسطبل، المكانُ مُحاطٌ بأسوارٍ شاهقة العُلوّ، والدخول والخروج يتمُّ عبر بوابة فولاذية يحرسُها رجلٌ راقبه بنظراتٍ غير ودودٍ بالمرة..

في الداخل صمتٌ بين الأروقة، ورأس عملاق لحيوان رنة معلق بالقرب من خزانة اللوبي، بدا مظهره شنيعًا، وكأن الزبد الأبيض ما زال يُلطّخ شدقيه الأسودين.. ماذا يصنع في مصحةٍ بحقّ الله؟

ثمة صورة تحتل جزءًا واسعًا من الجدار المقابل، وتمثّلُ منظرًا رُسِمَ بدقّةٍ وبراعة للمصحة من الخارج ومن زاويةٍ مُمتازة..

على طاولة الاستقبال جرسٌ ضئيلٌ كناقوسِ الفنادق، ضرَبَ المُمرض المصاحب زره المعدني براحة يده، فانطلق الرنين بحدَّة خافتة ذات صوْت مألوف، في حين أنزل (شاهر) متاعه أرضًا، وطفقَ يتأمَّلُ كلَّ زاويةٍ وقطعةِ أثاثٍ بصمتٍ كأن على رأسه الطير..

- "أهلا يا سادة!"

نظرا بآن واحد، فأبصرا ممرضة عابسة الوجه ذات ملامح دميمة، لكنها عريضة المنكبين ذات جسد متين البنية كالذكور، ترتدي نظارة بيضاوية صغيرة، وتتأمَّلهما بعينيها الضيقتين من فوقهما، بدت ممتلئة لولا الذبول في حنجرتها..

- "أنا المشرفة (وجيهة).."

صوتها رخيم اعتاد إصدار الأوامر..

ولج الممرض بالموضوع بسرعة، فشرح لها أمرَ المريض الجديد وهو يُسلِّمُها ملفه..

- مدمن آخر؟ آه من الدنيا التي لا ترحم!

أصْدَرَ الرجُلُ صوتَ طقطقةٍ مُرْدِفًا بلهجةٍ ذات خُطورة:

- المادة في جسمه مختلفة..

نظرتْ لشاهر بفضول متسائلة:

- أحقًا؟

ردَّ الشابُّ بخشونةٍ وقد أدهشته طريقتُها بالكلام عنه وكأنه وَلَدٌ صغيرٌ لطيفٌ:

- وكيف لي أن أعلم؟

- على رِسْلِكَ أيها الفتى حارُّ الدماء! ما هكذا تؤخذ الأمور.. هل لي بمعرفة اسمك؟

- (شاهر)..

- إنه يروق لي كثيرًا.. ماذا كنتَ تعمل؟

- كنتُ رسام إعلانات..

قالها متأمِّلًا المكان حوله وكأنما يقيس إمكانية أن يعج بالمرضى.. وفي النهاية مدت المرأة يدها مُصافحةً المُمرض..

- "بإمكانك الرحيل، سنعتني به جيدًا.."

لاحت – بغتة – نظرة قاسية في عيني الرجل الذابلتين، وارتسم تجهُّمٌ قاسٍ على وجهه وهو يقولُ لشاهر ببطء:

- ابتعد عن المشكلات، ولا تنسَ أن الشرطة مُهتمةٌ بأمرِك..

- حاضر يا والدي!

انسحب الرجل تاركًا المرأة تُدوِّن شيئًا في الملف، ثم اصطحبته في الممر قائلةً بعجلةٍ كأن الوقت يداهمها:

- الآن تقابل المديرة، إياك والمشاكسة معها وإلا نلتَ متاعب جمَّة..



- أين المرضى؟

- هنا وهناك.. ماذا كنت تظن؟

- أنهم لاذوا بالفرار!

- لا أحد منهم يفر، هذا منزلهم الحقيقي!

توقفا أمام الباب في آخر الممر، طرقات.. "ادخل".. دخلا..

كانت المرأة الجالسة وراء المكتب أقلّ حدّةً من المشرفة، لكنها ذكرته بالمُعلم على نحو ما، جلستها، مكتبها المعتنى به، شعرها معقوص وملابسها غامقة، في عينيها حُنوٌّ يمكن تبيُّنه..

- "سيد..؟ (كاسبار)! (كاسبار هاوزر)!"

وابتسمت مُتناولةً الملف من المشرفة، تصفَّحته دون تدقيق هامسة:

- من الآن فصاعدًا سيكون هذا اسمك! تمامًا كالحكاية القديمة الغامضة، هل سمعت بها؟

- أجل.. لكن اسمي هو (شاهر) وهو يعجبني..

- وصلتني مُكالمةٌ بخصوصك، واحدة من الشرطة والأخرى من طبيبك، أخبرني الأخير أنك أفقتَ من حالة موت سريري، يجب أن تَحْمَدَ اللهَ!

- الحمد والشكر له، ما علاقة ذلك باسمي؟

- ما بلغني من معلومات بشأن ماضيك ذكرني كثيرًا بحكاية (كاسبار هاوزر) العجيبة..



- فقررتِ تسميتي كما تفعلين مع حيوانك الأليف!

- لا تكن مُتعنّتًا يا عزيزي! أتمنى أن نوجد لك البيئة المناسبة كي تتماثلَ للشفاء.. لكن دعني أسألك سؤالًا واحدًا.. لماذا تعاطيتَ المُخدِّرَ أساسًا؟ ماذا كانت ذريعتك بالمقام الأول؟

تعلّق بصرُه باللوح البرونزي الصغير المُواجه له، (باسينت)، هذا اسمها إذن.. ثم حَدَّجَها بنظرةٍ طويلةٍ صامتة، فَكَّرَ بالإعراض عن الرد، لكنه في النهاية أجاب:

- أردتُ.. أردت حضور حفل عيد ميلادي ورؤية والدي ووالدتي ورفاقي!

- والدك ووالدك؟ لكنك تربيتَ في ملجأ للأيتام قبل أن..

- قصدتُ الذين لم أنعم بمقابلتِهم قط!

باغتها الصمتُ وقد تنبّهت أخيرًا لمقصده، فانشغلت بتدوين بعض النقاط الإضافية.. إحباط.. اكتئاب.. شغف بالهلاوس.. كان يُخمِّنُ ما تدونه بين صفحات ملفه..

- "بإمكانك رؤية غرفتك الآن.."

- "شكرًا يا ماما (تيريزا)!"

- "أستميحُك عذرًا؟"

- "لا شيء، هذه تسميتي أنا لك فحسب!"

اكفهرَّ وجه المشرفة قائلةً بحدَّة:



- الاحترام!

لكنها راقبته بحبورٍ عجيب، ثم وبنبرة ذات وجلٍ تمتمت:

- حظًّا موفقًا هنا يا سيدي..

هكذا، خرج برفقة (وجيهة)، فاقتادته مسافةً لا بأس بها، شاهَدَ خلالها عبر النوافذ حديقةً لا بأسَ بها..

- "هذه هي غرفتك.."

وهمّت بالرحيل، فتساءل مُتأمّلًا الباب:

- وأين المِفتاح؟

- لا مفاتيح، الوجبات الثلاث تُقدّم في قاعة الطعام، الفطور في الثامنة، الغداء في الواحدة، العشاء في التاسعة..

وغادرت تاركة إياه يَحْمِلُ مَتاعَه ويدلُفُ..

فما إن فعل حتى بوغت بصيحاتِ مَرَحٍ وهُتافاتٍ وتصفيقٍ حارٍّ و.. ماذا يحدث؟

أبصرَ عددًا من الوجوه الذُّكورية والأنثوية، ترمُقُه بعضها بشغفٍ وحماسةٍ والأخرى ببرودٍ ولا مبالاة، وقد توسَّطَ الجميع مُمرضةٌ جذّابةٌ ذكرته بصوفيا لورين في شبابها!

طاولة من المفترض أنها تخصُّه تراصَّت فوقها أطباق وكؤوس، بانتظار صَبِّ العصير وتقطيع تورتة هائلة الحجم!



وعلى السّقفِ وراء الكل، عُلّقت لافتةٌ من القماش دُوِّن عليها:

"أهلًا بالنزيل الجديد!"

وعلى الرغم منه.. ابتسمَ!

3

لم تؤثر طفولة (بلجة) التعيسة به كثيرًا..

أبواه كانا أحمقين، وكثيرًا ما تشاجرا أمامه حتى أصابَه مرة إناء في جبهته قذفتْ بهِ والدتُه والدَه لكنها أخطأت التصويب!

ماتا في حادثة سيارة مُروِّعة، وقد قال الشهود إنهم رأوهما يتبادلان الصفعات أثناء قيادة والده سيارته، فلم يتنبه لمصباح الإشارة الآمر بالتوقف، لقد سُحقا سحقًا بسيارة أخرى!

كان يفرغ من كابوس كي ينتقل لآخر، في الملجأ عاشَ طفولةً بائسة، وفيما بعد عندما كبر تحول إلى مُدمنٍ، وأدمَنَ المخدر (R.D.6)، فانقلب الكابوس ثقيل الوطء لحلمٍ ورديٍّ، ثم لم يلبث أن تحول إلى شيء لا يوصف بكلمات، صار كالسيد في قصر واقع بمعزلٍ عن البشر، وقد كان هذا يُناسبُه أكثر..



لم يتذكر (بلجة) اسمه الحقيقي قط، وإن ضايقه الاسم الذي حمله كمريضٍ، والذي كانت مدام (باسينت) مديرة المصح تناديه به، كانت تسلية المرأة هي إطلاق ما يحلو لها من تسميات على كل مريضٍ يدخل للعلاجِ من إدمانه المدمر، ولم يفهم معنى اسمه الجديد حتى وثّقَ معرفته بباقي أفراد عائلته الجديدة التعيسة، فتعرف النشيط منهم والجميل والذكي – أو من كانوا كذلك قبل إدمانهم–، ومن بين الأذكياء وجد الأذكى، الفتى المُقعد (حلزون)، فزاره ذات ليلة مستفسرًا عن معنى اسمه، فأخبره الفتى الذي عانى مرارةَ الشَّلَلِ أنه يعني الفُسحة ما بين الحاجبين، وقد كان ذلك حقًا، فحادث الإناء تسبب له بنُدبة متسعة زادت من تفريق حاجبيه وتباعُد المسافة بينهما، فبات مَنظرُه مُزعجًا له وللبعض..

استعان سرًا ومرات عدة بأدوات ماكياج اقتنصها من غرفة (ذهب) تلك المريضة المغرورة، مُزمعًا الخلاص من تلك المشكلة لسرٍّ رَقَدَ في أعماقه منذ زمن..

في بداية تعارفهما داخل المصحة كان (بلجة) و(ظلال) يُمضيان غالبية الوقت معًا، ثم فرقتهما الأيام ومدام (باسينت) أحدهما عن الآخر لعدم ارتياحها لمخالطة الذكور للإناث، معتبرةً ذلك خطيئةً لا تُغتفر، حتى وإن كانوا مرضى يواسون بعضهم البعض..

ولَدَى حضور الممرضة (أزوريت) وجد (بلجة) فُرصتَه سانحةً مجددًا، فأزوريت لم تكن تتمتع بذات تعنُّت مدام (باسينت) أو كفاءتها، تاركةً للجميع الحبل على الغارب، مُكتفيةً بإطعامهم



وإلباسهم مع تكفُّلها بنُصحهم في معظم الأوقات، فكان هذا أكثر من مناسب..

وجد أن مفعول الماكياج لا يدومُ طويلًا، فكان يرسم حاجبين بقلم الكحل، ويضع قليلًا من مساحيق التجميل على النُّدبة اللعينة أملًا بمواراتها، ثم يُهرع للقيا (ظلال) في الحديقة، حيث تجلس على الأرجوحة منتظرةً قيامَه بدفعِها من الوراء..

ذاتَ مرةٍ قام بأرجحتها قليلًا قبل أن يوقفها، فهتفت مُعترضةً:

- لِمَ توقفت؟

- (ظلال) أنا..

- أنتَ ماذا؟

- أنا أحبُّكِ!

قالها ووجهه يتعرَّقُ بكثافة، حتى زالت كل المساحيق التي وضعها على نُدبته القبيحة، فتلفّتت بصمت.. لم تخبره أنهم جميعًا هنا مجرد مرضى في طور النقاهة، ولم تهزأ به وبنُدبته رغم الإغراء الواقع في نفسها تلكم اللحظات، الحقيقة أن الأمر سرَّها قليلًا فقررت أن تتسلّى بعواطفه..

هكذا، ردَّت عليه هامسةً بعينينِ مُسبلتينِ:

- استغرق منك الأمر مُدةً طويلة.. وأسفاهُ!

- ويلي! على ماذا؟



- قلبي ملْكٌ لغيرك.. آسفة يا (بلجة)!

ثم فرّت من ناظريه مُهنئةً نفسها على النجاح الساحق الذي حققته، غير آبهة - أو عالمة- أنها صدمته صدمةً لم يستشعر لها مثيلًا..

جلس مكانها فترةً يتأرجحُ، قبضَ على الحبلين المُتدليين من فرع الشجرة الضخم بقوة، ثم سحب بقبضتيه لأسفل بقوةٍ وعُنفٍ حتى آذاهما وأدماهما بشدَّة، لكنه لم يأبهْ أو يتأوَّه.. انحصر تفكيره في سؤالٍ واحدٍ.. مَنْ يكون؟ مَن الوغد؟ مَنْ تراه يكون؟

من بعيدٍ أبصر (شاهر) مُتمددًا كعادته على العُشب النَّديِّ الأخضر داسًّا سُنبلةَ قَمْحٍ بين شفتيه، فاشتعل حِقْدٌ كالنار بين ثناياه، وارتفع صُراخُ عَقْله: "المُستجدُّ اللعين! ومن غيره؟"

اشتعلت نيرانُ غيرةٍ مُدمرةٍ وبصره لا يُفارِقُ الفتى الذي لم يستسغه مذ أتى أول مرةٍ، كان يكرهه، يكرهُ ثقته العمياءَ بنفسه، يكره هُدوءَه كأن العالم بأسره لا يعنيه.. ذات مرة صَعَدَ للسطح، فوجده راقدًا على ظهره وقد دسَّ بين أسنانه نكاشة مُتأمِّلًا الغيوم في السماء، كأنه ينتظر خبرًا منها بسلامِ رُوحيٍّ!

هكذا، وجد (بلجة) خصمًا، لكن (شاهر) لا يُستهانُ به، والعراك معه لن يكون في صالحِه، إذن فليجد مَنْ يُنافسُ غريمه قوةً وليوغر صدره عليه..



ولم يكن ثمة شخص مناسب بين الشبان، كما أن الجميع يحبونه ما عداه و(داهوت) الأشقر الجميل، و(ثولول) الذي يُنافِسُه قُبحًا، لكنهما لن يحاولا اعتراض سبيله أبدًا لجُبْنهما..



4

لدى استقبال المصحة تلك المريضة الباكية، احتملتها مدام (باسينت) إلى غُرفتها بعونٍ من (وجيهة)، حيث أعطتها حَجرًا جميلًا يُماثلُ الكريستال ابتهجت الفتاة لمرآهُ كثيرًا، فوعدتها المرأة بمنحها إياه إذا ما كفَّت عن البُكاءِ كالصغار..

فيما بعد، زارت تلك المريضة بعد تحسُّنٍ طفيف (حلزون) أمين مكتبة المصحة كي تسأله عن الحجر، فقطَّب حاجبيه مُعتصرًا ذاكرته قبل أن يُجيبَها:

- إنه التبريس، يقال أنه يشفي من الاستسقاء، ويقال إن من يمتلكه يصير خبيرًا بعُلوم الفَلَك!

ثم تذكَّرَ أمرًا آخر سيثيرُ اهتمامَها مُستقبلًا:



- يقال أيضًا إنه إذا ما رُصِّعَ به خاتم، جعل حامله مَحبوبًا من الشخص الراغب في نيل حُبّه!

عندئذ علمت (تبريس) معنى اسمها الذي استساغته، فقد وجدت له رَنّةً موسيقية جذبتها، واحتملت الحجر معها دائمًا كما لو كان مصدر قوة غامضة توشك على امتلاكها يومًا..

زفاف (أزوريت) من الطبيب الذي طلب يدها قبل شهر فحسب قد دنا..

أثناء تحضير فستان الزفاف جلست في غرفة (ناردين) ومعها (حرير) و(ذهب) و(ظلال) و(غصون)، وحتى (قبرة) الشرهة تخلت عن باب الثلاجة كي ترى ثوب الزفاف الذي بَهَرَها كثيرًا..

كانت (أزوريت) تعاملُهنّ كصديقات قديمات، فترفُلُ في الثوب الجميل أمامهنّ، وتدورُ حول نفسها كالفَراشة وهُنَّ مُصفّقاتٌ ضاحكاتٌ، تُخبرهُنَّ أن يوم زفاف الأنثى يوم مُخلّدٌ في ذاكرتها، وجميعُهن سيسعين لجعل ذلك اليوم هو الأجمل في حياتهن، فتحرك بحديثها مُخيلاتهن..

بجرأتها ووقاحتها المعهودتين تطلب منها (ذهب) إخبارهن عن ليلة الزفاف وما يقع فيها بين الذكر والأنثى، فترتسمُ حُمرة الخجل على وجوههن جميعا عدا (قبرة) البلهاء التي تتساءل ببراءة:



- وماذا يحدثُ في ليلة الزفاف هذه؟

فيجيء الإنقاذ عن طريق (ناردين)، تدلُفُ بلطفٍ حاملة علبة استكمال النواقص لفستان الزفاف فهي خياطة بارعة، فتطلب (أزوريت) منهنَّ جميعًا وبلطفٍ الخروج، فينفذن ذلك دون مشكلة، وتصنع (ذهب) المثل بضغينة لم تخفها يومًا في الحديث والنظرات تجاه (ناردين)!

أما (تبريس) فكم تمنت المكوث أكثر والمشاهدة! لكنها لم تجرؤ يومًا على طلب السماح لها بالبقاء، فتهُرع إلى غرفتها وتبتدئ طقوسها المعتادة، تصنعُ تمائم من الخيوط والورق، وتتمتم بكلمات غير مفهومة، تخطُّ بقلم تلوين أحمر دوائر لولبية على تمائمها!

كانت تحتفظ بشيء من كل ما تمارسه في ذاكرتها، طقوس نبَّأتها أن وسائلها ستعينها على كشف الحجاب عن اسم حبيبها، وتمارس أفاعيل الساحرات تلك كلها ويدها قابضةٌ على حجرها الأثير الذي تسمَّت باسمه..

دأبت (تبريس) على زيارة (حلزون) وهو جالس على طاولة الكتب والمراجع مُتراصَّةٌ من حوله كقطارات، فأخذت مشورته في مطالعة بعض كتب السحر والشعوذة، وكان قد قرأ أكثرها قبل أن يجدها هُرِفُ بُهراءٍ لا نفع منه، لكنه ساعدها بحكم خبرته مُنتقيًا لها عددًا لا بأس به من الكتب التي تتناول شروط السحر و(مُخاواة) العفاريت، دون أن يفتهم سبب تحمُّسها الشديد لتلك الترهات..



وتحوّلت غرفتها الجديدة داخل المصحة إلى غرفة غجرية من قارئات البخت، حتى إن المشرفة الدميمة (وجيهة) كانت تخاف كثيرًا الدُّنوَّ من غرفة المراهقة المجنونة، وكثيرًا ما زارت مدام (باسينت) في مكتبها كي تنقل لها - بوجه ممتقع- أن مشعوذة شيطانية تتلو السريانية ليلًا تقطن معهم، فكانت (باسينت) تضحك وتسخر من تخاريفها الممتعة..

وذاتَ ليلةٍ، خرجت (وجيهة) من حجرتها واضعةً شالًا ثقيلًا على كتفيها، فالبرودة كانت غيرَ طبيعيةٍ، كما أنها سمعت صوتًا مُريبًا آتيًا من المطبخ..

هناك، وجدت هرًّا أسود يحاولُ فَتْحَ الثلاجةِ، فتهاوى قلبُها بين أضلعها، ومسَّت ثغرَها الجاف بأطراف أناملها هامسةً كالمأخوذة:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! لا بُدَّ وأن المُدمنةَ اللعينة قد (خاوت) جنيًّا!

ولدى بلوغها السابعة والعشرين من العمر، دأبت (تبريس) على الخروج في جولاتٍ ليليةٍ في ممرات المصحة بقدمين حافيتين وعباءة سوداء كرُهبان معابد القرابين، حاملة شمعةً ومتلفظة برُقًى عجيبة، وفي إحدى جولاتها الليلية قابلت (صفير) المُولَع بالدمى الميكانيكية يدور بحيرة التائه كما لو كان فاقدًا لشيء مهم، فقالت له عبارة واحدة أراحته فيما بعد كثيرًا، وإن لم يفهم كيفية معرفتها بموضوعه:



- "ستجد (صفرد)!"

وفي ليلة أخرى قابلت (راهب)، وقد وجدته مُرتديًا خوذة بمصباح ويعكف على جرجرة جهاز عجيب الشكل، فقالت له ساخرة:

- أنت بكائناتك الفضائية وأنا بعفاريتي، ولنرَ مَنْ منا سينجح في الاستيلاء على القصر!

كانت كديدن المرضى الذين أطلقوا على المصحة اسم "القصر" لسببٍ ما يجهلونه هم أنفسهم..

طبعًا أثارت ذُعره كثيرًا، حتى أنه استيقظ صبيحة اليوم التالي مُعلنًا للجميع أن (تبريس) كائنٌ فضائيٌّ آخر نيّته غير سليمة تجاه أبناء الأرض!

استمتعت كثيرًا بالخوف الذي تفشّى بينهم تجاهها كلما مرت بأحدهم، وصارت تحمل الازدراء للجميع لدرجة أنها صارت تتناول وجباتها، وتقضي جُلّ وقتها في غُرفتها بين التمائم ومُمارسات الشعوذة، وتدريجيًا تحولت لانطوائية، كان هذا قبل أن يتحوّلَ الخوفُ منها إلى اهتمامٍ بها!

وكان أول الزائرين هو(بلجة)، إذ أراد عونها لجعل (ظلال) تَعْشَقُه وتتعلق به، فأعطته تميمة جلدية أمرته ألا ينزعها عن عُنقه أبدًا، كما أمرته ألا يفتحها ليرى ما بداخلها وإلا أُصيبَ باللّعنة!



رَضَخَ للأمر، لكنه عندما استوثق من عدم جدوى التميمة فتحَها، فأبصر بداخلها ذَيْلَ عقربٍ!

زارها (ضارية) أيضًا طالبة منها تميمةً تُعجِّلُ بشفاء صديقتها (لؤلؤة) الأثيرة إلى قلبها والتي ترعاها بأمومة، فمنحتها (تبريس) ما طلبت، ولدى فشل تلكم التميمة أيضًا زارها (ضارية) كي تهزأ بها وبعفاريتها، فحذرها (تبريس) مِنْ فِعْلِ ذلك وإلا حلَّت عليها لَعنةٌ لن تزول عنها إلى أبد الآبدين!

زارها (ثؤلول) أيضًا باحثًا عن حلٍّ لمصيبته، و(زغدة) للخلاص من كوابيسها المُرعبة، حتى (قبرة) البدينة الأكول زارتها لإيجادِ وَسيلةٍ تَلجُ بها نادي "الآنسات الحافيات"!

لكن أعجب زيارة حدثت هي زيارة (أزوريت) لها شخصيًا، وقد جالستها الممرضة باحترامٍ ورهبةٍ رغم فارق السِّنِّ بينهما، فقد كانت (أزوريت) مؤمنةً تمامًا بقوة السحر والعفاريت..

سألتها (تبريس) عن المشكلة، فانتحبت (أزوريت) قليلًا قبل أن تهمس من خلال دموعها:

- زوجي يريد طفلًا من صُلبه!

أثارت الجملة قلقًا مُبهمًا في نفس (تبريس)، فقد كانت تلك بادرة غير مريحة، في حين أضافت (أزوريت) مُخفيةً ملامحها بكفيها:



- كما أنه يغار!

- ممَّن؟

- منْ.. من (شاهر)!

ذُهِلَت (تبريس) حتى اتسع بصرُها، وهَتَفَتْ دَهشَةً:

- (شاهر)؟ لكنه..

- أعلم هذا! لكن.. تريدين الصدق؟ أحيانًا تراودني أفكار مشينة بشأنه!

- أنت؟!

- سامحيني! الأمر أكبر من مقدرتي على الاحتمال أكثر، كان يجب أن أُسرَّ بالأمر لأحدٍ قبل أن أُصابَ بالجنون.. أراه مؤخرًا في أحلام شائنة ولا أعرف السبب!

- إن (شاهر) بمقام ولدك الآن يا أماهُ!

- أعلم هذا! أعلم هذا!

ثم داهمتها نوبةُ نشيج منحت الفتاة فُرصةً للتفكر بهذا كله، كانت فكرة الإنجاب مُخيفة، فهي تعني أن ينال الطفل كل اهتمام ويفقد المرضى امتيازات وجودها المتعددة، وقد يطلب منها زوجها تَرْكَ العمل..



لكن هذا! حديثٌ رهيبٌ لا يخطر ببال حتى عفريت من عفاريتها!

وعدتها خيرًا قبل تفرقهما، وفكرت (تبريس) مُطولًا في الأمر حتى أعياها التفكيرُ.. لكنها لم تلبث أن اتخذت قرارًا صارمًا ذات ليلة، فمصلحة الجماعة تفوق مصلحة الأفراد..

هكذا، شحذت جميع التمائم ورُقى السحر لجعل مرضتهم المحبوبة عقيمًا!

5

في غرفته بالمصحة، وأمام درج احتفظ داخله بخصوصياته من أيام المترل، استخرج (ثؤلول) سكينًا صغيرة ماضية رفعها عاليًا كي يتأمَّل ملامحه على نصلها..

تذكَّرَ ضحكة مدام (باسينت) لما وقع بصرها على وجهه المليء بالثآليل القبيحة، وبمعايرة قاسية ألصقت به اسمًا لطالما تهكَّم به أكثر المرضى عليه..

والذي لم يدركه أحد منهم أنه كرههم أجمعين، ولدى ولوجه غرفته الجديدة وضع ستارة على المرآة العريضة هامسًا بحنقٍ:

- هذه المرأة تسخرُ مِنّي!

في المصحة تقلَّبت نفسيته أكثر، لقي اشمئزازًا من المُشرفة (وجيهة)، حتى أنها كانت تضع له الطعام وأنفها يبتعد عن وجهه كما



لو كانت تخشى التقاط عدوَى منه، وفي مرة تمشّى في الحديقة، فسمع صوت (هدهد) الأجش يهتف به:

- لمَ لا تختبئ في غُرفتك أيها الحيوان القبيح؟ إنك تؤذي الناظر إليك!

فرمَقه بنظرةِ كَراهيةٍ جمّة، وهُرع إلى غرفته كي يمر بأزوريت التي تبسمت لدى رؤيته، فنادته بحنوٍّ:

- إلى أين يا بطل؟

لكنه تجاهَلَها مُواصِلًا الركض، ظَلَّ صوتها يُطارِدُه حتى بُحَّ..

وفي غرفته أوصد على نفسه الباب لاهثًا، قبل قوله بنبرة مخنوقة والعَبَرات محتشدة في مقلتيه:

- المرأة اللعينة تسخر مني!

كانت ثآليله معاناة ما بعدها معاناة، لكنه لم يَبُحْ بوَهَنه لأحد، حتى إن (أزوريت) عرضت عليه ذات مرةٍ أخذه لطبيبٍ مُتمكنٍ كي يتخلّص منها، فرفض بإباءٍ وأعماقه ملأى بالتحسُّر على رفضه المتسرع..

كان يكره الشفقة والاحتقار معًا، أراد عيونًا طبيعية، لذا قضى جُلَّ وقته في غرفته، وإذا اجتمع مع أحدهم اختار فئةً معينةً لا تزدريه، مثل (ناردين) اللطيفة و(حلزون) غير المكترث إلا لكُتبه..

وعندما يمُرُّ بشاهر من دون قصد، يسمع صوتًا هادئًا يناديه بقوله:

- كيف حالك؟

كيف حالك! كيف حالك! بلا (ثؤلول)! حتى (ناردين) و(حلزون) و(أزوريت) ينادونه بثؤلول بغير نيةٍ سيئة، فهم لا يعرفونه باسم غير هذا الاسم المَقيت، لكن (شاهر) كان الوحيد الذي تعامَلَ معه بالاحترام المطلوب..

ورغم هذا شعر (ثؤلول) بكراهيةٍ عجيبةٍ له، ففسَّرَ احترامه ذاك على أنه سُخريةٌ مُبطَّنة بمَكْرٍ، أحيانًا يطلب (شاهر) عونه في حمل الأغراض التي ابتاعتها (وجيهة) للمطبخ فيرفض، أراد سماع الفتى يصرخ ويشتم ويعايره [illegible]، أراد الانتشاء بالظلم الذي يشعر به.. جميعكم أوغاد تعايرونني وكأنكم كاملون، وحتى أنت يا من تتظاهر بالطيبة والبساطة معي.. كلكم حِفنةٌ من المدمنين الأفاكين!

وذات مرة، طلب (شاهر) منه عونه في الإسطبل، فرفض (ثؤلول) صارخًا بحدَّة:

- لستُ عبدًا لك!

فاكتفى (شاهر) بهزِّ رأسه ومُباشرة عمله دون تفوُّهٍ بحرفٍ واحدٍ منغص..



ثم وقعت الطامة عندما أصاب أعذب داء مشاعره وفؤاده، فقد تعلّق قلبه بالفتاة (زغدة)، ولم يدرِ أنه بذلك قد سَطَّرَ التعاسة بأسوأ معانيها في حياته..

لم يمتلك (ثؤلول) مواهب خاصة، لا بالحب ولا بغيره، لذا احتمل وردة حمراء، وبطريقة مُبتذَلة قدَّمها لزغدة عندما كانت مستغرقة في تأملاتها الخاصة في الحديقة..

لكنه رفضت هديته بصرخةٍ، وتراجعت للوراء صائحةً بهيجانٍ وذُعرٍ:

- وكأن هذا ما ينقصني، "البعبع" يخطب ودي!

آذت كلمة "البعبع" تلك مشاعره أكثر من اسمه، وفي غرفته وقف متجردًا من ثيابه كلها، فوجد الثآليل في كل بقعة من جسمه، حتى في المواضع الحساسة، فغمغم كالبُلهاء وجسده القبيح آخذ بالترنح:

- هل هذا أنا؟ من أنا؟ لماذا أنا؟ ماذا أنا؟

ثم نَشَجَ بحُرقةَ حتى سَمِعَ طرقاتٍ على بابه، وكان الطارق (أزوريت) بذاتها تسأله برقةٍ عمّا أصابه، أراد الصُّراخ ونعتها بالبغي لحملها على الرحيل، لكنه تكوَّر على نفسه كالقط المُبتل، وبضآلةٍ غمغمَ:

- لا شيء يا أماهُ، أشعر بالنُّعاس لا أكثر..



- إذن افتح الباب ودعني أقسْ لك حرارتك..

- لا داعي لهذا كله، أنام وأستفيق، وعندئذ أصير كالرهوان..

- إذن تصبح على خير يا عزيزي..

وترحل تاركة إياه يكرر عبارتها مرارًا وتكرارًا بتهكمٍ مُشمئزٍ..

خطر له ذات مرة الاستعانة بتبريس وعفاريتها، فزارها عند منتصف الليل بخطواتٍ حَثيثةٍ وأنفاسٍ مُتلاحقةٍ، فقد كان حقًا يهابُها..

استقبلته باسمةً باستهزاءٍ مُتسائلةً:

- ماذا؟ تريد حلًا لثآليلك؟

- ريدُ حلًا لقلبي!

استرعى الأمر اهتمامها، فتمتمت:

- هكذا.. ومَنْ تعيسة الحظ؟

تجاهَلَ كلامها قائلًا بتصميم:

- (زغدة)؟

- (زغدة) الرعديدة؟ ألم تجد إلا الفتاة التي تخشى ظِلَّها؟ انسَ الموضوع أفضل..

- أبدًا!



- أوه.. يا لها من شجاعة! لكنك ستنسى، حتمًا ستفعل..

- لماذا؟ لماذا؟

- لأن عفريتًا أعرفه ويعرفني قد تعلّق بها، ولن يتركها أبدًا حتى لو اضطر إلى ذبح منافسيه على قلبها!

هنا فقط تبدّى جبنه وهو يهبُّ واقفًا ويتراجع مُرتعدًا، خارجًا من غرفتها مَذعورًا، وصوت ضحكها الشامت يطارده كأشنع كابوس!

وفي حجرته تجرَّد من ثيابه كالعادة، ووقف متأملًا ثآليله في المرآة التي أزال الستارة عنها صائحًا:

- يا حقراء!! يا أنجاس!!

مخاطبا ثآليل الشبح المشوه الذي يناظره كل ليلة تقريبًا..

ثم جلس على مقعد أمام طاولته، مستخرجًا من الدرج سكينه الضئيلة الحادة، فتمعَّن بها مُحدِّقًا بتقاسيم وجهه المُنفرة، وبنبرةِ حقدٍ همَسَ مُمررًا إبهامه على الحد حتى أدماه:

- الليلة ينتهي كل شيء.. كل شيء!

وبرعونة جنونية قام بتمزيق ثآليله كلها شر تمزيق! ثم خرج بتلك الهيئة المروعة وهو يصرخ، ولحسن الحظ أن (وجيهة) كانت أول من رآه، فاستنجدت بالمرضى مَذعورةً..



قام (شاهر) بلف بطانية عليه، وبسرية تامَّة وبعون من (هدهد) نُقلَ إلى غرفة من غرف المصحة المتعددة ريثما تُهرع (وجيهة) لإخبار (باسينت)..

وحضرَ طبيبٌ مختصٌّ عقبَ مرور ساعةٍ كاملةٍ ومعه مُمرضتُه، فنظفا جُروحَه كلَّها بالمطهرات، ثم قامت الممرضة بتضميد الفوضى التي أحدثها بأناةٍ هامسةً بعباراتٍ مُشجعة:

- أنت فتى شجاع.. ما اسمك؟

ردَّ ساخرًا:

- (ثؤلول)!

لكن وجهها لم يوحِ بشيء، وواصلت عملها حتى أتمته، ثم رحلت هي والطبيب، لكنها لم ترحل عن بال الفتى المتضرر نفسيًّا وجسديًّا..

لأيام ظلَّ يحلم بها، كانت امرأة تماثل (أزوريت) عُمرًا، قصيرة القامة نوعًا، ذات شعر أسود قصير كالباروكة، ممتلئة قليلًا، لكن أنوثتها الظاهرة جذبته بشدة..

أراد معرفةَ اسمِها، وتحايَل مرة على (أزوريت) التي أتته بصينية الطعام كي تعاود الممرضة زيارته لتفقُّد جروحه، فوعدته (أزوريت) - التي لم تفهم مقصده الحقيقي - خيرًا، وأخبرت زوجها بالعمل كي يرسل الممرضة، لكنه رفض قائلًا: لا داعي لحضورها لأن الجروح متماثلة للشفاء..



صارت (زغدة) أثرًا بعيدًا من الماضي، فقد صار وَلَهُ (ثؤلول) الأول والأخير لقديسات الرحمة اللواتي يهمسن بالشفاء في آذان المعذبين من المرضى، وتحول إلى مريض سريري مُنعزلٍ، حاله كحال (لؤلؤة) المسكينة..



6

(جروح) اسم يُناسِبُ فتاة، ورغم ذلك لم يكن هذا اسمها الحقيقي..

فقد لاحظت مدام (باسينت) نُدبات كثيرة من أداة حادة في راحتيها، وعندما سألتها عمَّن تسبب لها بتلك الجروح القديمة أجابتها:

- العقاب!

كانت (جروح) تحتفظ بشفرة حلاقة في جيبها، ذات الشفرة التي استخدمتها والدتها الراحلة عليها كلما أخطأت في شيء، وقد كانت هفواتها لا تُذكر، يمكن لأي صغيرة ارتكابها، إلا أن والدتها كانت تملك رأياً آخر..



- "افتحي راحة يدك!"

والسبب – مثلًا– تركها الجزر المطبوخ في الطبق لأنها لا تطيقه، ثم تقبض الأم رسغ ابنتها بثبات، وتمرر الشفرة الحادة ببطء على يدها البَضَّة، تاركةً لها نُدبةً جديدةً من ندبات الهَوانِ والألم..

ثم صارت (جروح) تُعاقِبُ نفسها على ما تعتبره غلطةً بذات طريقة والدتها، لذا امتلأت يداها نُدوبا قبيحة!

لم تتغير (جروح) أثناء تجربة الإدمان وبعدها، ظلت محتفظة بالشفرة معاهدة نفسها ألا تقع في الخطأ احترامًا لذكرى والدتها المعتوهة!

وباستثناء تلك العادة الماسوشية، تبدت (جروح) فتاة جميلة تُعنى بشعرها وثيابها ونظافتها، وبعينين نجلاوين كانت تتفقد الفتية بولع سري لإيجاد من يناسبها منهم أكثر، ليس كحبيب وإنما كصديق مُخلصٍ مُقرَّبٍ..

كانت مشكلة الفتاة أنها صامتة أكثر الوقت كالبُكم، نادرًا ما تنطق، فإذا نطقت واكتشفت أن ما قالته بدا مَعيبًا أو غير مفهوم سارعت بمُعاقبة نفسها بشفرةِ الحلاقة!

كانت تستأنسُ بالحديقة وخُضرة المزرعة، وأكثر ما أحبّته لدرجة الوَلَه الحصان في إسطبل المزرعة، وقد كان فَحْلًا جميلًا يدعونه عداء الصحراء، جوادًا عربيًا أصيلًا بُنيًا، ذا حوافر قوية وقوائم بيضاء..



صارت تستيقظ فجرًا كي تُلقي التحية على العداء، وتطعمه قبل قيام (شاهر) أو (هدهد) بذلك، وتوطدت العلاقة بينها وبين الجواد الجميل، فصارت تقضي جُلّ وقتها يوميا معه، تطعمه مكعبات السكر وتروي له حكايات عن ذكريات كئيبة، كما أنها دأبت على تنظيف آثار ضربات سوط (داهوت) الآثمة على ردفيه كلما امتطاه بقطن طبي ومُطهر للجروح، وزاد ذلك من معاناتها وعدد الندبات على راحتيها..

ذاتَ مرة، تصادف وجود (سرعوب) في الإسطبل، وجدته يُداعبُ ظهر حصانها الأثير، فتنمّر وجهها قليلًا وأمرته بالابتعاد عنه!

قر ـت دهشة في سحنته، وبترفُّقٍ هَمَسَ ويده تربت عُنقَ الحصان:

- لكنه يحبُ هذا!

- ومَا أدراك؟

- هو من أخبرني!

- احملْ تُرهاتك بعيدًا عن حصاني!

دُهِشَ أكثر لتعبير التملُّك الذي استخدمته، لكنه كان من المسالمين، فابتعد بخنوع وخرج دون أن يناقشَ، في حين دنت هي من عداء الصحراء هامسةً والدمع مترقرق في عينيها:

- أنا آسفة!



ولم تحدد أسفها على ماذا بالضبط.. على تأخرها عليه، أم على ترك الفتى يداعبه.. المهم أنها وجدتها غلطة لا تُغتفر، وفي غرفتها في تلك الليلة رسَمت خطًّا دمويا جديدًا على راحتها اليسرى!

في الصباح الباكر يستيقظ الجميع لتناول وجبات الإفطار، بعدها تبدأ حصص التعليم، فقد اقترحت (أزوريت) إحضار أفضل المدرسين لهم لتعليمهم كسائر البشر، ومن بينهم شابٌّ لطيف يُدرس الرياضيات..

كانت القاعدة الأولى والغامضة لدى (باسينت) ألا أسماء! يمكن للمدرس أو الطبيب معرفة اسم تلميذه أو مريضه، أما العكس فمرفوض، كأن المرأة تفضل تفوقعهم وعدم مخالطتهم باقي البشر..

بطبيعة الحال كان لا بُدَّ لعددٍ منهم أن يكونوا ضعافًا في الرياضيات، ومن بينهم (جروح) التي كانت تركز في حصة أستاذها على وَسامَته ومَلامحه الرقيقة الهادئة، كان شابًا مُتبسطًا يهوى استخدام الحكايات في حل المسائل المستعصية، كان بارعًا لكنها لم تكترث للدروس كلها..

أما كارثة الكوارث فتمثَّلت في أسئلته لها حول المسائل والمعادلات، كانت تخطئ دائمًا في الأجوبة معه ومع بقية الأساتذة في سائر المواد، لكن الخطأ مع أستاذها المفضل معناه طرح ندبة جديدة ومُؤلمة على إحدى يديها..



لم تقصر في زيارالها اليومية للعداء، فكانت تجلبُ له قِطَعَ السُّكَّرِ وتربت على ظهرِه، وتقصُّ عليه ما دار بينها وبين أستاذ الرياضيات، وتظلُّ بالساعات تثرثر عن وسامته ومدى دماثة أخلاقه، وفي النهاية قبل أن ترحل تُداعِبُ أذني الحصان هامسةً بدلالٍ:

- إنه يذكرني بك!

لم تكن علاقة (جروح) بأزوريت طيبة، كانت تطلق عليها "السيدة الزجاجية" لأنها بدت مجرد امرأة تافهة لا تهمها سوى سعادتها، أما تعلُّقُها بهم فهي مجرد مظاهر باردة وصورة مزيفة للظهور بمظهر المُحسنة..

لكنها أظهرت إعجابًا خَفيًّا بالمشرفة (وجيهة)، كانت تحترمُ تعبها في الاعتناء بالمُدمنين رغم قَسوتِها وصَرامَتِها.. كانت تحترمُ المرأةَ المُرهقة منْ فَرْط العمل، وتمقت المدعية المكتفية بالعبارات الرقيقة كأية سيدة أرستقراطية أخرى..

لذا، حينما دعتها (أزوريت) للانضمام إلى شقيقاتها أو رفيقاتها — كلاهما سواء— في أمور التدبير المنزلي من خياطة وصنع قوالب الحلوى أعرضت وبشدة، كانت المزرعة قُرةَ عينها، والعداء اهتمامها الخالص بعد مُدرسِ الرياضيات..

وفي اليوم الذي حضر به رجل بدين منكوش الشعر زاعمًا أنه مدرس الرياضيات الجديد ثارت، ورغم أن (وجيهة) أخبرتها أن



الشاب لم يعد بمقدوره المجيء لانشغاله بالتحضير للسفر لم تصدقها، بل نعَتَتْهَا بالكاذبة، فعمدت إلى صفعها من فرط الغضب والانفعال، فهُرعت إلى غُرفتها منتحبةً كالطفلة الغرير، لكنها لم تعاقبْ نفسها بالشفرة لحسن الحظ لأنها لم تعتبر ما اقترفته غلطةً..

وعند انتصاف الليل خرجت حافيةً قاصدةً الإسطبل، فجفلت عندما وجدت (سرعوب) جالسًا أمام عداء الصحراء دون أن يمسَّه..

كان الحصان الجميل مُعتلًا كما يبدو، فأسرعت تتفحصه جَزِعَةً قبل تَلَفُّتِها إلى الفتى الصامت صارخةً في وجهه بهيجانٍ:

- ماذا صنعتَ له؟

- ليس أنا!

- ماذا تعني؟

نَهَضَ ببطءٍ، وقبل مغادرته ألقى بقنبلةٍ صادمةٍ:

- إنه يشعرُ بالغيرة فحسب!



7

إذا كانت المقولة المأثورة هي "مَولودٌ وبفمه ملعقةٌ من ذَهَبٍ"، فإن تلك المتعلقة بحلزون: "مَولودٌ وبفمه كِتابٌ"!

فتى نجيب لطيف، ربما الوحيد الذي أحبه الكل دون ضغائن أو تهكُّم – إلا من ناحية الاسم فقط–، قصده الكل أول ما قصدوا لمعرفة معانِ ألقابهم المُبهمة التي صارت أسماءهم الأزلية فيما بعد..

من أين أتى (حلزون) بثقافته؟ كان ذكيًّا مُثقفًا مذ ولج المصحة بشلله المحزن ومقعده البدائي المدولب، وأظهر نجابةً في كل شيء، وكل سؤال يمتلك إجابته..

كانت مدام (باسينت) تحبُّه أيضًا وتعامله بلطفٍ، وكثيرًا ما كانت تُجالسُه لأحاديثه الشائقة التي تنسيها هموم إدارة المصحة، وهو ما لم تصنعه ألبتة مع مريض آخر لأن (حلزون) استثناء مهم، فهو لم يختر



الإدمان بل دُفع إلى هوته دفعًا، والده حَقَنه عن طريق الخطأ بالمخدر على أنه دواء، فصار ابن أبيه في عادة الإدمان اللعينة!

لذا كانت مُتعاطفةً معه ومعجبة بمعلوماته الغزيرة.. يُحدِّثُها عن الحضارات المختلفة والبلدان الجميلة، فترمقه بنظراتٍ تمزجُ بين الاندهاش والاستحسان، فهو يتكلم عن "اللوفر" وكأنه زاره، وعن مقابر الفراعنة وكأنه ولجها، وعن الأنهار الأوروبية الخلّابة كأنه جَلَسَ على ضِفافِها يومًا..

من ذكرياته التي لم ولن ينساها ما حيي أن مفصلًا في دولاب مقعده القديم قد علق، فصار بحاجة إلى بذل مجهود لجرجرته، وتصادف أن كان (شاهر) مارًا بالمكان مُصادفةً، وبنظرة واحدة تفهم الأمر، فتركه وذهب لجلب زيت التشحيم من المطبخ..

أثناء تَشْحيمِ المَفْصِلِ العالقِ تبادلا حديثًا مُطوَّلًا ومُشوِّقًا، حادثه (حلزون) عن "اللوفر" فكلَّمه (شاهر) عن "الموناليزا"، قصَّ عليه عن مقابر الفراعنة فعدَّد له أسماءهم وانجازاتهم عبر التاريخ، حكى له عن جمال الأنهار الأوروبية، فذكر له أسماءها واحدة تلو الأخرى!

وعندما تركه مُحييا بيد مرفوعة، صنع (حلزون) المثل هامسًا بنبرةٍ مُتهدجةٍ:

- أخيرًا وجدتُ "الفارس"!



عبارة غريبة.. أما مقصده منها فسيأتي فيما بعد..

لم يسعد (حلزون) كثيرًا في المصحة، صحيح أن الطعام متوفر، والملابس تنبعثُ منها رائحة صابون الغسيل..

لكنهم كَفُّوا عن زيارته للاستزادة من معلوماته القيمة، وصاروا أكثر انشغالًا، فأُصيبَ بخيبة أمل لم يظهرها، ولكن سرعان ما تلاشت عندما عكفَ على تصفُّح الكتب في مكتبة المصحة العامة..

صُعِقَ (حلزون) وبفرح لمرأى الكتب المتنوعة والكثيرة داخل مكتبة هائلة الحجم، فتحوَّل إلى أمينها بالمعنى الحرفي للكلمة، حيث بات فيها أغلب الأوقات، بل اتَّخذَ منها حُجرةً للنوم رغم سيل الاعتراضات المنهمر من (وجيهة)..

طالَعَ بنَهَمٍ كل الكتب وبزمنٍ قياسيٍّ أيضًا، وأعاد ترتيب المكتبة بمساعدة (شاهر) الذي ظلَّ يُلازِمُه كل يومٍ تقريبًا، يتحدثان عن الروايات وكتب الجغرافيا والعلوم من شتى الأنواع، كان ذكاء (شاهر) عجيبًا يدنو من العبقرية، لكن مظهره يوحي بشابٍّ غير مبالٍ بالحياة، تعلَّقَ به (حلزون) أكثر عن ذي قبل، كما أنه الوحيد الذي يعلمُ سرَّهُ!

ففي ليلة من الليالي كاشفه (شاهر) بموضوع صغير شائق، إنه واقِعٌ بالحُبِّ حتى النخاع منذ زمن، ولما سأله بمَكْرٍ عن سعيدة الحظ ظلَّ (شاهر) صامتًا باسمًا..



كانت (ناردين) هي الألطف والأجمل من بين كل الفتيات في نظره، لذا وَجدَ أنها تصلح حقًا لصديقه الهادئ الواثق، إنهما يُشكّلان ثُنائيًا ممتازًا، ولم يخبر أحدًا بالأمر..

لم يحدث أن رآهما معًا، وهذا ما جعله مُحتارًا، ولما سأل (شاهر) عن السبب أجابه:

- هي فتاة عَذْبةٌ، وأنا أهابُها نوعًا!

- معقولة؟ أنت تهابُ فتاةً؟

- ولِمَ لا؟ إنهنَّ الغموض الآسِر بعينِه!

وعندما استأذن للذهاب كي يعاون (هدهد) في الإسطبل، تمامَسَ (حلزون) بينه وبين نفسه بشغف:

- لا بُدَّ وأنه "الفارس"! ومَنْ غيره يكون؟

إذن.. ما حكاية الفارس؟

لدى (حلزون) سِرٌّ يُثقِلُ كاهله، سِرٌّ يمكن اعتباره مُخيفًا.. فقد نشأ في منزل بمخاوف تَعْتَمِلُ نفسه ونفسيته، ظَلّ يحملها حتى انتقاله للمصحة..

كانت تسلية مدام (باسينت) الأخرى بعد إطلاق الأسماء الغريبة عليهم هي سرد الحكايات المخيفة، وهي اللحظات الوحيدة التي تجد بها المرضى وقد تجمعوا في سهرةٍ ليلية – إذ لا تلفاز هنالك لأنه قادر



على توليد عنف لديهم وتصرفات أخرى غير محسوبة النتائج- بانتظار سماع ما سيُسرد الليلة كصغار الكشافة..

أما الحكاية التي نالت إعجابهم وبشدة - عدا (زغدة) و(حلزون)- فقد كانت حكاية عن أسطورة صينية قديمة تُدعى: "قائد الصفصافة"..

تقول مدام (باسينت) بنبرة ذات رهبة متأمِّلةً عيون المرضى المتسعة وشفاههم المنفرجة قليلًا وهي تُطالِعُ كتابًا قديمًا بعينين ضيقتين من فوق نظارةٍ طبيَّةٍ أضيق:

- عاش في قديم الزمان فارسٌ يُدعى (لي سن إين).. أراد شراء منزل كي يعيش فيه مُستقرًا، فقد قرَّرَ الزواج أخيرًا عَقبَ حياةٍ حافلة بالمغامُرات المُتهوِّرةِ مع تابعه الشاب الذي رافَقَه في كل رحلاته ومغامراته الشائقة..

بحث (لي) عن منزل الأحلام طويلًا، ولكن دونما جدوى، فهذا المنزل صغير، وذاك غالٍ، وثالثٌ مَوقعُه غيرُ مُناسبٍ، ورابع أكبر من اللازم..

شعر (لي) باليأس بعد عناء وطول بحث، لكنه وجد منزله المنشود في أحد الأيام..



كان منزلًا مُناسِبَ الحجم، في باحته حديقة مناسبةٌ لزراعة زهور النرجس التي يفضلها (لي)، كما أن منظر الجبال ذات القمم المثلجة من خلف المنزل تبدّى خلابًا..

قال (لي) مُنبهرًا لتابعه الشاب (كوان):

- لقد وجدتُ المنزل الذي أحلمُ به أخيرًا!

كان مالك المنزل عجوزًا مُتغضّنَ الوجه جامد التعابير، وقد قال للمُشتري الجديد المتحمس بنبرةٍ باردةٍ وهو يشير باتجاه باب المنزل القديم الذي حمل نقوشًا عتيقة:

- يجب أن أُحذّرك من شراء هذا المنزل المشؤوم!

تملكت (لي) دهشةٌ عارمةٌ ، فتساءل:

- ماذا تقصدُ يا جدي؟

- منزلي هذا هو مأوى للأشباح المُسماة "كوي"!

- أشباح؟ في هذا المنزل؟!

- أشباح تحب الأذى، أصحابها ماتوا أشنع الميتات..

إن "كوي" تنشد أذية الناس علّها تجد منهم من يحلُّ محلها في الجحيم! لكنها لا تستطيع السيطرة على الذين يمتلكون قلوب التنانين الشجاعة..



فهل أنت تنينٌ شُجاعٌ يا سيد (لي)؟

قالها متهكمًا، لكنه فوجئ بالرجل يقول وهو يشدُّ قبضة يده:

- أنا ما هو أكثر من ذلك!

رَمَقَه العجوز بنظرةٍ طويلة، ثم مدَّ يدًا معروقة وممسكة بعقد بيع المنزل، فوقع (لي) عليه ونَقَدَ الرجل ثَمنَه..

وقبل أن يرحل العجوز التفت إلى (لي) قائلًا له:

- قد أعذَرَ مَنْ أنْذَرَ!

- "أعتقدُ أنك قد تسرَّعت بشراء هذا المنزل المُخيف يا سيدي!"

كانت تلك كلمات (كوان) تابع (لي) الذي أوقد الفانوس وهو يتمتم باسمًا:

- لا عليك، إنما مجرد تخاريف الشيخوخة!

التحف (كوان) بالبطانية هامسًا بصوتٍ مُرتجفٍ:

- أشعرُ بالخوف!

- أنتَ تشعرُ بالبرد فقط..

كانت النافذة مفتوحةً، ولما همَّ (لي) بإغلاقها فوجئ برؤية أغرب شيء..



كانت هنالك يَدٌ زرقاء مَمدودةٌ عبر النافذة، تحمل بين أصابعها رسالة، والمخيف في الأمر أنها كانت يدًا وذراعًا فحسب، إذ لا وجود للجسد كله!

- "شَبَحٌ"!

هكذا صاح (كوان) في رُعْبٍ، فقال له (لي) بحزمٍ مُتأمِّلًا تلك اليدَ المُخيفة:

- اهدأ، لا تدعِ الخوفَ يتمكّنُ منك هكذا..

بقيت اليد ممسكةً بالرسالة الملفوفة بعناية كما لو كانت تنتظر من (لي) استلامها، فما إن فَعَلَ حتى تلاشت اليدُ كأن لم تكن!

- "هذا أغرب ساعي بريدٍ صادفته في حياتي!"

هكذا قال (لي) مُتأمِّلًا رسالة الشبح ، فقال (كوان) في شوق:

- ماذا تقول الرسالة يا سيدي؟ اقرأها بسرعة أرجوك..

فضَّ (لي) الرسالة وابتدأ القراءة:

إلى مالك المنزل الجديد (لي سن اين)..

أُمهِلُك حتى فجر يومِ غدٍ كي تُغادرَ منزلي الذي اقطنُه مُنذُ سنواتٍ عديدة، واعلمْ بأني قد أجبرتُ الجميعَ من بني جنْسكَ على

الفرار دونما رجعة، وكل من حاول أن يتحداني نال العقاب الرادع، فلا تحاول اختباري لأن القتل لا يُعتبرُ خطيئةً لِشَبحٍ!

التوقيع: "قائد الصفصافة"!

طوى (لي) الرسالة مجددًا، وبدا ساهمًا شارِدَ الذّهنِ وهو يغمغمُ واجمًا:

- "قائد الصفصافة".. من تراه يكون بحقِّ الله؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك السؤال سوى رجل الشرطة (ين)..

و(ين) هذا كان قد قام في الماضي بعملٍ جَريء وشجاع، إذ أنقذ امرأةً مُسنَّةً من حَبْلِ المشنقة الذي لَفَّهُ أحد الأشباح المُنتحرين حول رَقبتِها، وقد أغضب تدخل (ين) الشبح، ودخل معه في صراعٍ مُضنٍ حتى مطلع الفجر، عندئذ أصاب الوهن الشَّبحَ وتحوَّلَ إلى قطعة من الحَطَب!

وجد (لي سن إين) الشرطي الكهل في المَخْفَر عاكفًا على تقشير برتقالة، فحيَّاه وجلس معه للدردشة..

قَصَّ عليه قصة المنزل ورسالة قائد الصفصافة، فقطَّب (ين) جبينه متمتمًا:



- قائد الصفصافة؟ لا أظنُّك تودُّ تحديه يا بني، فقد كان الرجل في الماضي أحد أقوى مغاوير الإمبراطور قبل أن يُقتلَ في إحدى المعارك، فنصَّبَتْهُ الأشباحُ قائدًا عليها وصارت تُطيعُهُ طاعةً عمياء..

- ولماذا يسمى بقائد الصفصافة؟

- لن تجد أحدًا هُنا لا يعلمُ مَقرَّه العتيد، إنما الصفصافة ذات الأعوام المائة، والموجودة عند المنحدر القريب..

شكره (لي)، وقبل أن يغادر سأله:

- هل تعلم الطريقة المُثلى لهزيمة شَبَحٍ؟

لا أحد يمكنه الإجابة عن ذلك السؤال سوى الحكيم (بي)..

(بي) الذي اعتزل الناس، وصار ناسكًا يتأمَّلُ في كَهْفٍ باردٍ، أمضى ليلة من ليالي أسفاره الطويلة في فندق مهجور مليء بالأشباح، وعندما كان يغطُّ في نومٍ عميقٍ استيقظ إثر سماعه أصواتًا مُروِّعةً، فوجَدَ أربعةَ أشباحٍ تنظرُ إليه، كان الأول لرجلٍ مات غَرَقًا، والثاني لقاتلٍ حُوكِمَ وقُطِعَ رأسُه، والثالث لامرأةٍ شَنقتْ نفسَها، أما الرابع فقد أُحرِقَ حتى الموت..

لا أحد يعلم كيف تمكن العجوز الحكيم من التغلُّب على تلك الأشباح، ولذلك زاره (لي) كي يستفيد من خبرته..

استقبل الحكيم (لي) بحفاوة، وجلسا داخل الكهف أمام نار أشعلها الحكيم كي لا يشعر ضَيفُه بالبردِ القارس، ومن ثمَّ سأل (لي) الحكيم:

- أيُّها المعلم (بي)، كيف تمكَّنتَ من هزيمة الأشباح الأربعة بحقِّ الله؟

أجاب الحكيم (بي) عابثًا بلحيته التي لامست الأرض من شدة طُولِها:

- بالشجاعة وإظهار اللا مبالاة! إذا كنتَ غير خائف فلن تتمكَّن الأشباح "كوي" من إيذائك أبدًا، فقد أمرتهم بالكفِّ عن الظهور في الفندق في تلك الليلة، وإظهار السلوك الحسن كي ترتاح أرواحهم المُعذبة ولو قليلًا، فوافقت الأشباح ثم تلاشت..

- فقط؟

- فقط..

نَهَضَ (لي) مُحيًا الحكيم على الطريقة الصينية التقليدية بضمِّ أصابع اليد اليسرى مع القبضة اليُمنى قائلًا باحترامٍ وهو ينحني:

- إنني أنحني لحكمتِك وشجاعتك يا معلم، فقد أفدتني كثيرًا!

لاحقًا في تلك الليلة، قال (كوان) بنبرةٍ مُتوتِّرةٍ مُشيرًا إلى نقطة ما عند المُنحدر:



- لا بُدَّ أنها الصفصافة التي نبحثُ عنها يا سيدي..

كان (لي) يحملُ القوسَ والنُشّابَ، وقد وضع سهمًا في وتر القوس استعدادًا منه لأي مواجهةٍ قد تحدثُ بينه وبين الأشباح..

سأل (لي) تابعه بغير اكتراث:

- أأنت خائفٌ يا (كوان)؟

- بالطبع أنا خائفٌ!

- يجب ألا تخاف وأنت برفقتي..

فجأةً بَزَغَ شيءٌ ما، فصاحَ (كوان):

- طيفُ رجلٍ يا سيدي!

- لقد رأيتُه..

وبسرعة، سدَّد (لي) سَهْمَه باتجاه ذلك الطيف الذي أطلق صَرخةً مُروِّعةً قبل أن يتلاشى، فاتجها إلى حيث اختفى ليجدا السَّهم مغروزًا في ثمرةِ قَرْعٍ!

قال (كوان) متعجبًا وهو يهرشُ جبهتَه:

- يا للغرابة! الشَّبحُ أصبحَ ثمرةً!

- أرأيتَ؟ إن الأمر لا يعدو كونه تسليةً إذا ما تمعَّنتَ بالأمر!

ضحكا قليلًا قبل أن يشير (كوان) إلى آثار أقدامٍ مُتجهة صَوب الصفصافة المسكونة، فاتجها إليها ليجدا شبحًا يرتدي ملابس المُحاربين القدامى بانتظارهما..

قال الفارس المُحارب مُلوِّحًا بسيفه عاليًا:

- من ذا الذي يجسر على الدنوِّ من شجرة قائد الصفصافة؟

لكن (لي) أخرسه بسهمٍ جعله يتلاشى وهو يُطلقُ أعتى الصَّرخات، ثم دنا من الشجرة وتأمَّلها مُطوَّلًا..

قال (لي) لتابعه (كوان) وهو يُتفُلُ في كفيه ويفركُهما جيدًا:

- ناولني الفأس يا (كوان)، فسنكون بحاجةٍ لحَطَبٍ كثيرٍ في الشتاء للمدفأة!

نهاية الحكاية.. وهي حكاية قد لا تجدُها مُرعبةً إلى ذلك الحد، لكنها أثرت بزغدة التي هَمَسَتْ مُرتعدةً وأسنانها تقضم المُلاءة:

- إذن، كان قائد الصفصافة هو البُعبع!

ردت عليها مدام (باسينت) ضجرة:

- أجل، لكنه الآن أصبح مجرد ثمرةِ قرعٍ مُتعفنة.. اخلدوا للنوم في غُرفكم الآن..



أما (حلزون) فقد تأثَّرَ بالحكاية بصورةٍ عجيبة، وإن لم يُظهرْ ذلك لأحد..

لم يحدث أن سَهِرَ أو نام دون رُؤية قائد الصفصافة، وصار يُشاهدُ اليد الزرقاء تخرج له من كل جدار ونافذة برسالة بين مخالبها، وقد دُوِّن عليها تهديدٌ بقتْله هو شخصيًا! حتى إنه شكَّ بأن لتبريس وعفاريتها يدًا بالموضوع!

ولأنه وجد الأمر لا يُطاقُ، وقد زاد عن حده، فقد طَلَبَ مُلاقاة (شاهر) في مكتبة المصحة، فلم يتردد الأخير أو يتأخَّر كديدنه..

حكى له (حلزون) عن قائد الصفصافة ومطارداته التي لا تتوقف عند حَدٍّ..

- "الليلة الماضية بعث لي برسالة تقول إن الليلة عند مُنتصفها سيكون مَماتِيَ!"

لم يسخر (شاهر) منه، لم يناقشه حتى.. ظل صامتًا مُنصتًا والفتى المشلول يُواصلُ حديثَه مُرتعدًا:

- أنت الوحيد الذي بإمكانه إنقاذي يا (شاهر)! فأنتَ الفارس الذي سيقهرُ قائد الصفصافة وأنا تابعُك!

- لستَ تابعًا لأحدٍ..

- بل أنا كذلك! بشللي وكرسي اللَّعين أنا تابع!



وتراجعَ بكرسيه هامسًا:

- لا أريدُ أن أموتَ!

رَمَقَه (شاهر) بصمت، ثم نهض ليَربتَ على كتفه..

وظَلَّ (حلزون) على حال سيئة طيلةَ اليوم، يُراقبُ بأسًى جمال (ناردين) وطيبة (أزوريت) وحُمق آنسات "نادي الحافيات"، وبَحْثَ (راهب) المحموم عن الكائنات الفضائية..

زار (لؤلؤة) بعد أخذ إذن من (ضارية)، فتحدَّثَ معها لساعة أضحكها خلالها، قبل دخول (ضارية) وأمرها له بالخروج لأنه أنهكها كثيرًا، وأثناء عودته إلى غرفته التقى براهب وخوذته العجيبة، فقال له باسمًا:

- جرِّب التخاطُبَ مع الكائنات الفضائية بالموسيقى الهادئة، فهي لا تعرف لُغةً غير هذه!

وفي غرفته وعند انتصاف الليل، سَمِعَ (حلزون) طَرقاتٍ خافتة على بابه، فتحرك بكرسيه صوبه وفتحه، فلم يجد أحدًا..

خَرَجَ للممرِّ مُغالبًا جُبنَه، وبأسنانٍ مُصطكةٍ تمتمَ لنفسه:

- إذا كان لا بُدَّ من الموت فلأمتْ بماءِ الوجهِ إذن!

وفجأةً، لَمَحَ ظِلًّا يركُضُ باتجاه المكتبة، فلَحِقَ به وقلبُه يخْفُقُ بعنف يكاد يسمعه بأذنيه، ووجد الباب شِبهَ مُوارب والضوء آتٍ منه، فابتلعَ ريقَه مُتحركًا ببطءٍ للداخل..



وجد فوضى في قسم كُتب الأساطير والخُرافات، ومن بين الأرفف تمكّن من رُؤية يد المسخ الخارجة ذات الزرقة المروعة والمخالب السود الحادة، فأطلق أعتى صَرخاته:

- النّجدة يا (شاهر)!

بُوغتَ بشاهر يقتحمُ المكان بالفعل! والأغرب من هذا كله أنه كان مُتسلّحًا بقوس ونشاب صوّبهما بسرعة باتجاه يَد المَسْخ، ثم وبِدَقّة أطلق سَهْمَه ليستقرّ في اليد المُتوارية بين الأرفف!

ثم وكأن الزمن صار يتحرك ببطء، مضى (شاهر) نحو السّهمِ البارز ساحبًا إياه من بين الكُتب المُبعثرة في الأرفف، ففوجئ (حلزون) به مُنغرسًا بثمرة قَرْعٍ!

نزع (شاهر) السّهمَ من الثمرة، وقذَفَها بخِفّة قبل تَلقّفها قائلًا لحلزون ببسمة عذبة:

- إن الأمر لا يعدو كونه تسليةً إذا ما تمعّنت بالأمر!

8

تقولُ الأُغنيةُ السَّيئةُ:

"إذا أحببتك فلا تحبني..

لا تصنع المثل فأنا أريدُ كراهيتك!

حُبُك صَنَعَ الخيرَ في نفسي..

والشر ناقص، أكمله من غرائزك!"

لكنها بصوت (خرير) الرائع تتحول إلى مقطوعة موسيقية تَطْرَبُ لها الآذان، فإذا ما غنتها حتى أمام (ياسينت) تصمت الأخيرة مستمتعةً!

ولكن لمن تغني (خرير)؟ ومن تقصد بتلك الكلمات المُنفرة؟



لطالما أخفت ذات العقيرة الملائكية إعجابًا خفيًا بأمير المصحة الجميل، فعندما يظهر (داهوت) بخُضرة مقلتيه وشعرِه الأشقرِ تبدأ (خرير) الغناء بصوت خافت مُراقبةً خُطواته، تضحكُ لضحكه، وتعبسُ لعبوسه، وتسخطُ لسخطه..

كانت تتصرف كزوجة مُطيعة له بالخفاء، حلمت به أكثر الليالي وهو يُقبِّلُها، ثم حلمت به يقبل سواها، وقد كانت (ذهب) هي أقوى المرشحات لنيل قلبه، فالفتاة تتمتع بفتنة مغيظة كما لو كانت عارضة أزياء من اللواتي رأت صورهنَّ في المجلات النسائية، أما عنها فجمالها لا بأسَ به، تقطيبتُها جذّابةٌ، لكن أنفها مُفلطح قليلًا، وعندما تطالع نفسها في المرآة، تصطدم دومًا بأنفها فتصيحُ عابسةً:

- لن يُعجبُ بي طالما وجهي يحمل هذه الأضحوكة!

سُرَّتْ حين أعلن (داهوت) ذات مرة ألا صوت يضاهي صوتها، رقصت بانتشاء في غرفتها حتى أعياها التعب، ونامت حالمةً بشتى أحلام الرومانسية الوردية.. رأته يقطف وردة ويدسُّها وراء أذنها، ثم يبدأ بتقبيلها حتى تستسلم بين ذراعيه وتستكين، وحين تستيقظ تقبض جيدها بأسى لأن الواقع مختلف..

لم تكن علاقتها وثيقة بالفتيات، كانت تَراهُنَّ خصومًا غدارات لا تُجدي الصَّداقةُ معهنَّ نفعًا، بل إن ضَرَرَها أكبرُ من نَفْعها، كانت تفكر دائمًا بحبيبها الذي وقعت في هواه مذ ولج المصحة للخلاص من عذاب الإدمان..

ربما حادثت (قبرة) البدينة قليلًا، فهي بلهاء نَهِمَةٌ للطعام بلا خُطورة منها، كان هذا قبل أن تيستكينَ يومًا في غرفتها مُفكِّرةً: ولكن ماذا لو كان ذوقه يميلُ إلى البدينات البلهاوات محبات الطعام؟

هكذا نبذمًا هي الأخرى!

كانت تُغني لأزوريت كثيرًا منتظرة سماع السؤال، حتى التقطته أذناها أخيرًا..

- "مَنْ تقصدين بتلك الكلمات العجيبة يا حبيبتي؟"

كَفَّت (خرير) عن الغناء، وبخجلٍ قالت كلمة واحدة.. اسمًا لم تندم على نطقه:

- (داهوت)!

رمقتها (أزوريت) بنظرة ارتباك، وبضحكة قَلِقَة تمتمت:

- آه.. محبوب الفتيات الأول! ألم تجدي غيره؟

عبارة متناقضة غريبة، سببَّت قلقًا داخليًا للفتاة.. ماذا قصدت تلك المرأة؟ أتكون هي الأخرى مُولَعةً بالفتى؟ إنها أكبر منه بكثير، كما أنها متزوجة!

وظلَّت مُوسوسةً بالفكرة حتى قرَّرَتْ نَبْذَها بادئ الأمر، ثم استعادت رباطة جأشها مُقرِّرةً التَّصرُّفَ بدهاء..



كانت كالجمل لا ينسى أبدًا، فتأكدت من أن أسبوعًا سيكون كافيًا وأكثر لنسيان ما جرى بينهما، ثم زارتها في غرفتها، وغنت لها قليلًا حتى صفا الجو لها تمامًا..

بعينين مسبلتين وابتسامةٍ هادئة تساءلت (حرير):

- ما رأيك بصفير؟

- الله! ما أجمل الحب!

فكرت (حرير) قليلًا والغيظُ يملأ كيانها.. إذا كانت هذه المرأة تحبُّ (داهوت) فلن تعترف لها بذلك أبدًا، كما أنها تعلمُ بمشكلة (صفير) الأحمق ومع هذا لم تذكرها!

إذن، هي تحاول إقصاءها عن دَرْبها، لكن هيهات!

تظاهرت باللامبالاة وهي تُراقِبُ كل خَلَجَةٍ من خَلَجَاتِ (أزوريت)..

- "وجدتُ (داهوت) واقعًا بهوى أخرى فتنحيتُ.."

ضحكت (أزوريت) قائلةً ببلاهة:

- مسكينة (ناردين)! الفتى يُطارِدُها كظلّها وهي لا تكفُّ عن التذمُّرِ!

اتسعت عينا (خرير) بظفرٍ وغضبٍ، فقد وجدت غريمتها الخفية أخيرًا!

صارت تُظهرُ برودة تجاه ألطف فتيات المصحة، وأحيانًا توقعُ لها طعامَها أو تُوغرُ صدْرَ (وجيهة) عليها.. من الذي كسَرَ الطبق؟ (ناردين) كسرته! من الذي لطّخ مَفرشَ المائدة ببُقعِ الحساء؟ (ناردين) لطخته!

لم تعاقِبْ (وجيهة) (ناردين) سوى مرةٍ واحدة، ولكن عندما انهال سيل الاتهامات على رأس الفتاة التي تتقن فعل كل شيء شكّت المرأة الأريبة بالأمر، فقالت في يومٍ لناردين التي كانت تُساعدُها في الجلي:

- ارى أن تحلي المشكلة – أيا كانت- بينك وبين (خرير).. الفتاةُ لا تنفكُّ تكيل لكِ اتهاماتٍ باطلة، ولا شيء أسوأ من حِقْدِ فتاةٍ على أخرى!



9

أُعجبتْ مدام (باسينت) بالمريض الأشقر مُذْ وَقَعَ بصرُها عليه للوهلة الأولى، فقد كان حَسَنَ التقاسيم، نَضِرَ البشرة رغم قَذارةِ ثِيابِه، كما أنه الوحيد الأشقر وبعينين زبرجديتين..

عند اللهوِ يصيرِ الآمر الناهي، ووقت الأكل ينالُ نصيبَ الأسد، فأغلب الفتيات يتنازلن له عن قِطَعِ البسكويت الذي يحبُّه..

كان زِيرَ نساءٍ ماكرًا، غالبًا ما يغتنم الفرصة لتقبيل هذه أو تلك، حتى إنه في مرة وعندما استوثق من حُبِّ الفتاة (خرير) ذات الصوت العذب له، وعدها بقُبلةٍ ما إذا ما تجرَّدت من ثيابها واضطجعت أمامه كما ولدتْها أمها!

لم تصنع كما أمر، وولت مُنتحبةً إلى الحمام، فلَحقَ بها وقلبه يرتعد من وشايتها للمُشرفَة الصارمة في مثل هذه الأمور، وعلى الباب الذي أوصدته على نفسها هَمَسَ لها بنعومة ثُعبان:

- هَلمّي يا حلوة.. أنا أُمازحك فقط! أنتِ لن تفسدي صداقة جميلة بسبب مُزحةٍ سَخيفة.. أليس كذلك؟

وعندما سأمَ من استجابتها رَكَلَ الباب بقسوة، وابتعدَ ولِسانُه آخذٌ بكيل الشتائم المُقذعة..

أثناء خروجه يفاجأ بشاهر، فلا يحاول إغاظته أو اعتراض سبيله، بكُرهٍ ذليل يطأطئ رأسه وعقله يصرخ كبركانٍ ثائر:

- "لو أن لي مثل قوتك وسطوتك لأشبعتُك ضربًا حتى تخضع لي!"

ومع الشلة التي لا يجمع بينها سوى كراهية ذاك المدعو (شاهر)، يُجالسُ الأمير الجميل – مضطرًّا- أقبح مريضين، (ثؤلول) بثآليه، و(بلجة) بندبته التي تصنعُ مسافةً بين حاجبيه..

فيما عداهما كان هواهُ لدى الفتيات، يُغازلُ هذه ويقرصُ تلك، أحيانًا يَلْقَى استجابةً وأحيانًا لا يَجدُ إلا الصَّمتَ الخجول..

وعندما نَبهَهُ فؤاده لضالته أخيرًا، وَجَدَ أن لا أصلحَ له منْ تلك الحُوريةِ اللّطيفة المُسماة (ناردين)..



كانت أول صفعة ينالُها في حياته من يدها، فاستشاط غضبًا حتى كاد أن يضربها لولا أن فوجئ بقبضةٍ صارمةٍ تُكبِّلُ له يَدَه..

كانت قبضة (شاهر) الذي سأله بحزمٍ:

- أتودُّ ضربَ فتاة؟

- إليكَ عنّي!

- ليسَ قَبْلَ أن تعتذرَ..

وهنا أتى (داهوت) بأجرأ فعلة في تاريخه المخزي، فقد بَصَقَ في وجه (شاهر) الذي تفاداها بسرعةٍ ويقظةٍ، حاول الخائب ركله بلؤمٍ في ساقه، ثم حاول قَبْضَ مواضعه الحساسة لهرسها بقبضته.. كان يحاول القتال بشراسة مُخنَّثٍ يكاد يقع ضحية للاغتصاب، ولم تُجد محاولاته نفعًا مع (شاهر).. كل ضربة ومحاولة إيذاء لم تجد سبيلها إلى بَدَنه، فقد كان يُبعدُ هجماته براحة كفِّه اللا مُبالية كأنها تذبُّ الذُّباب فحسب!

وفي النهاية، لوى (شاهر) ذراعه وأجبره على الركوع قائلًا له بخشونة:

- قلتُ اعتذرْ!

صرخ (داهوت) متألمًا:

- أعتذرُ!



- أعلى!

- أعتذرُ!

فأطلقَ سراحَه، وتركَهُ يمضي والدَّمْعُ يكاد يطفح من عينيه الجميلتين، واعدًا نفسه بالانتقام مِنْ (شاهر)..

ذاتَ مرةٍ، كان (شاهر) يتمشّى برفقة (سرعوب) في الحديقة، عندما أزاحه جانبًا وهو يهتف:

- احترسْ!

ثم التفتا معًا إلى جذع الشجرة وراءهما، فتبيَّن لهما سَهْمٌ خشبيٌّ صغيرُ الحجمِ مغروزًا في اللحاء!

تمتم (سرعوب) بتقاسيم كالحةٍ:

- أحدهم حاول قَتْلَك! كان يستهدفُك أنتَ!

عَبَسَ (شاهر) مُنتزعًا السهم الضئيل الذي أُطْلِقَ من سلاحٍ ما، قَذفَهُ في الهواء قَبْلَ مُعاودتِه التقاطَه هامسًا بغمٍّ:

- أتراهُ هو؟

- هو مَنْ؟

- لا عليك..



يومَ حفْلِ ما قبل زفاف (أزوريت)، ارتدى الأمير بذلة سوداء وربطة عنق قرمزية ذات دبوس مذهب على شكل وردة، ومشط شعره للوراء، ثم دسَّ منديلًا طواه بعناية في جيب البدلة الأنيقة العلوي، ووضع في الأكمام أزرارًا ذهبية منقوشة، فصار نجم الحفل بلا منازع بين الذكور..

ورغم أن (ذهب) كانت نجمته، فإن بصره لم يتزحزح عن جمال (ناردين)، التي رفلت في ثوب أقحواني التصق بقوامها المتناسق التصاقًا، وقد وضعت على كتفيها العاريتين شالًا حريريًا شفافًا ذا زُرقة سماوية، وعقصتْ شعْرَها كملكات فرنسا القديمات، فألهبت مُخيلته وبشدة، وظلَّ يُطارِدُها طيلةَ الحفل رافضًا إلقاء نظرة على الأخريات اللواتي بالغنَ في تأنُّقِهن وإبراز أنوثتِهنّ..

وجدها واقفة تحادثُ (شاهر) وتضحك، فاربدَّت سحنته.. كانت مُستندة للجدار، وتملأُ بصرَها بملامحِه القوية، وانزعج لما قبلت منه كأس العصير التي قدمها لها..

جلس شاعرًا بذوبانٍ بين ثناياه، وتردَّدت تأوُّهاتُ حسرةٍ في داخله مُسترجعًا تفاصيل أنوثتها المُبكرة وجمالَها الذي خلَبَ الألباب..

دنت منه (خرير) مُتسائلةً والحُمرة تقطر من وجهِها:

- أتراقصُني؟



- أنا.. مُرهَقٌ!

ابتعدت بفؤاد كسير كالعادة، فتبسَّم الفتى شامتًا ووجهه مرفوع قليلًا للسقف..

- "تبدو منزعجًا.."

عدَّل رأسه للأمام، فوقعَ بصرُه على (غصون) وقد ارتدت فستانًا أُرجوانيًا تبرز من جانبيه السفليين سقاها الناصعتان ذواتا التناسق البارع، فحركت شيئًا في نفسه أخيرًا، ونهضَ ليهمسَ في أذنها، ثم تحرك مُبتعدًا وهي تُلاحِقُه ببطءٍ، كانَ متشوّقًا ومحاولًا ألا تُهرع وراءه فتلفت الأنظار إليهما..

في المصحة تصرف (داهوت) كأمير حقيقي، فكان يطلبُ امتطاء "عداء الصحراء"، وعندما يفعل يُلْهِبُ ظهره بالسوط وهو يضحك متجاهلًا صُراخ (جروح) وتوسلاتها ألا يؤذي الجواد أكثر من ذلك، ولم يوقفه سوى تدخُّلٌ صارمٌ من صوتٍ لطالما خَشِيَ صاحبَه ومَقَتَهُ:

- "كفَّ عن ضرب الحصان!"

رمقه (داهوت) بنظراتٍ مُستهينةٍ من فوق الحصان قبل قوله:

- وماذا لو رفضتُ؟

- عندها أرميك من فوقه..

- لن تجرؤ، وسأفعلُ ما أشاءُ، فهو حصاني!

- لم تترك لي خيارًا..



هكذا، وثَبَ (شاهر) من فوق الحاجز الخشبي مادًّا ذراعه صوب الأمير الجميل، فرفَعَ الأخير ذراعه، وبكل قوته هَوَى بالسوط على وجه (شاهر) صارخًا والغضب يذيب خلايا مُخّه تذويبًا:

- يا جربوع! يا حيوان!

أمسك (شاهر) به وبالسوط، وقذفه من فوق الحصان ليطرحه أرضًا وهو يقول متهكمًا:

- لقد عرفتُ أصلَك أخيرًا، لا بُدَّ أن والدك كان إقطاعيًّا من الأتراك الذين يجلدون الفلاحين بسياطهم دائمًا!



10

إذا كان (داهوت) هو "الأمير الجميل"، فذهب هي حتمًا "الأميرة الجميلة"..

أي كلمات تُعطي فتنتها وأنوثتها حقهما الكاملين؟ كانت ذات شُقرة ذهبية، مُحياها خمريًا لذيذًا، حسدها كل الفتيات على شفتيها الناضجتين، وصدرها المُمتلئ، وقوامها المثني ببراعة، وحسدنها أكثر على زُرقة المحيط في عينيها الواسعتين الثملتين قليلًا..

حتى أيام الإدمان كانت تُعنى بصفاء بشرتها، فتستحمُّ يوميًا مرتدية الشيء الوحيد الثمين الذي امتلكته مذ ولجت المصحة، قلادتها الذهبية ذات نقش الدولفين، فلم تكن تُفارقُ جيدَها ألبتة، في النوم، وفي الحمام، وفي كل الأوقات لم تخلعها بتاتًا..



ارتدت أجمل الفساتين والتنانير دومًا، وسرى عَبَقُ المِسْك من جسمها كلما دخلت أو خرجت، وعندما تفعل تطالعها النظراتُ بِنَهمٍ ذاهلٍ وحسرةٍ مُؤلمةٍ، حتى إن (شبابة) صفرت مرة عندما وقع بصرها عليها قائلة بإعجاب:

- علامَ توحَّمت والدتُك يا فتاة؟ فراولة بمخفوق الكريمة؟

كانت من اللواتي يثِقْنَ بأنفسهنَّ ثقةً عمياء، جمالها من النوع الذي تتفتح له السُّبلُ بكل تأكيد، لكن طموحها لم يكن غير عادي..

كانت تطمح لحبٍّ من فتًى معين لفت اهتمامها مذ ولجت المصحة، الوحيد الذي لم يسل له لُعابٌ أو تجحظ له نظراتٌ لدى رؤيتها، ولأن السَّهل الممتنع يتمتع بثقةٍ تُماثلُ ثقتَها فَقَدْ رَصَدَتْهُ هدفًا لها..

لم تسلمْ طبعًا من تحرُّشات (داهوت) بها، لكنها أعرضت عنه ولم تستجب له، فقد تبدّى في ناظريها كائنًا جميلًا فارغًا إلا من السُّخف، ربما كفتاةٍ مُتصابيةٍ مثل (شبابة)، حتى (ضارية) تتحلى بصفات ذُكوريةٍ بأكثر منه!

حوّلتْ غُرفتها بعونٍ من الفتيات المتحمسات إلى غرفةٍ من الطراز الفيكتوري، وتسوّقت مع (أزوريت) لشراء قُمصانِ نومٍ مُريحةٍ وفساتينَ على الموضة باهظةِ الثمن، واشترت أقراطًا لؤلؤيةً لأنها



وجدتها مُناسبةً لأذنيها أكثر، ولم تبتع أساورَ أو خواتمَ لأنها كانت تراها ذات قُبحٍ شعبيٍّ على الفتاة..

كانت العيون تصبو إليها فتيانًا وفتيات، الفتيان يرمقونها بعيون نَهِمَةٍ آملةٍ بالارتواء من كنوز جسمها، والفتيات يطمحنَ لأن يصرن أفضل صديقاتِها، فقررت إيجاد وسيلةٍ جيدةٍ ومُسليةٍ لتخيُّرِ الأنسب لها من بينهن..

هكذا، قامت ذات يوم بخلع حذاءيها، وصالت وجالت حافية القدمين بتبخترٍ لافتٍ للأنظار، واجتمعت بها الفتيات مُتسائلاتٍ عن السبب بفضول..

فرفعت إصبعًا قائلة بلا مبالاةٍ كي تزيد من شُعلة حماستهنَّ:

- لقد استحققتُ سيادة نادي "الآنسات الحافيات" عن جدارة!

وبالطبع أردن معرفة المزيد، فتبسَّمت قائلةً بتكاسُلٍ عَذْب:

- بكل بساطة طبقتُ الشّعار لأصيرَ عضوة وقائدة بالنادي..

وأنتنّ بإمكانكنّ الانضمامُ، ومعناهُ دُخولُكنّ - بشكلٍ رسميٍّ - غُرفتي دونما دعوةٍ كي نقومَ بأنشطةٍ خاصةٍ!

تساءلن عن شروط الالتحاق بناديها المزعوم وهن يحلُمنَ بدخول غرفتها الجميلة المُعطرة لرؤية الفساتين والحُلي، فغمغمت بمكرٍ:



- بسيطة، كل راغبة بالانضمام للنادي عليها بداية أن تتخلّى عن حذاءيها!

وفي ثوانٍ صارت غالبية الفتيات مُجرداتٍ من الأحذية، فتبسمت بخفوتٍ هامسةً بدهاء:

- ليس الأمر بتلك السهولة التي تتصورنها.. ثم على الفتاة أن تضع قدمًا حافيةً على صدر فتى وتُردّدُ: "باسم عضوات النادي الجميلات أُعلنُك حارسًا لي!"

وعندئذٍ، سارع أكثرهُنَّ إلى انتعال أحذيتهن والابتعاد خَجلات، كانت (قبرة) البدينة من بينهن، لكنها ابتعدت وكأنها تزحَفُ، إذ بدا وكأنها تريد البقاء لولا ألسنتهن السليطة، إلا (ظلال)، و(غصون) اللتان تساءلتا بوجهين مخضبين بحُمرة الخجل:

- إذن فقد فعلتِ ذلك مع فتًى ما؟ مَنْ تراه يكون؟

رفعت رأسها مَزهوّةً مُجيبةً:

- بالطبع فعلتُ.. فعلتُها مع (شاهر)!

وافقت الفتاتان على تنفيذ الأمر على مَضضٍ، لم يكن الجمال ينقُصُ واحدةً منهما، وإنما الجرأة التي تتحلّى بها قائدة النادي العجيب..



وهكذا، عكفت (ذهب) على مُراقبة المرشحتين لنيل عُضوية النادي، مُشترطةً عليهما القيام بالشرط الأساسي أمامها كي لا يكون ثمة مجال للخداع..

وذات يومٍ، دنت منها (ظلال) قائلةً ببساطة:

- أنا مُستعدَّةٌ..

واقتادَتْها إلى غرفة المعيشة حيث رقد (بلجة) وابتسامةٌ بلهاء تعلو وجهَهُ!

اقتربتا منه، وبكل بساطةٍ وضعت الفتاةُ قدمَها العاريةَ على صَدرِه مُغمغمةً بثقة:

- باسم عُضوات النادي الجميلات أُعلِنُك حارسًا لي!

صفّقتْ (ذهب) جَذِلَةً وهي تقول مُهنئةً بمكرٍ:

- قَبِلْتُكِ عُضوةً بالنادي!

تهلّلَ وجه (ظلال) أيّما تهلُّلٍ، في حين، تساءل (بلجة) مُواصِلًا التبسُّمَ الأبله:

- أهذا كل شيء؟

صارت (ظلال) العُضوة الأولى في نادٍ بدا كعالَمٍ ورديٍّ مثاليٍّ، فالغُرفة لا أروع منها، والفساتين لا أجمل منها كذلك، بإمكانها استعارة ما تشاء من الحُلي والثياب، بل أن تحظى بتصفيف شعرِها لأن قائدة النادي تملك الموهبة..



تبدّت (ظلال) آيةً في الحسن بعدما كانت مُجرد فتاة عادية لا تثير الطموح كثيرًا – اللهم إلا طموح بلجة–، مما دفع (غصون) إلى اتخاذ قرارٍ سريعٍ وإجراءٍ أسرع..

هكذا، فاجأت (ذهب) يومًا بجلبها الأمير الجميل، شخصيًّا! وبنظرةٍ مُتحديةٍ رَمقتْ (ظلال) الذاهلة قائلةً بشيءٍ من الشماتة:

- جئتُ لتأديةِ القَسَمِ!

كانت قدماها عاريتين، فنظرت (ذهب) إلى (داهوت) وسألته:

- أمستعدٌّ حقًّا لتنفيذ ما طَلَبتْ منك؟

ردَّ مُستهينًا وهو يمضغ قِطعة علكة:

- مُستعدٌّ بفعْلِ أيِّ شيءٍ لأجل (غصون) الجميلة! ثم إن الأمر سيكون مُسليًا!

وهكذا صارت (غصون) هي الأخرى عُضوةً في نادي "الآنسات الحافيات"!

تحولت (ذهب) لأميرةٍ حقيقية، وقد أُعجبت (وجيهة) بتصرفاتها حتى أعلنت أمامها وأمام مُديرتها (باسينت) ذات مرةٍ أن (ذهب) فتاة تستحق كل ثناءٍ وتقديرٍ، فهي تتصرّفُ كسيدةٍ مُحترمةٍ!



كان هذا في النهار فقط، ولكن عندما يحلُّ الليل، تبدأ اجتماعات النادي السرية، فتخلع الفتيات أحذيتهن، ويتنقلنَ بأقدامٍ حافياتٍ في الممرات مع وضع قاعدة جديدة وصارمة: ألا تراكن (وجيهة) أبدًا!

في الدروس أظهرت (ذهب) تفوُّقًا مُثيرًا للاهتمام، حتى أنها نافست (ناردين) الذكية، وقد كرست أكثر الوقت لتعلُّم اللغة الفرنسية، فقد كانت مُعجبةً بالفرنسيات ورِقَّةِ لُغتهنَّ وجمال ثيابهنَّ وعَبَقِ عُطورهنَّ، فقررت أن تصير مِثلهنَّ، وبالتالي صار ذلك شرط النادي الجديد..

في حين قال لها (داهوت) بتهكُّمٍ لمَّا تناهَى لمسامعِه ما تنوي فِعْلَه:

- لكن الآنسات الفرنسيات ينتعلنَ أحذيتهنَّ!

قالها رغم استمتاعه بمراقبة أقدامهن الدقيقات البيض، وهي تخطو برقةِ الفراشات على الأزهار فوق البلاط الباردِ..

ولم تكترث (ذهب) لما قاله، فهي تعلمُ مدى استمتاعه المريض بمراقبة أقدامهن عارياتٍ، وتعلم استمتاعَه أكثر بمراقبة (ناردين) وهي تصنعُ أيَّ شيءٍ!

كما أنها تعلمُ مدى تعلُّق (خرير) بِهِ!



11

في صغره، كان (راهب) صبيًا عاديًا يحبُ العُزلة إلى حَدٍّ ما، لكنه لم يُبدِ خبَلًا ولا حُمقًا في أي شيء..

ثم وقعت الطامَّةُ الكُبرى في المصحة، عندما وافقت (باسينت) أخيرًا على مطلب (أزوريت) باصطحابه معها للسينما كي يشاهد فيلم خيال علمي يتحدَّثُ عن غزو أهل الفضاء لسكان الأرض بأطباقهم الطائرة العملاقة..

كانت المؤثِّراتُ مُقنعةً، مقنعة زيادة عن اللازم، فاختلط الواقع بالخيال في عقل الفتى، حتى إنه ردَّدَ عندما خرج من دار العرض:

- إنهم يصولون ويجولون بيننا ونحن صمٌّ بُكمٌ!



ثم ابتدأت اللعنة.. صار (راهب) صاحب فكر بعيد كل البُعد عن الواقع، حلم بكائنات ذات جماجم كالبطيخ وعيون وثغور مشقوقة طُوليًا كالعفاريت، مُتباينة اللون ما بين الأزرق والأخضر، أجسامها رفيعة، وتمتلك ثلاثة أصابع طويلة في كل يد وقدم!

ثم واصَلَ سخافاته مُدعيًا أنه أبصر طبقًا طائرًا فوق سطح المصحة، فضحك (بلجة) منه قائلًا باستهزاء:

- إنه لا يُفرِّقُ بين الطبق الطائر وطبق "الدش"!

ويقصد "الدش" الكائن فوق سطح غرفة الحارس (هدهد)!

لكنه أصرَّ على أن الطبق الذي رآه بعرض ملعب كرة قدم، وبأنه مصنوع من الفضة الخالصة، ولمَّا سخروا منه وسألوه عن كُنه الكائن الفضائي الذي يعرف الفضة، أجابهم بإصرار أن الفضة ليس معدنًا أرضيًا..

اعتكف في غرفته مُطالعًا الكتب المُستعارة من (حلزون) ، والتي تتحدث عن الاجتياح الفضائي، قرأ كُتبًا عن التسلح الأمريكي بصفته الأكثر تطورًا، وعندما فرغ من مطالعة كُتبه وَقَفَ مُتمتمًا في قلق:

- لا يكفي! لا يكفي!

صَدَّقَ كل الأقاويل عن روزويل، وصدق كل الإشاعات المُتردِّدة حول حقول الذرة ذات الإشارات المتروكة من سكان العالم الخارجي.. باختصار، صَدَّقَ كل ما يمتُّ بصلة للعوالم الخارجية..



يظن (راهب) أن المخلوقات المسالمة تحاول تحذيرهم من تلك الطاغية التي أرسلت منذ أعوام مديدة كشَّافتها لرؤية ما إذا كانت الأرض تصلح للغزو أم لا، ويعتقدُ أن مُدَّة الكشافة قد انتهت..

- "ولم يتبقَّ إلا موافقة مجلس المخلوقات البلدي على عمليةِ الغزو!"

بالطبع لم يكبح (حلزون) جماحَ سخريتِه واستنكاره بآنٍ واحدٍ عندما زاره (راهب) طالبًا المشورة، ومُرجعًا إليه بعض الكتب التي استعارها..

وجد أن المناقشات العلمية لن تُنقذَ الأرض، فعمد إلى تصميم خُوذةٍ ذات مصباح وراديو، وحمل التخطيط إلى (صفير) الذي يُتقنُ صناعة اللعب والدُّمى الميكانيكية وتفكيكها وإصلاحها، طالبًا منه أن يصنعَ له واحدةً..

قام (صفير) بالمُهمة على أكملِ وَجْه، فصار (راهب) يَخرجُ في جَولاتٍ لَيلية ومعه كشافٌ باحثًا عن أثرِ تشويشٍ في الراديو المفتوح والمُعلقِ فوق خوذته، لأنها إشاراتٌ تبثُّها الكائنات إذا كانت قريبةً، وكلما وقعَ تشويشُ في المحطة، زادَ توتُّرُه وانفعالُه..

وظَلَّ على عادته البلهاء زمنًا، حتى عاودَ زيارة (صفير) حاملًا تصميمًا أعقد لجهازٍ أغربَ، وبثقةٍ لا مُتناهيةٍ قال له:



- هذه المرة سأؤمن لكم جميعًا الحماية بسلاحي هذا!

- هذه الخُردة قد تستغرقُ مني وقتًا وأنا مشغول هذه الأيام..

- العالَمُ لن ينتظرَ!

- سينتظرُ، ثِقْ بي!

ولما فرغ (صفير) من السلاح، باشر (راهب) وبهمة جَولاته مُتسلحًا بخوذته والمذياع والكشاف، وجهازٍ مُضحكٍ يُشابِهُ المِكنسةَ الكهربائية!

حدث ذات مرةٍ أن شَكَّ بتبريس على أنها كائن فضائي، ولم يكن الأحمق يفرق بين فضائي وجني، وابتدع نظرية سخيفة بأن الجانَّ ما هم إلا مَخلوقاتٌ فضائيةٌ شِريرةٌ تُمهِّدُ لغزو الأرض، وبأن كل المخرجين العباقرة الذين صنعوا أفلامًا مُروِّعةً عن غُزاة الفضاء ما هم إلا رُسُلُ التحذيرِ من الدمار الذي سيحلُّ بالأرض إذا ما وقف البَشرُ مكتوفي الأيدي..

كانت (تبريس) تتجوَّلُ بتمائمها، و(زغدة) هربًا من بُعبعها، و(راهب) بحثًا عن غُزاة الأرض..

تقول (وجيهة) باستنكارٍ ساخط:

- صارت مَمراتُ المصحة عَجبًا عُجابًا! كل من هبَّ ودَبَّ يسرحُ فيها ويَمرحُ، وكأننا في مصحةٍ للمجانين لا للمُدمنين!



كانت على حَقٍّ، فالأمر بات غير مُحتمَلٍ، لكن (أزوريت) لم تبالِ كثيرًا بما يقع، و(باسينت) اعتبرت ما يقعُ من الطرائف، كما أنها مشغولة! المرضى أخذوا راحتهم تمامًا في كل الأمور التي لم يجرؤوا على صُنعها في بدايات قُدومهم هنا!

وفي ليلةِ ذاتِ بَدْرٍ مُكتملٍ، خرجَ (راهب) باحثًا عن الغُزاة، فأبصَرَ واحدًا منهم خارجًا من غُرفةِ (صفير) صانعِ اللُّعبِ ليتمشّى في المَمرِّ!

كان الغازي قويَّ البنيةِ، مَمشوقَ القَدِّ، وقد ارتدى سُترةً جلديةً سوداءَ فَوقَ قَميصٍ كُحليٍّ، وبنطالَ "جينز" رَماديًّا!

ولأنه يشاركُ (هدهد) الحارس غرفةَ نومِه باختياره وبتشجيعٍ من (باسينت) شخصيًّا لأسبابٍ مَجهولة، راقَبَ ذلك الكائنَ المُقنَّعَ بغشاءٍ بَشَريٍّ وسيمٍ وبنيةٍ أرضيةٍ مَاكرةٍ، فوجد يده اليُمنى كفًّا مَسخيةً زرقاءَ ذاتَ مَخالبَ سوداءَ مُروِّعة!

حَمَلَ في اليدِ الأخرى ثَمَرَةَ قَرْعٍ، فتفكَّرَ (راهب) مَليًّا، لا بُدَّ أن لثمار القرع قوةً ما، مَصْدَرَ طاقةٍ مَثلًا!

تتبَّعَ الكائنَ – الذي ظهر على حقيقتِه– حتى توقَّفَ عندما ولج ذلك الكائن المزعوم المكتبة..

ثم عاد (راهب) إلى غُرفتِه وهو يرتجف فَرَقًا.. إن (شاهر) هو حتمًا كائنٌ فضائيٌّ مُدمِّرٌ.. تلك حقيقة لا مَجالَ لدَحْضِها!



12

- "سيقتُلني البُعبع! سيقتُلني!"

يستيقظ الجميع، ويخرجون من غُرفهم وآثار النعاس في حَدقات أعينهم، والتثاؤبُ يملأ أفواههم.. وتُهرع مدام (باسينت) لرؤيةِ ما هنالك، فيقع بصرها على (زغدة) تنشجُ صارخةً وفرائصها ترتعدُ:

- الغول! الغول!

تصدرُ أكثر الأصوات ساخرة وأحيانًا مرعبة كي يزيدوا من هَلعِها، في حين يشتمُها البعضُ مطالبين (باسينت) بنقلِها إلى قبوٍ إن وجد كي يتمكنوا من النّومِ بسلامٍ..

بدت السيطرةُ على البنت الرعديدة شِبْهَ مستحيلة، فاضطرت (باسينت) لأخذِها كي تنامَ في غُرفتِها..



- "إلى غرفة ماما!"

يصيح (بلجة) ساخرًا، لكن (زغدة) تهدأ أخيرًا لأنها مُتيقنةٌ من أن الوحيدة التي بإمكانها قَهْرُ وحوش كوابيسها هي مدام (باسينت) حتمًا!

ولكن، مَنْ يقهر الوحوش عندما تصيرُ وحيدةً مُجدَّدًا؟

الحق يقال إن (باسينت) قدْ تمادتْ قليلًا في أمر (زغدة) لاحقًا، فقد اختارت لها غُرفةً بعيدةً كل البُعدِ عن غُرفتها كي لا تزعجَها بصياحِها المُستمرِّ كُلَّ ليلةٍ..

ثم صارت تتساءل: أثمة غرفةٌ عازلةٌ للصوت؟ عندما أخبرتها (وجيهة) أن تلك الغرفة موجودةٌ حقًا، نُقلَت الفتاةُ المسكينةُ إليها!

قد يكون قرارًا سليمًا وقد لا يكون، المهم أنه أراح الجميع وزاد من عذاب (زغدة) البائسة، فصارت تركضُ خارجة من الغرفة كل ليلة لتنضمَّ إلى ركب المخبولين الذين يجوبون ممرات المصحة بدُماهم الميكانيكية، وتمائمهم السِّحرية، وأسلحتهم غير الفعالة ضد الكائنات الفضائية!

كانت تجربة الحب الوحيدة في حياتها – إذا ما كانت كذلك– قد جاءتها من طرفٍ واحدٍ، فقد تعلّق (ثؤلول) بها، كانت فتاةً ذات قوام شبْهِ ناضجٍ رغم الهُزال الملحوظ في وجنتيها، ذات شعر تعْقدُه على

شكل ضَفيرة ظريفة دومًا، لها نمشٌ خفيفٌ جذّابٌ على أرنبة أنفها، وهي نظيفةٌ على الدَّوام، تستحمُّ ثلاثَ أو أربعَ مرات يوميًا، وفي أيام تظلُّ مُستلقيةً ساعات طُوال في بانيو مليء بالماء الساخن، فكانت رائحتها تخلبُ الألبابَ طَوال الوقت..

كان حُبًا من طرفٍ واحدٍ بكل تأكيد، فالفتى بشع بثآليه القابلة للتقيُّح في أية لحظة، كما أنه غدا كبُعبعٍ آخر من تلك التي ملأت كوابيسها، وعندما يدنو منها مُحاولًا التودُّدَ لها تُسارِعُ بالهروب نافرةً منه وهي تهتفُ مُرتجفةً:

- كأنّ كوابيس النهار تنقضي أيضًا!

كا ت تلك كقنبلة رمتها على فؤاد الفتى، لكنها لم تكترث بتاتًا لما فعلته، إلى أن سمعت بأنه قد مَزّقَ ثآليله كلها بسكين، فتملَّكها نَدَمٌ عميقٌ، وبكتْهُ مُدّةً لا بأس بها قُبيلُ تناسيها لما حَصَلَ..

كان البعبع الذي تراه ماردًا بشعًا مُسودًّا مُكتنزَ العضلات، تراه دائمًا واقفًا أمامها في الظلام الدامس دون أن يصنعَ شيئًا، وعندما تبصرُ في عينيه الضيقتين بريقًا كبريق القطط في الظلام تباشرُ الصُّراخ المَذعور وتُهرع خارجًا.. وذات ليلة، خرجت صارخة، فرأت (تبريس) قريبة من بابها، استنجدت بها، لكن الفتاة المخبولة يمّمتْ وَجهَها للشطر الآخر، وسارت مرددة بهمس:

- لا أريد إثارة حفيظة واحدٍ من الأسياد! الأسياد أنقذوني من الإدمان، وهكذا أردُّ لهم الجميل؟!



فاشتدَّ رُعبُها لسماع ذلك، ونامت تلك الليلة على الأريكة في اللوبي السفلي العتيق، وعند استيقاظها خَفَّتْ إلى غرفة (تبريس) وطلبت الإذن بالدخول، فأذنَتْ لها..

ولَمّا جالستها انخرطت بالبكاء الحارّ، فرفعَتْ (تبريس) يَدَها بصرامةٍ هامسةً بلهجةٍ قاسيةٍ:

- لا بكاء عندي.. تريدين الخلاص؟ اقبلي بالسيد العظيم زوجًا لك!

- أتزوجُ غُولًا؟!

- أفضلُ من عذابِك.. ثم إنه لن يدعكِ لغيرِه.. أنسيتِ ما حدثَ للمسكين (ثؤلول)؟

- أهو من تسبَّبَ في..

قاطعتْها مُستهينةً:

- أنتِ غِرَّةٌ ساذَجةٌ لا تفكرين في صالحِك! أتعلمين ما يعنيه زواجُكِ بأحد أسياد العالم السفلي؟ الدنيا كلها ستخضعُ لك عند قدميكِ! وافقي يا بلهاء، ولا تُفوِّتي فُرصةَ العُمرِ!

- لا!!

وتركُضُ هاربةً كأن الشيطان في أعقابها، حيثُ تختبئ في غُرفتها وهي لا تكاد تتوقف عن الارتعاد، حتى لتكاد تقضي نحبها بالسكتة القلبية!

وفي النهاية لم تحتمل أكثر من ذلك..

دخلت الحمام، وملأت البانيو بالماء، ثم تجردت من ثيابها وغطست داخله محاولة إغراق نفسها!

بالطبع فَشلَت المُحاولةُ، وخرجت من الماء وهي تشهق بذُعرٍ، فقد بدا لها الانتحارُ رُعبًا ما بعده رُعب..

ارتدت ثيابها، وخرجت هائمةً على وجهها، ومن الغرفة، ومن المصحة.. سارت بغير هُدًى على العُشب الأخضر والرياح تؤرجحُ ضفيرتها..

- "ما بالُك؟"

تلفتت شاردة الذهن، فوقعَ بصرها على (شاهر) المُبتسم بدهشة..

كانت قد داست على ساقه بغير قصدٍ، فأخفت ثغرَها بكفيها هامسةً:

- آسفة!

- لا عليكِ.. إلى أين؟ أول مرة أراكِ بها تخرجين.. خيرًا؟

- لا شيء، أُحاوِلُ فقط تناسي تعاستي..



ثم واصلت طريقها والفتى يُطاردُها بعينين تقولان الكثير..

وفي تلك الليلة، بينما كانت تمشّطُ شعرها أمام المرآة استعدادًا لتضفيره، سَمِعَت طرقًا على الباب.. نهضت وفتحتْهُ لتجدَ على عَتبته (شاهر) واقفًا وبيده مصحفٌ صغيرٌ..

- "أتسمحينَ لي بالدخول؟"

- "تفضّل.."

دخل متأمّلًا الغرفة قبل أن يقولُ باسمًا:

- غرفةٌ ذاتُ ذوقٍ جميلٍ..

- شكرًا..

- أتسمحين لي بقضاء الليلة هنا؟

حدقت به صامتةً، فهي تدرك أنه من طراز نبيل لا يسعى للمواضيع المنحرفة، كما أنها بحاجة للرُّفقةِ هذه الأيام..

- "بكل تأكيد!"

جلسَ أرضًا مُولّيًا ظهره للجدارِ، وبابتسامةٍ لطيفةٍ غمغمَ:

- تصرفي وكأني غير موجودٍ معك..

- هذا صعبٌ نوعًا، لكنني سأحاولُ..

هكذا رَقَدَتْ في سريرها ليثرثرا قليلًا، وقد فاجأها بسرد بالغِ الطُّرافة، حيث حكى لها عن فتى عرفه عندما كان يذهبُ للسُّوق، كان يَهْوَى النَّشْلَ، لكنه تاب عندما أمسكت به الشرطة وصنعت معه ما يلزمُ، فانقلب إنسانًا مُستقيمًا، وصار يبيع السمك على قارعة الطريق.. لكنه ذات مرة استعاد نشاطه الأولي عندما زاره شرطي من الذين أدَّبوه، وعندما غادر الرجل السوق كانت محفظته قد صارت في جيب الفتى المُنتقم..

جعلتها تلك الحكاية تبتسم بسمةَ مُجاملة، فحكى لها حكايات أخرى زادت من بسمتها، ثم صارت تضحكُ، فتبسَّم قائلًا:

- ضحكتكِ جميلة، لا أذكر أن رأيْتُكِ مرةً تضحكين!

تورَّدَ وجهُها لكلامه، فوارته بالمُلاءة متمتمةً:

- تصبحُ على خير!

نامت تاركةً إياه يفتح المصحف ويبدأ بالتِّلاوة..

لم ينم (شاهر) ألبتة في تلك الليلة، ظَلَّ جالسًا بذات الوضعية يتلو سورًا من القرآن الكريم حتى مطلع الفجر..

وعندما تسلل خيطٌ من النور إلى غرفة (زغدة)، نهض مُتثاقلًا وخرجَ بخطًى حَذِرَة مكتومة، تاركًا إياها تنعمُ للمرة الأولى في حياتِها بنومٍ عميقٍ لذيذ، دونما غُولٍ أو بُعبعٍ..

13

السُّرعوب هو ابن عرس إذا ما كنتم تتساءلون!

وسرعوبنا لا يملك طباع هذا الحيوان الذي قد تجدُه مُتسلِّلًا لداخل قُنِّ الدجاج كالثعالب، لكنه يزعم بعلمه لُغته، كما يزعم بعلمه لُغة الحيوانات الأخرى!

لذا تراه جالسًا القرفصاء بالساعات أمام مستعمرةٍ للنَّملِ، أو مُلتصقًا بالجدار حيثُ يُخاطِبُ برصًا مُلتصقًا هنالك!

أحيانًا يُجالِسُ القططَ الضالة والكلاب المُشردة، والعجيب حقًّا بالأمر أن الحيوانات التي كان يجالِسُها لم يحدث أن نفرَتْ منه أو حاولت الهَرَبَ!

فهل يتقن (سرعوب) منطق الحيوان كما كان سيدنا (سليمان) عليه السلام؟



فضّل (سرعوب) معاشرة الحيوانات على البشر، فهي - بحسب مزاعمه- كائنات صادقةٌ، تقولُ الذي بخاطرها ولا تعرفُ النّفاقَ أو الرياء أبدًا!

لكنه في مرةٍ من المرات ناقَضَ ذلك القول، وسيأتي ذِكْرُ ذلك فيما بعد..

المهمُّ أنه قَضى غالبَ الأوقات في الإسطبل، حيثُ عَقَدَ صَداقةً مَتينةً مع "عداء الصحراء" حصان (جروح) الأثير..

كانت علاقته بشاهر طيبةً لأن الحصان "أخبره" أن ذلك الفتى نَقيُّ السريرة، لا يعرف الإيذاء، على عكس الأمير الجميل الذي يُعشّشُ الأذى بين أركان نفسيته المُعقدة!

كما أنه اعترف ذات مرة بتعلقه الشديد بالفتاة (جروح)، فقال له:

- ألقم فمي بعض السكاكر وسأطلعُك على سِرٍّ..

فنفذ (سرعوب) مَطلبه..

قَضَمَ العداء مُربَّعَ السُّكر قُبيلَ استرساله:

- الفتاة لطيفة جدًا، ولو كنتُ بشرًا لأحببتُها كما أحبُّ فرسًا أصيلة ذات قوائمٍ رشيقةٍ!

ضحك (سرعوب) قائلًا باندهاشٍ:



- تحبُّ بشريةً؟ كم أنت غرٌّ ساذجٌ يا صديقي!

البشر مخلوقات كاذبة مُنافقةٌ، وعالمكم يبعُدُ كل البعد عن عالمنا المُبتذَل المملوء مؤامرات وترهات وإدمان و..

- حسبُك.. فإن عالم الحيوان ليس بغريبٍ عن عالم بني البشر!

- ماذا تقولُ؟

- سأحكي لك حكاية عن عالمنا..حكايةً حقيقيةً..وأنتَ ستكونُ الحَكَمَ.. اتفقنا؟

- اتفقنا..

- قيل لنا عبر حكاوي الأجداد المتناقلة، إن الغابة عاشت دهرًا من الرخاء بعد ابتعاد الإنسان عنها فترةً من الزمن..

ولطالما اعتبرت الحيوانات الإنسان أكبر مشكلة تُصادفُ الغابة، فهو يَقْطَعُ الأشجار، ويرمي بالنُّفايات، ويلوِّثُ النهر، ويقتُلُ من أجل اللحم والفراء والدهن والزيت.. إلخ، مما جعل حياة الحيوانات جحيمًا لا يمكن احتماله..

وأخيرًا، كفَّ الإنسان عن ولوج الغابة فترةً من الزمن، عَقِبَ ظُهورِ كل تلك القوانين التي تحمي الحيوانَ والشَّجرَ من الانقراضِ، فسَعِدَت الحيوانات بنَيلِ حُريتِها واستقلالها أخيرًا، وأُقيمَ احتفالٌ صاخبٌ رَقَصَتْ فيه الأرانب إلى جانب الثعالِب!

ثم أُعلنت نتائج الانتخابات في الحفل نفسه، فالحيوانات لا تُضيِّعُ الوقت كما تصنعون أنتم معشر البشر، لكن أمرًا مُشابهًا لما يحدث معكم قد حصل معهم، فقد فاز الأسد بانتخابات سيادةِ الغابة كالعادة بنسبة 99,9% !

هلّلت الحيوانات جميعُها ما عدا حيوانًا واحدًا.. التمساح!

أعلنها صراحةً، أمام الحيوانات والطيور والحشرات والأسد نفسِه، دون خشيةٍ من أحدٍ، فقالَ بغضبٍ:

- هذا ليس عدلًا!

تبادَلَت الحيواناتُ نظراتِ الاندهاش، وزأرَ الأسدُ مُتسائلًا بغضبٍ:

- ماذا تقصدُ؟

- أنت تفهم مَقصدي جيدًا، في كل مرةٍ لَعينةٍ نُجري بها انتخاباتٍ تفوزُ أنتَ بنسبةٍ غيرِ مَعقولة!

- وماذا في ذلك؟

- ماذا في ذلك؟ إنك مَلكُ الغابة مُذْ رسا فُلْكُ سيدنا (نوح) عقب الطوفان الأعظم، ولا أظنُّ أن جدودك قد أخذوا المُبايعة من جدودنا على السمع والطاعة وهم داخله وسط الأمواج المُتلاطمة!

- صُنْ لِسانَك وإلا اجتثثتُه منْ حَلْقكَ!



- صِرتُم مثل أولاد آدم، تنهبونَ الحُكم وتأمرونَنا بالصَّمت!

زأر الأسدُ بهيجان، فأسرع الفيل يقول مُحاولًا تهدئة النفوس:

- أرجو ألا يتفاقَمَ الوضعُ أكثر يا إخوان، فنحن أمةٌ مُتكاتفةٌ داخل هذه الغاب رغم الصراعات وكل شيء، لكن فكرة التصارع على السلطة وحدها تُثيرُ الفَزَعَ، لنحاول تجنُّبَ ذلك ولنستمر..

- نستمرُّ في ماذا؟ في الهُراء الذي امتدَّ عشرات السنين؟ كان الأسد وما زال مَلكَ الغابة، فماذا صنع للغابة غير التمطِّي والتَّثاؤُب؟ إن اللبؤات الأربع اللواتي تزوجهُنَّ هُنَّ من يأتين له بالفَرائس حبًّا بالله!

عاوَدَ الأسدُ الزئير المُفزع صائحًا بثورة:

- قد تماديتَ أكثرَ من اللازمِ أيها الزاحفُ الحقير، اسْحَبْ ما قُلْتَهُ حالًا وإلا أمرتُهُم بتعليقِكَ من ذيلك حتى يجدَكَ صائدو التماسيح!

قَهْقَهَ التمساحُ قائلًا باستهزاء:

- هل سمعتُمْ ذلك؟ لقد عَقدَ ملك الغابة المُبجَّلُ اتفاقيات من وراء ظهورنا، ومع مَنْ؟ مع صائدي التماسيح من البَشَرِ!

انطلقت همهماتٌ غاضبةٌ من جانب التماسيح، فمَدَّ القِرْدُ فَمَه المطوط في أذن الأسد هامسًا داخله:

- ما كان عليك الإدلاء بتصريح خطير كهذا التصريح أمامهم يا مولاي!

- إليك عني يا وَجْهَ القِرد! أنا مَلِكُ الغابة! أقولُ ما أشاءُ وفي الوقتِ الذي أريدُه!

هَتَفَ التمساحُ بانتصارٍ:

- حتى كلامه صار ككلام البشر! لقد نادى القِرْدَ بوجْهِ القِردِ! لم يَبْقَ إلا أن يُنادي الكلبَ بابن الكلب!

اربدَّ وجهُ الأسد، فشهر مخالبَه وكشف عن أنيابه قائلًا بوحشية:

- أنت تدنو من نهايتك كثيرًا جدًّا يا صاحب الحراشف الصَّدئة!

- أترون ما أعنيه؟

- قَدْ بَلَغَ السَّيلُ الزُّبى!

- والآن صار يستشهد بشعرِ البَشَرِ!

لكن الأسد بَقِيَ يُهدِّدُ بالكلام دون أن يهجم أو يصنع شيئًا، وأخيرًا، لاحظ التمساح ذلك، فضَحِكَ بسخريةٍ شَديدةٍ هاتفًا:

- انظروا! إنه يُهدِّدُني تهديداتٍ جوفاءَ دون أن يُحرِّكَ ساكنًا! أتدرون لماذا؟ لأنه لا يستطيعُ هزيمةَ كائنٍ قويِّ الفَكِّ والحراشف مثلي!



هَلَّلت جُموع التماسيح لهذا، فاحتدَّ النمرُ ومعه الفهدُ والضَّبعُ وحتى الذئبُ – وقد كانوا يعتبرون أنفسهم حُراسَ الغابة وجُندَها البواسل، وعوى الذئب قائلًا:

- أشتمُّ رائحة تمرُّد!

زأر النمر مصححًا:

- بل هي رائحة الخِيانة!

وواصلَ التَّمساحُ مُحاولاتِه السِّلمية مع الفيل، لكن دونما جدوى..

وفي النهاية، رحل التمساح مع عَشيرتِه إلى النهر، تاركًا الاحتفال خلفَ ظهره مكررًا بصرامةٍ:

- الأيام بيننا يا سيدَ الغابةِ المزعومَ!

ولم يجرؤ صِنفُ حيوان على التَّصدي له..

أيام مرت عانت الحيوانات خلالها الأمَرَّيْنِ..

فقد أعلنت التماسيحُ تَمرُّدَها، واحتلت النهر الذي كان مصدر الماء الوحيد في الغابة، فلم يجرؤ حيوان على الدُّنوِّ من حافته للشرب أو الاغتسال، حتى أفراس النهر صارت تعيشُ خارجَه!

أما عن الشُّجعان الذين حاولوا القتال، فقد راحوا ضحيةَ فكوك التماسيح!

وقد عقدَ الأسد مؤتمر غابةٍ طارئًا، حضرتْهُ الحيواناتُ كافةً، وبالطبع كان الفيل حاضرًا بصفتِه مستشارًا والقرد بصفتِه سفيرًا..

أظهرت الحيوانات استياءها لما حَدَثَ، وتمت دراسة حالات الجفاف والجرب التي أصابت صغارها نتيجة لقلَّةِ الاغتسال والشُّرب، وفي النهاية أعلن الأسد بيأسٍ عن استعداده للتفاوض مع التماسيح، فقد كانوا يلعبون اللُّعبةَ في ملعبهم، والاقتراب منهم دون الهلاك أمر مُستحيلٌ تقريبًا..

تمَّت الموافقةُ بالإجماع على هذا القرار، وكالعادة انتُدبَ الثعلبُ لحمل رسالة الملك إلى التماسيح، فهو يمتازُ بالفِطنة والذَّكاءِ والمَكْرِ كما نعلمُ جميعًا..

إلا أن مفاجأةً سيئةً وقاسيةً نوعًا كانت بانتظارِه حين بَلَغَ حافَّةَ النهر حاملًا رسالة إمكانية التفاوُضِ، فقد خَرَجَ له زعيمُ التماسيح المُتمرِّدُ بلحمِه وحراشفِه وأنيابه! وقبل أن ينطق الثعلب بكلمةٍ واحدةٍ تلقَّفَه الزعيم بين فكيه والتهمَهُ!

ولَمّا بَلَغَ الخبرُ مَلكَ الغابةِ، زأر حتى كلَّت حنجرته، وبنبرةٍ كالهدير صَرَخَ:



- هي الحربُ إذن!

نَفَقَتْ حيواناتٌ كثيرة، ولولا معونات الماء من الغابةِ المُجاورة لهلكتْ حيواناتُ الغابةِ جميعُها!

وفي النهاية، استدعى الأسد القِرْدَ، فذهب القردُ إليه مُستبشرًا، إذ ظَنَّ بأنه سيتنازل أخيرًا عن المُلك للتماسيح عملًا بنصيحته..

لكن الأسد قال بخشونةٍ وغِلظةٍ للقرد عندما قابَلَهُ:

- اسمعْ، أُمهِلُك ثلاثة أيامٍ لإبرامِ صفقةٍ مع التماسيح الأوباش.. فإما أن تجدَ طَرِيقةً للتفاوُضِ كي تُنهيَ هذه الحربَ الشَّعواءَ أو ألْتهِمَك حتى العَظْمِ والنُّخاعِ!

وتثاءب معلنا نهاية الاجتماع!

سار القردُ حزينًا كاسفَ البال على غير عادته..

حيَّتْهُ حيواناتٌ عديدةٌ ولم يردَّ التحية أو يُلْقِ دُعاباته المُسلية ككلِّ يومٍ، فقد ابتدأ العدُّ التنازلي لانتهاء حياته في هذه الغابة..

كيف يمكن له إبرام اتفاقية صُلحٍ مع التماسيح؟ لقد هَلَكَ الثعلبُ مَبعوثُ الأسد الرسميُّ قبل أن يعرض الاتفاقية، فكيف يصنعون إذا ما اقترب منهم عارضًا الصُّلحَ؟ يا لها من مُصيبة!

وبينما هو سائرٌ يفكِّرُ في حَلٍّ لتلك المُعضلةِ، سَمِعَ صوتَ نَعيقٍ خَشِنٍ يقولُ:



- "ما أجملَ قطعةَ الفضةِ التي تخصُّني!"

نَظَرَ القرد إلى أعلى قبل إظهاره التأفُّف والسُّخط، فقد كان ذلك العَقْعَقُ – والعقعق لمن يجهله هو غراب أبقع طويل الذيل–، أكثر الطيور نبذًا وكذبًا ولُصوصيةً!

كان مُتشبثًا بقطعةٍ بارزةٍ تبرُقُ بمنقارِه، فقال القرد لنفسِه:

- على الأرجح قد قام بسرقتِها من طِفلٍ تَعِسِ الحَظّ!

فما إن قال تلك الكلمات حتى برقت عيناه بشدة..

لماذا لا يستعين بالعقعق للتفاوُض؟ لقد جرب الرسميات ولم تُفِدْهُ بشيءٍ حتى الآن، فلماذا لا يعمل بصورةٍ غيرِ رَسمية؟

والعقعق لصٌّ وكذابٌ ونَذيرُ شُؤْمٍ أيضًا، فلماذا لا يُرسِلُه إلى التماسيح؟ عَلَّه ينجح في مُهمَّته بعد فَشَلِ مُحاولات الصُّلحِ الرسمية ذاتِ الإجراءاتِ المُعتادة!

نادى القرد بأعلى صوتِه مُخاطبًا العقعق:

- يا عقعقُ، انزل قليلًا لأُحادثَك في أمْرٍ يهمُّنا جميعًا..

- أنا لا يهمُّني أحدٌ، لا يهمُّني سوى نفسي!

إنه أناني أيضًا! لكن لا بأسَ..



كان الجميع على علمٍ بمدى هُيام العقعق بقطع الزُّجاجِ والخرز والفضة بالأخصّ، فقال القرد بخُبْث:

- لا بأسَ، يبدو أن قطعةَ الفضة التي بحوزتي لن تكون من نصيب أحدٍ غيري!

فما إن سَمِعَ العقعقُ لفظةَ "فضة" حتى هَبَطَ من فوق الشجرة لأسفلَ بسرعةٍ صائحًا:

- أقلتَ قطعةَ فضةٍ؟

- أجل، ولا أظنُّك تحاول الحصول عليها بغيرِ مُقابلٍ..

- ما الذي تُريدُه مُقابلَها؟

- إنني أشكّلُ وفدًا لإرساله إلى التماسيح!

- وما حكاية التماسيح أيضًا؟

- ألا تتابع أخبار الغابة أيها الأحمقُ؟

- لا شأنَ لي بالسياسة!

شَرَحَ له القردُ الأمر جُملةً وتفْصيلًا، فقال العقعق بعد أن أخذَ وقته في التفكير:

- تبدو لي مُشكلةً عويصةً..

- هي كذلك..



- ومُقابلُ الانضمام للوفد أُريدُ على الأقل عشر قِطعِ فِضية!

- لكنَّ هذا كثير!

- وقطعةً من مِرآة وبعض الخرز أيضًا..

- ماذا عن مَصلحةِ الغابة؟ ماذا عن الواجبِ الوطني؟

- مَصلحتي تفوقُ كُلَّ مَصلحة!

- لا بأسَ أيُّها الطَّمَّاعُ، لَكَ ما أردْتَ!

ثم قال لنفسه بنبرةٍ خَفيضةٍ وهو يُجدُّ السَّيرَ والعقعق يُحلِّقُ فوقه:

- الطَّمَّاعُ التَّعِسُ! إنه لا يعلم أنه وَفْدٌ سائرٌ إلى حَتْفِه!

مَرَّا أثناء رحلتهما بالمُستنقع، فسمعَا صوتَ نَقيقٍ يُثيرُ الغَثيانَ..

همسَ القرد لنفسه متمتِمًا بازدراء:

- هذا صوتُ العلجوم!

والعُلجوم – لمن يجهله– هو ذَكَرُ الضِّفدع، وقد كان العلجوم في حكايتنا هذه جالسا على صخرةٍ متوسطة الحجم، وقد التفَّ حولَه عددٌ من صغار الضفادع، ينصتون لحكاياتِه التي تدور بأسرِها عن الشعوذةِ والساحراتِ الشِّريرات..

قال للصِّغارِ بصوته المُتحشرج:



- في الماضي الجميل كانت الحكايات أغلبُها تدورُ عن الضفادع، مثل حكاية الأميرة والضِّفدع المسحور، والضفدع الذي احتمل عقربًا على ظهره لعبورِ النَّهرِ..

وقد كان لجدِّي العلجوم الأكبر شرفُ الجلوس على الكتف الأيسر لإحدى الساحرات التي أُحرقت على عمودٍ بتهمةِ مُمارسة السحر! كما أن العفاريت تفضل دومًا التحوُّل إلى علجوم!

قال العقعق باستهانةٍ للقرد:

- أرى أن نُواصِلَ طريقنا بدلًا من إضاعة الوقت في الاستماع لخُرافات هذا المخرف!

لكن القرد رأى غير ذلك، فلا ضَيرَ من أن ينضمَّ للوفد حيوان يؤمنُ بالسحر والخُرافة، فلربما ثمة فائدة من ذلك، ولكن كيف السَّبيلُ إلى إقناعه؟

حيَّا القردُ العلجومَ، وبعد عرض المسألة عليه ردَّ العلجوم وحنكُه ينتفخ :

- إذا أردتَ انضمامي للوفد فهنالك شرطان لحُدوثِ ذلك..

- ألا وهما؟

- الأول أن أصير أنا مُستشار ملك الغابة وليس الفيل!

- والثاني؟



- أن يخرج هذا العقعق من الوفد حالًا!

احتدَّ العقعقُ صائحًا:

- وما شأنُك بي يا صاحب الحنك المُنتفخ كأنه وَرَمٌ؟

هَتَفَ العلجوم بغضب:

- لي كل الشأن، فأنتَ وأمثالُك تسيئون لأمجادنا مع السحرة حين تدَّعون أنكم من رافَقَهم في طُقوسِهم واحتفالاتِهم، أو عندما تزعمون أن العفاريت لا تتشكّل إلا على طلّتِكُم البهية!

- لأنها الحقيقة!

- بل إن كل ذلك مجرد كذبٍ وتزييفٍ للتاريخ!

- كُفَّ أنتَ عن تزييفه بترهاتك!

هتفَ القردُ مُتدخِّلًا بينهما:

- كَفَى! حَالُ الغابةِ هو ما يهمُّني الآن لا الصراعات الجانبية الشخصية.. أيها العلجوم، إنني أوافق على شرطك الأول!

أراد العلجوم قول شيءٍ ما بحنق، لكنه في النهاية غمغمَ باستسلامٍ:

- وهو كذلك، هلمَّا بنا..

أثناء سير الثلاثة باتجاه النهر، توقَّف العلجوم عن الوثبِ، وبصوتِه اللَّزج المَقيت تساءل حائرًا:



- ماذا لو لم تنجح المُفاوضات؟ أأعود خالي الوفاضِ للمُستنقع؟

كفَّ العقعقُ عندئذ عن الطيران، وبحدةٍ قال للقرد:

- لا يهمُّني نجاحُ الاجتماع أو فَشَلُه، أريد حقي كاملًا!

قال القرد لهما بسُخطٍ:

- لا تقلقا، ولكن أرجو أن تُعيرا جُلَّ اهتمامكما للاجتماع..

ثم قال في نفسه بضيقٍ شديدٍ:

- يا لطمعكما وجشعكما البالغين!

أحسَّ أن وجود لص كاذب ودجال مؤمن بالخرافات لا يكفي لإنجاح هذا الوفد السائر نحو مَصيرٍ لا يعلمُه إلا الله، وبينما كان يُفكِّرُ في ذلك الأمر، تناهَى إلى مسامعه صوتٌ يقولُ بحدةٍ:

- أرجو أن تظهر لهذا الأحمق الصواب من الخطأ يا أبا منْجَل!

تحرَّكَ القردُ إلى مصدر الصوت بين الأشجار، فأبصر أمرًا بدا مُثيرًا للاهتمام..

إذ أبصر ظربانين يقتتلان وبينهما "أبو منجل" يقف بهدوء واتزان – ولمن يجهل أبا منجل، هو طائر مائي طويل القائمتين والمنقار–، وقد تساءل الظربان الأول الذي سَمِعَه القردُ يتحدثُ بدايةً:

- يا أبا منجل، من أكثرنا تهذيبًا ولَباقةً؟ أنا أم صاحبي هذا؟



فتح أبو منجل مِنقارَه الشّبيهَ بالحقنة الشرجية كما لو كان يتثاءبُ، ثم غمغم بتحفظ:

- أنتَ الأكثرُ تهذيبًا، وصاحبُك الأكثرُ لَباقةً..

- وكيف يكون ذلك؟

- عندما جئتماني أقرأتني أنتَ السلامَ وصاحبُك لم يفعلْ، ولمّا عرضت القضية تراجعَ صاحبُك للوراء كي لا تخنقني رائحتُه الكريهةُ، في حين لم تكترث أنتَ لذلك، وهأنت تخنقُني برائحتك الكريهة!

في تلك اللحظة، خرجت بطةٌ بريّةٌ من بين الأعشاب الطويلة مُوَلْوِلَةً:

- يا أبا منجل، صغيري يرفُضُ تعلُّم العومِ في الماء..

- أخبريه أن طعامه ينتظرُه في الماء..

- يريدني أن أصطادَه له بنفسي..

- أرسلي له من يُخبرُه أنكِ قد قَضيتِ بين أنياب ومخالب ثعلب، ثم راقبيه كيف سيتمكّنُ من إعالةِ نفسه بنفسه، وعندئذ أفرحيه بعودتِك!

هَبَطَ من بين الأشجار سنجابٌ مذعورٌ قال بصوت ملهوف:

- ولدي لَسَعَه عَقْرَبٌ سامٌّ، أدركني يا أبا منجل!



- ابحثْ حالًا عن عُشبة "أقونيطن"، ثم امضغها وضعْها مكان اللّسعة، فهي تتشربُ السُّمَّ حتى ولو كان لأفعى!

بدا القرد مُنبهرًا بذلك الطائر الجامع ما بين الفطنة والحكمة والعلم، فقال مُخاطبًا نفسَه:

- هذا هو ما يحتاجُه وفْدُنا البائسُ بالضبط.. بارقةُ أملٍ!

وعندما عَرَضَ القردُ المشكلة على أبي منجل، وافقَ الأخير على الانضمام للوفد دون شروط أو حتى مُقابلٍ!

قبل أن يصل الوفد إلى نهْرِ التماسيح، طلب القرد من الحيوانات الثلاثة المُرافقة له توخي الحذر وعدم الخوض في تفاصيل عَقيمةٍ لا تهمُّ..

قال لهم والتوتُّرُ بادٍ عليه من قِمّةِ رأسه وحتى أخمصي قدميه:

- لا تحاولوا استفزازهم وإلا التهمونا، وتذكروا المهمة المُلْقاة على عواتقنا..

قال العقعق بحدة:

- تذكر أنتَ الفضة وقِطعةَ المرآة والخرز..

أسرع العلجوم يهتفُ:

- لا تنسَ المَنْصبَ الذي وعدتني به، لا أقلَّ من منصب المستشار!



في حين ظَلَّ أبو منجل على صمته ووقارِه، فقال القرد لهما محتدًا:

- ستحصلان على ما تريدانه من طلباتٍ، لكن أرجوكما، ركِّزا في موضوعنا الآن..

وانطلقوا باتجاه النهر، والقردُ يدعو ربه طيلةَ الطريق ألا تُهاجِمَ التماسيحُ الوفدَ وتلتهمَه..

فما إن صاروا على مسافةِ شبْرٍ من ضِفةِ النهر، حتى انشقَّت الأرض عن عشرةِ تماسيح على الأقل أحاطوا بالوفد إحاطةَ السُّوارِ بالمعصَم، وصعق العقعق قبل محاولته الإفلات بالتحليق، لولا أن سارعَ أحد التماسيح بإطباق فكيه على ذَيله!

تبدَّى الذُّعْرُ في وجوه القردِ والعقعق والعلجوم، لكن أبا منجل ظَلَّ على صَمْته ووقارِه كأن الأمر لا يعنيه!

صاحَ القردُ بأعلى صوته:

- نحن وفد من مَلكِ الغابة، وقدْ أتينا لعقد هُدنةٍ يا سادة..

ردَّ عليه أحد التماسيح بغلظة:

- سببٌ كافٍ لالتهامِكم دونما انتظار!

- أرجوكم أن تتمهلوا ولو قليلًا، دعونا نعرضْ ما لدينا على قائدكم العظيم..



ارتفعَ في تلك اللحظة صوتٌ عميقٌ آتٍ من ناحيةِ النهر يقولُ بحدة:

- فليقتربْ وفدُ المَلِكِ المزعوم..

أزاح التماسيح الطريق للوفد، فتقدموا يقودُهم التمساح الممسك بالعقعق كي لا يفلت، وعند حافة الماء كان زعيم التماسيح يريحُ فَكَّه الطويل والعريض على اليابسةِ، في حين بَقِيَ جِسْمُه بأكمَلِه في الماء..

وصاحَ القردُ مُجدَّدًا ما إن أبصر الزعيم المتمرد:

- السلامُ على مَلِكِ التماسيح المُبجل!

- اصْمُتْ أنتَ ودعني أتمعَّنُ في وفدك هذا.. ما شاء الله! عقعق وعلجوم وأبو منجل؟ يا له من وفد!

قال القرد كالمُنْتحِب:

- لم تتركْ لي الخيارَ يا سيدي مُذ التهمتَ الثَّعلبَ مَبعوثَ المَلِكِ الرسمي!

صاح العقعق وهو لا يكف عن محاولات الإفلات اليائسة:

- التهموا المبعوث السابق؟ بأيِّ مُصيبةٍ ورطتَنا عليك ألفُ لَعنة؟!

وانتفخ حَنَكُ العلجوم وهو يقولُ بعصبية:



- لذلك لم يكن السحرة يثقون بالقرود إلا مَذبوحةً في طقوسِهم السحرية!

تأمَّلهم زعيمُ التماسيح بسخريةٍ جمَّة، ثم تمتم باسمًا:

- أسمعني ما لديك أيها الوفد!

- سيدي إن..

- اخرسْ أنتَ أيها القرد الكَريه، أريدُ سَماعَ هذا الوفد لأرى الحكمة من انتقائكم له، ومن الأفضل أن تكون هنالك حكمة ما وإلا التهمتُكم جميعًا!

أنتَ يا طائر الشُؤْمِ والخَراب.. لِمَ انضممتَ لوفد المَلِكِ المزعوم؟

كَفَّ العقعق عن الخفقانِ بجناحيه، وباستسلامٍ قالَ:

- في الواقع يا سيد هذه الغابة إن سبب انضمامي للوفد الماثل أمامك هو لرؤيتك عن كَثب! للاستزادةِ من حكمتِك ولُرؤيةِ ماهيةِ القوة الحقيقية لديكَ!

- وبعدُ؟

- أتوجد أسباب أهم من التي ذكرتُها لَك يا مولاي؟ أرجو أن تقبلني جُنديًا من جُنودك المُخلصين! اعتبرني رَسولَك إلى سائر الحيوانات ريثما تتمُّ بناء مملكتك الجديدة!

- وكم تريدُ مقابلَ انضمامك لنا؟ قطعةَ فِضة؟ خرزًا مُلونًا؟ كم الكمية التي تُناسِبُك؟ تكلَّمْ ولا تخجلْ!



- لا أبغي سوى رِضاك عليَّ يا مولاي!

- كلامٌ جَميلٌ ومُنمَّقٌ!

وتثاءب قبل أن يقول لتابعه:

- التهمْهُ!

وقبل نُطْقِ العقعق بشيء كان قد غاب بين فَكّي التمساح المُمْسِك به!

تبدى الرعب في سحنتي القرد والعلجوم، وبملل قال زعيم التماسيح:

- أكرَهُ المُتملقَ الطامعَ، والأكثر من ذلك كراهيتي العَميقة للكاذبِ الخائن!

ماذا عنك أيها العلجوم؟ أأنتَ كاذبٌ خائنٌ أيضًا؟

عجل العلجوم بالقول مُتلهفًا:

- بل أنا مُثلك يا مولاي، أكرهُ الكاذبَ الخائن، أُقْسِمُ لك!

- لماذا انضممْتَ إذن لهذا الوفد السَّخيف؟

تنفَّسَ العلجومُ بعُمْقٍ حتى بدا حنكُه كالبالون، ومِنْ ثَمَّ أجاب بوجل:

- يا مولاي، أتيتُك لنبوءةٍ ذَكَرَها جدي الأكبر لي!



- وهل كان ساحرًا؟

- تقريبًا! فقد كان الحيوان المُفضل لساحرة، ومكانه الدائم كان على كتفها اليُسرى!

- ونِعمَ الجدُّ! وعمَّ كانت تلك النبوءة المزعومةُ تدورُ؟

- قال لي قبل أن يموت: "إن الأسد لن يدومَ مَلكًا فترةً طويلة، لأن فارسًا أخضر ذا حراشف مَتينة سيتمكّنُ من دَحْرِه، وبذلك سيصيرُ مَلكًا أزليًا للغابة، وفي عَهده ستشهدُ الحيواناتُ رخاءً لم تنلْ مثلَه قط في عَهْدِ الأسد الظالِم الجائر!"

- إذن فقد كان جدُّك الأكبرُ مُنجمًا!

- يمكنُك أن تقولَ ذلك يا مولاي!

- إذن فالتهمُوه!

غابَ العلجوم في فِي أحد التماسيح وهو يُوَلْوِلُ، وقال زعيم التماسيح بتؤدةٍ وهو يتأمّلُ وقفة طائر أبي منجل المُحيرة:

- مع أني أكرهُ الاستشهاد بأقوال البَشرِ كما يصنع الأسد، فإنني أعترف بمدى صدق حكمهم، ومن تلك الحكم أستشهدُ بهذه: "كَذَبَ المنجمونَ ولو صدقوا!"

وأنتَ يا صاحب المنقار المُضحك؟ فيمَ انضمامُك لهذا السِّيرك الطريف؟



بقي أبو منجل على صَمْتِه، فتساءل زعيم التماسيحِ بغِلظة:

- هل أنتَ أخرسُ يا هذا؟

أخيرًا نطق أبو منجل، فقال بهدوئهِ المُثير:

- افتحْ فمَك يا سيدَ التماسيح..

- ماذا قُلتَ؟!

وحدَّجه بنظرةٍ غاضبة وقد بدا كأنه سيأمر أتباعه بالتهامه هو الآخر، لولا أن صمتَ بُرهةً مُفكرًا، ثم قام بتنفيذ مَطلبِ الطائر!

تأمَّل أبو منجل فاهَ التِّمساحِ المفغورَ بعنايةٍ وتدقيقٍ، ومن ثَمَّ قال بثقة:

- منذ متى وأنت تعاني تلكَ الآلامَ؟

- عن أيِّ آلامٍ تتحدثُ يا هذا؟

- هلُمَّ وكُفَّ عن المُكابرة! أنتَ مريض يا سيدي، وأنا ما انضممت لهذا الوفد إلا لُمساعدتِك على الشفاء!

- أنت تكذبُ! كيف علمتَ بأني مريضٌ؟

- مُذْ سَمِعتُ خبر التهامك للثعلب! كنتُ أعلم بأنك ستمرض بعدها! كما أن منظرَك لا يخفى على طبيبٍ مثلي..



تأمَّله زعيم التماسيح مليًا، ثم خرجت من مقلتيه دموعٌ حقيقيةٌ، لا دموعَ تماسيح كاذبةً!

قال وهو لا يزال ينوحُ بأسًى:

- أشعر بمغصٍ رهيبٍ، رهيبٍ كالكابوس يا دكتور!

- لا بأسَ عليك..

- إذا تمكّنتَ من شفائي فسأوافق بكلِّ طِيب خاطرٍ على التفاوُضِ مَعَكَ!

- لا تتحدَّث كثيرًا فأنتَ مريضي الآن..

دنا القردُ من أبي منجل، وهَمَسَ له مُتلهفًا:

- دعنا نُرغِمْه على قَبولِ الهُدنة ومن ثم عالِجْه!

التفت الطائر إليه هامسًا هو الآخر بحزمٍ:

- لا! هو الآن مريضي وسأنفذُ واجبي تجاهه بصفتي طبيبًا، ولا شأن لذلك بصراعاتِنا ونزاعاتِنا!

ثم التفتَ إلى زعيم التماسيح قائلًا له بنبرةٍ مُطمئنة:

- افتح فمَكَ وقُلْ آه!



وبعد شفاءِ زعيم التماسيح، وافق على الهُدنة مُباشرةً، فعادَ القردُ مُنتصرًا إلى ملك الغابة حاملًا معه البُشرى السارة، فسرَدَ له الحكاية كاملة، لكنه لم يكن أمينًا تمامًا في سَرْدها..

هكذا، أُقيمَ احتفالٌ ضخمٌ نال القرد الماكرُ خلاله شرَفَ نَيْلِ منصب مستشار الملك الأول، والطريف في الأمر أن الأسد قد أمر بعمل نُصبين تذكاريين للعقعق والعلجوم باعتبارهما بطلين قضيا أثناء قيامِهما بالواجب الوطني المُقدس!

أمّا أبو منجل، فقد عاد لمُزاولة طِبِّه وحِكمته دون أن يعرف حيوانٌ واحدٌ ما قدَّمه للغابة من خِدمات.. وبقيت الحقيقةُ مدفونةً حتى يومنا هذا!



14

ارتدت "جيترًا" أزرق يُلائمُ قميصها السماويّ، شعرُها طويلٌ لكنه مَقصوصٌ يصلح للفتيانِ والبناتِ على حَدِّ السواء..

هكذا كانت (شبابة) وستظلُّ، وقد ظننت أن اسمها مجرد تنويعٍ على "شباب"، لكن مدام (باسينت) قصدت بها أداة النفخ الموسيقية التي كانت الفتاةُ تُتقنُ العزفَ بها..

تبدت (شبابة) منذ اللحظة الأولى فتاة مُستهترة، فخلّفت ذلك الانطباع لدى الكل، وقد تمادَت كل التمادي في الظُّهور بمظهر فتى، حتى أنها كانت تستعملُ حمّام الذكور! وذات مرةٍ قاطعت استحمامهم بدخولها عليهم قابضةً بشكيرًا وهي تغمغم ببساطةٍ مُتناهية:



- اتركوا لي قليلًا من الصابون!

أتت مدام (باسينت) على صوت التهليل والتصفير، فوقع بصرُها على أشنع منظر رأتْهُ في حياتِها المهنية بأسرها، ولربما في حياتها الشخصية كُلّها..

كانت البنتُ عاريةً تمامًا كما ولدتّها أُمُّها! تُراشقُ الفتيةَ العُراةَ كذلك بالماء والصابون! فلطمت المرأة صدرها، وهرعت كالمخبولة لتلفَّها بالبشكير وتخرجها مُجرجرةً إياها من شعرِها وهي تصيحُ مُلتاعةً:

- يا للفضيحة! أين الحياءُ يا بنت المجنونة؟ تفو!

بصقت عليها وهي تواصِلُ عصر جُذور شعرها ولطمِها على خديها ومؤخّر عُنقِها، لكن الفتاة ظلّت تضحك حتى تيقنت (باسينت) من إصابتِها بالخَبَلِ..

حبستها في غُرفتها وأغلقت الغرفة بالمفتاح حتى تتأدّب، وبعد يوم أخرجتها مُعتقدة أن البنت قد تأدّبت.. ولكن وفي نفس الليلة تفاجأ بها ترقُص بقميص النوم مع (داهوت) في غرفتِه على أنغام صاخبة منبعثة من مُسجله!

كانت (شبابة) "غلامة" بكل ما تحمل الكلمة من معاني، لدرجة أنها كانت تنادي (داهوت) دائما بالأمير المخنَّث! وتشبه تآليل



(ثؤلول) بمريض الإيدز المحتضر! أجل!لسانها كان الأسلط وشخصيتها كانت الأقوى - أو الأوقح إذا ما صَحَّ التعبير-، بعض الفتية أُعجبوا بجرأتها وسائر الفتيات تبذوها لسُوءِ أخلاقها..

ثم هدأت طباعُها قليلًا واستقرت، وإن لم تكفَّ عن ارتداء ثياب الفتيان، لكنها تمكَّنت من مُهادنة (ناردين) لأنها أحبَّت لطفها وخلوها من خَبَلِ البنات السخيف والمُعتاد، ولم تترك فُرصةً لم تسخر بها من نادي "الآنسات الحافيات" ومخاوف (زغدة) وشَرَهِ (قبرة) غير الطبيعي.. لكنها احترمت كثيرًا علاقة (ضارية) المتينة بلؤلؤة، فقد وهَبَتِ الأولى حياتَها وسعادتَها كلها من أجل الثانية، أخت وصديقة مريضة طيلة الوقت لا تُبارِحُ الفِراش..

حاولت (ناردين) بلطفها المعهود تعليم الفتاة الخشنةَ طِباعَ الفتيات، لكن (شبابة) أخرجت لسانها كمن يقيءُ قائلةً بازدراء:

- إنهنُّ فضيحة! ينتحبن بمجرد ظُهور برص على الجدار، ولا يكففْنَ عن النميمة والنَّقيق كالدجاج!

أفهمتها (ناردين) بصبر أن تلك الأمور ليست جُلَّ وظائف الأنثى، فتبسمت قائلة باستهزاء:

- بالطبع! إنها تكنس وتطبخ وترقُد في السرير خاضعة لغرائز الرجل البهيمية!



احمرَّ وجه (ناردين) مدركة أن صديقتها الجديدة ما هي إلا عُضوة في جمعية حقوق المرأة، لكنها لم تفقد الأمل فيها تمامًا..

وفي حفل ما قبل زواج (أزوريت)، اضطرت (شبابة) لارتداء تنورة حليبية ذات كشاكش على الأكمام استجابةً لتضرُّعات العروس المُقبلة، ولما وقفت أمام المرآة تتأمَّلُ نفسها بعد أن فرغت (ناردين) من تزيينها ووضع مساحيق التجميل لها رأت شيئًا عجبًا..

- "واو.. أنتِ فاتنةٌ حقًّا يا فتاة!"

قالتها (ناردين) مُنبهرةً.. حقًّا كانت (شبابة) فاتنة، تَبرُّجُها المُتقن جعل منها أنثى حقيقية، لم تكن ضاجّة الأنوثة من ناحية الصدر أو القوام، لكن وجهها بدا لمسة فنية من لمسات الجمال المُتقن، أنفها متناسق وعيناها تبدوان كمياه البحر الشُّفافة، وقد وضعت لهما (ناردين) كُحْلًا، وصبغت لها شفتيها بطلاءٍ ورديٍّ باهتٍ مُتلألئ..

صالت في الحفل وجالت مُتفقدةً ذاتها أمام رِفاق المصحة، فلَمَحَتْ انبهارًا ودهشةً في العيون، وتمكنت بزاويةِ بصرِها من رؤيةِ الأمير الجميل يُسقطُ كوبَ العصير على ملابسه والذُّهول يملأ ملامح وجهه، فتبسَّمت..



15

أصغر مدمن سابق ومريض حاليًا بالمصحة، أسمته (صفير) متأخرًا عندما اكتشفت ولعه بالتصفير وهو يصلح أو يُفكّكُ الأجهزةَ القديمة، ولولا صفيره في كل مكان حتى في الحمام لأسمَتْهُ "عبقريًا"!

فقد أصلح لباسينت المِذياع رغم قِدَمِه مُوفّرًا عليها مَبْلغًا من المال، فابتاعت له بعض اللعب والدُّمى التي يحبها عرفانًا منها بجميله..

أرادت كسب ذلك العبقري الذي يوفّرُ عليها عناء حمل الأجهزة المعطلة وأخذها إلى دكان تصليح صاحبه الجشع، فقد أظهر (صفير) براعة مُثيرة للتساؤل بشأن مُستقبله..

- "لو أن أهله تنبهوا له لأدخلوه الجامعة كي يتخرج مهندس إلكترونيات بدل الإدمان الذي أضاع مستقبله!"



كانت تُردِّد ذلك بحسرةٍ وهي تُراقِب النابغة الصغير نوعًا يفكك لُعبه ويركبها باهتمامٍ ذكي، ذات مرةٍ رأته يفكِّكُ ساعة الحائط فقالت له غير مبالية:

- أعد تجميعَها بعد أن تفرغ!

فأومأ برأسه مُصفرًا..

تاريخه مع إدمان (R.D.6) غامض، ثمة شك بأن والدته كانت مدمنة، فقلدها في إدمانها ليسقط بالمحظور.. كلامه قليل وتصفيرُه كثير، يصفر ألحانًا غير معروفة ابتدعها عَقلُه، والبنات يقصدنه لإصلاح أغراضهِنَّ من مسجلات ودمى، أما الشبان فيطلبون منه جعل أسلحتهم المزيفة التي يلهون بها أحيانًا حقيقية أو شبه حقيقية!

ذات مرة، انصاع لتوسلات (بلجة)، فزاد من قوة الزنبرك في مُسدسه، وصنع له سهمًا خَشبيًّا بدل طلقة الشافطة المطاطية، وعندما خرجا لتجربته صوَّب (صفير) السلاح الجديد نحو جذع شجرة وضغط الزناد بعد إحكام التصويب..

انطلق السَّهمُ لينغرز في الجذع، فتهلل وجه (بلجة) مُتناولًا السلاح الخطر بحذر من قبضة (صفير) قائلًا له:

- أنت عبقري يا بني!

لم يبالِ (صفير) بكلامه، كما لم يُبالِ بعواقب اختراعاته الوخيمة، كانت شخصيتُه غيرَ مبالية، واهتماماته مُتعلقةٌ بتركيب الأشياء اليدوية والميكانيكية فحسب..



انقلبت حياته رأسًا على عَقِبٍ لدى ابتياع (أزوريت) له دمية بالحجم الطبيعي في عيد ميلاده..

وفي غُرفته الجديدة المحتشدة ألعابًا بفَكّكِ الدمية، وكما يصنع الجراح مع مريضه ابتدأ (صفير) عملية مُعقدةً من الفَكّ والوصْلِ مُحوِّلًا لعبته الجديدة إلى فوضى حقيقية.. كان يطمح لشيء مجهول، شيء حقيقي يفاخر به..

كان يضع التروس الجديدة من ساعات قديمة وأخرى جديدة بين أضلعِ الدُّمية، ثم زوَّدها بمولداتٍ وأسلاك سياراته التي يتمُّ التحكُّم بها عبر جهاز تحكم عن بُعدٍ..

اشتغل شهرًا كاملًا كي ينجز تحفته الجديدة والعجيبة، وقرَّر في ليلة من الليالي تجربتها..

أخرج جهاز تحكُّمه الجديد المزوَّد بسبعِ بطاريات من الحجم الكبير متأمِّلًا دُميته، ولكي يُخفِّفَ من التوتُّر المعتملِ في نفسه ابتدأ التصفير مُشغلًا الجهاز..

وهنا نهضت الدمية ببطء، اعتدلت فوق السرير ثم نهضت.. تأمَّلها بسرور مندهشًا مُحركًا عصا التحريك الضئيلة، فبدأت الدمية العجيبةُ بالمشي وكأنها بشريَّةٌ!



تصاعدَ صوتُ تصفيره المتحمس وهو يُراقبُ ثني جذعها، جلوسها ووقوفها، كما لو كانت إنسانًا آليًا يابانيًا من المستقبل!

بدا (صفير) فخورًا كأب يُراقبُ طفله يخطو خطواته الأولى، فهمسَ مُحاولًا ألا يُجنَّ من شدة الانفعال:

- (صفير)! لا، بل (صفرد)! سيكون اسمك (صفرد)!

كانت البداية سرية بشأن اختراعه، فلم يكاشف به أحدًا..

كان يقضي جُلَّ وقته مُعتزلًا داخل الغرفة برفقة دُميته، يُحرِّكُها ثم يُفكِّكُها مُحاولًا تطويرها وكأنه يسعى لجعلها بشريةً أكثر..

وذات مرة، كان يُجالسُ الدمية مُطلقًا العنان لتصفيره، فخطرت له فكرة مُسلية..

جلب جهاز التسجيل الذي يتسع لأشرطة الكاسيت المنمنمة، وظل طيلة اليوم يصفر بشفتيه أبرز الألحان التي تروق له، وبعد أن فرغ قام بتفكيك المُسجل، وابتدأ عملية فَكِّ رأس الدمية كي يُركِّبَ الجهاز داخله..

في نفس اليوم فرغ من عمله، وبإضافة زرٍّ جديد لجهاز التحكم عن بُعد، صارت الدمية تُطلقُ صفيرًا مُسجَّلًا جعله يتواثبُ كالقرود فوق سريره صارخًا:

- فعلتُها! فعلتُها!



ثم خطرت له في تلك اللحظة فكرة مخبولة أخرى، فزار (شاهر) على غير العادة طالبًا منه الذهاب معه إلى غرفته، دُهشَ الأخير لتلك الدعوة غير المسبوقة، لكنه نفذّها عن طِيب خاطرٍ..

ومعًا وقفا قُبالة الدمية، و(صفير) يهمس مسيطرًا على انفعالاته:

- سمعتُ أنك رسامٌ بارع..

- لستُ بتلك البراعة..

- أريد منك تحويلها إلى نسخة طِبْق الأصل مني.. الوجه! عيناها! أنفها! وحتى شعرها!

- لكن لماذا؟

- افعلْ وسأظلُّ مدينًا لك مدى العُمر!

تفكّر (شاهر) هُنيهة، ثم نَطقَ قائلًا:

- أفعلُها مُقابل خدمة.. أريدُك أن تصنع لي يدًا مسخيةً من المطاط!

- ماذا؟ لماذا؟

- أنا بحاجة إليها لأمر ضروري يخصُّني.. اصنعها وسأنفّذُ الواجب عليَّ من الاتفاق..

- وهو كذلك..



كادت الدمية تصيبُه بجنون العظمة، وقلَّت مُجالساتُه مع رفاقه في غرفة الطعام، وقلما يغادر غرفته وهو مستحمٌّ، وصار يطرد من يجيئه طالبًا منه إصلاح شيء، لكنه كان يخرج على مَضضٍ لإصلاح جهاز ما بطلب رقيقٍ من (أزوريت) أو آخر حازمٍ من (باسينت)..

وعند عودته، يرفع يده بإشارة تحية للدمية التي بدت تُشبِهُه فعلًا، حتى إنه قام بإلباسِها ثيابَه! قائلًا لها بسرورٍ:

- أرجو ألا أكون متأخرًا على عزيزي (صفرد)!

ظل الحال هكذا حتى مقدم مجيء الذي هدأ به قليلًا وفترت حماسته بعض الشيء، فخبأ (صفير) دميته في صندوق عريض، وقبل إقفاله غمغم بشفقةٍ طابعًا قُبلةً على جبهتها:

- سامحني أرجوك يا (صفرد)!

وفيما بعد نَسيَ أمر الصندوق الذي وضعه أسفل سريره..

لم يتذكره إلا بعد مُرور شهر تقريبًا، فاستخرج الصندوق بجزعٍ وكأنه ينبش تابوتًا بداخله شخص مدفونٌ وهو على قيدِ الحياة!

كانت الدُّميةُ مُغبَرةً، فاغرورقت عيناه بالدموع وهو يهمس مُلتاعًا:

- سامحني يا (صفرد).. سامحني يا صديقي!



ولإصلاح الغلطة الرهيبة التي اقترفها بحق دميته، قرر أن يجعل للدمية حياةً خاصة بها، بلا جهاز تحكُّم عن بُعد!

هكذا باشرَ العمل أيامًا امتدت أسابيعَ، كانت مُهمةً صعبة تأرجحت ما بين الفشل والنجاح، وظل على تلكم الحال شبه الميئوس منها مدةً طويلة..

ثم تناسى الموضوع فترةً وطَّدَ خلالها علاقته بوجيهة، حيث كانت تمتلك في غرفتها تلفازًا ذا صورةٍ مُشوشة الإرسال سارع بإصلاحه لها، فتبسمت قائلة لما تبدت لها الصورة الجديدة حسنة الإرسال على الشاشة:

- هذا فتى ينفعُنا أخيرًا مثل (شاهر)!

فهي لم تكن تستغني عن خدمات (شاهر)، وبالتالي أدرك (صفير) أنها مسرورة منه ما دامت قد شبَّهته بشاهر..

وذاتَ ليلة، دخل غرفته بعد مشاركته الجميع الطعام، فقد بدأ يتحول إلى كائن اجتماعي، حتى أنه خرج للمزرعة كثيرًا، وزار الإسطبل وأطعمَ الحصان، وساعد (شاهر) و(هدهد) قليلًا وشاركهما طعامَ الغَداء..

بدا متعجبًا من مسألة تشاركهما غرفة الحارس، لماذا (شاهر) دون غيره؟ ومع من؟ مع (هدهد) القاسي صاحب الطِّباع الخشنة؟



حتى أثناء الغداء بدا (هدهد) مُتبسِّطًا، كان يقهقه لمزحات (شاهر) ، فأدرك (صفير) أنهما أصبحا صديقين..

بالطبع كان يسمح لشاهر بدخول غرف المصحة والخروج منها وقتما يشاء، فهل كان بياته في غرفة الحارس اختيارًا منه هو؟

للمرة الأولى يفكر (صفير) بغير تصفير، وبغير أنانية وبغير الأمور المتعلقة بألعابه المبتكرة، أو حتى دميته (صفرد)..

دلف غرفته مهمومًا، فوجد كل شيء على حاله.. كل شيء على حاله! لكن.. أين الدمية؟

تلفَّت ذاهلًا ليجدها جالسة على المقعد أمام المرآة! فتلوَّن وجهُه وذاكرته تؤكِّد له قيامه بتمديدها على سريره قبيل الخروج، فصاح:

- هذا مُستحيلٌ! ماذا تصنعُ هناك؟

بدا ذاهلًا، غاضبًا، ثم تلاشى الذهول والغضب ليحلَّ محلهما خوفٌ شديدٌ.. لقد غضب لأنه افترض أن أحدًا دخل غرفته في غِيابه وقام بتحريك الدمية كي يُعابثه..

لكن ماذا لو أن الدمية تحركت من تلقاء نفسها؟ هذا مستحيل.. فقد حاول مرارًا تنفيذ ذلك الحلم لكنه فشل..

قرر نسيان الأمر، فلا بُدَّ أنها مُزحةٌ ثقيلة من (داهوت) أو (بلجة).. لا شكَّ في ذلك..



لكنها كانت البداية فقط.. فبعد يوم من تلك الحادثة، اعترضت (غصون) سبيله والغضبُ بادٍ في مُحيَّاها الجميلِ..

تأمّلها منتظرًا بملَلٍ طلبها منه إصلاحَ شيء ما، لكنها باغتَتْه بصفعةٍ قويةٍ على وجهِهِ!

- "يا وغد، يا صعلوك!"

تحسَّسَ خدَّه بدهشةٍ عارمةٍ، فصرخت في وجهه وأطرافُها ترتعدُ غضبًا:

- وأنا التي حسبتُك مُهذَّبًا! ماذا كنتَ تصنعُ في غرفتي أيها المنحرف في الليلة الماضية؟!

- أنا لم..

- اخرسْ! هل أخبرتَ أحدًا بما رأيتَه؟

- لكنني لم..

نفخت الهواء بصبر متمالكة نفسها، ثم همست بشبهِ رجاءٍ وبتؤدة:

- اسمعْ، أنا آسفةٌ لأني صفعتُك، لكن.. لا تخبر أحدًا أرجوك.. اتفقنا؟

كانت الدهشة تغزو تقاسيم (صفير) ، وظلَّ محتفظًا بدهشته تلك حتى بلوغِه غُرفته..



هناك، وجد (صفرد) في مكانه، فاحتقن وجهه وهو يخطو باتجاه الدمية قائلًا بحدة:

- تتسلى بي يا بن الملعونة؟

ثم صفع الدمية صفعةً قويةً قبل إرقادها على بطنها عازمًا أن ينزع أسلاكها ويُريحَ نفسَه..

لكنه لم يفعل.. شعورٌ بالوهن خالجه وهو يتأمَّلُ العمل الذي لطالما افتخر به، فهل يُدمِّره بتلك البساطة بسبب مُزحةٍ سخيفةٍ أعدَّها واحد من إخوة الإدمان؟

فقرر أن يتريَّثَ ويُراقبَ الدمية..

مرت الأيام و(صفير) مواظب على الدروس والانضمام للبقية على مائدة الطعام، ولم يحدث أن تغير شيء..

لم يُزل فكرة أن دميته تجول بمفردها بعيدة عنه، أراد التأكُّد من حقيقة ذلك، لكن الدمية اللعينة خيَّبت آماله، ومع مرور مزيد من الأيام ابتدأ يقتنع بأن الأمر لا يعدو كونه مجرد دُعابةٍ سَمجةٍ..

إلى أن أتى يوم كان يجالس به (شاهر) في الإسطبل، وقد عكف الأخير على تنظيف الحصان وهو يصغي لثرثرة (صفير) باسمًا، عندما توقف بغتة عن العمل رافعًا رأسه..



نظر (صفرد) بدوره إلى بوابة الإسطبل المفتوحة على مصراعيها، فأبصر (ضارية) واقفة هناك والغضب يتأجَّجُ في ملامحها!

- "أهلًا!"

قالها (شاهر) بوُدّ، لكنها تجاهلته مُخاطبةً (صفير) بقولِها:

- ماذا كنتَ تفعلُ في غرفتِها؟

- غرفة مَنْ؟

- غرفة من؟ الآن فقط أدركتُ أنك جبانٌ! لقد كان أنت! والتصفير كان من شفتيك!

- أنا..

- أيها الوغد!

وخرجتْ ووجهها مُحتقنٌ من شِدَّةِ الغَضبِ، فتأمَّلَ (شاهر) صاحبه متسائلًا:

- ما الحكاية؟

عضَّ (صفير) شفته السفلى قبل أن ينطق بمرارة:

- فعلها الحقير مُجدَّدًا.. لكنني سأُدمِّرُه هذه المرة!

وخرج راكضًا بسرعة قاصدًا غرفته.. فما إن ولجها حتى اكتشف اختفاء (صفرد)!



ناداه باسمه، وكأنه سيستجيب وهو يبحثُ عنه في كل رُكْنٍ وزاويةٍ من الغرفة، وبعدها خَرَجَ يُهرْوِلُ كالمجنون حتى التقى بوجيهة التي سارت حاملة بعض الثياب المطوية، فاستوقفها متسائلًا بلهفة:

- أرأيتِ (صفرد)؟

- مَنْ؟

- دميتي!

انبعث صوت طقطقة من حلقها مدمدمة بازدراء:

- اخجلْ من نفسك! في العشرين من عمرك وتلهو بالدُّمى كالبنات الصغيرات؟

تَرَكَها مُواصلًا هَرولته وذهْنُه مُحتشدٌ بخيالات لا حَصْرَ لها: "ماذا كُنتَ تَصنعُ في غُرفتي؟" "ماذا كُنتَ تَصنعُ داخلَ غُرفتِها؟" "لِمَ فعلتَ ذلك؟" " لِمَ صنعتَ ذلك؟" "أنتَ يا (صفير)؟ أنتَ.."

توقّفَ هُنيهةً قبلَ أن يَهْمِسَ لنفسه مُرتجفًا:

- يَجبُ أن أجدَه قَبْلَ أن يُورِّطَني في مُصيبةٍ جديدة!



16

(ضارية) البنت القوية ذات الملامح القاسية طفيفة الأنوثة التي أتت بعد (لؤلؤة) ، والتي أخذت على عاتقها رعاية (لؤلؤة) طريحة الفراش، لا تخرج ولا يدخل عليها سوى فئة قليلة من البنات والممرضات..

لا أحد تفهَّمَ سِرَّ الصداقة العجيبة والمتينة التي توثَّقت بين الاثنتين، وحدث ذات مرة أن لَمَّح (داهوت) لبلجة ولثؤلول باستهزاء جامح أن تعلق الفتاتين بعضهما ببعضٍ لا يخلو من رِيبة، سألاه عما يقصده فغمغم مُتهكمًا:

- أخشى تعلقهما ببعض إلى حَدِّ الزواج!



تبسَّما مُندهشين.. الواقع أن تلك الفكرة قد راودت الأغلبية من قاطني المصحة، حتى أن (أزوريت) سألت(ضارية) بابتسامةٍ مُحرجة لَمّا جالستْها:

- كيف (لؤلؤة)؟

- تتحسَّن..

- ألا يمرُّ يومٌ دون أن تَريها؟

- إنها صديقتي الوحيدة..

- ألستُ صديقتَكِ كذلك؟

لاذت (ضارية) بالصمت..

- "ألا يروقُ لك فتًى مُعينٌ؟"

سألتها (أزوريت) باهتمام جَليٍّ، ردَّت عليها (ضارية) بخُشونةٍ لا تناسِبُ أنثى:

- لا..

- ولِمَ يا (ضارية)؟

- لأنهم أوباش حمقى..

- أيشمل تعميمُك زوجي؟

هزَّت رأسها قائلةً بلا مُبالاة:



- قلت رأيي وأرجو أن تحترميه..

- إذا ظلَّ هذا رأيك فقد لا تتمكَّني من الزواج..

رسمت بسمةً خجولًا على شفتيها الغليظتين مُغمغمةً:

- هذا آخر ما يشغل بالي!

- من المفترض أن يكون أول ما يشغل بالك ككل فتاةٍ طبيعيةٍ..

- إذن أنا لستُ طبيعية!

- لم أقل هذا وإنما..

قاطعتها الفتاةُ الخشنةُ بضجرٍ:

- أنا من أقولُ ذلك عن نفسي ولا أُلقي بالًا لأحدٍ!

اكفهرَّ وجه (أزوريت) من وقاحةِ الفتاة، لكنها بدت باسمةً مُتماسكةً وهي تتساءل بلُطفٍ:

- وعندما تتزوج (لؤلؤة)؟ أنتِ لن ترعيها مدى العمر؟

تلوَّنَ وجهُ (ضارية) وهي تهتفُ بسُخطٍ:

- (لؤلؤة) لن تتزوج أبدًا ما دامت تُحتَضر.. أليس كذلك؟

و(لؤلؤة) كانت تُرحِّبُ بصداقة (ضارية) الأخوية لها مذ سقطت أسيرة الفِراش اللعين..



حقًا لا يوجد الكثير مِمَّا يُقال عن (ضارية)، كانت كالقديسة بالنسبة للؤلؤة، تسهرُ على رعايتها وتحميمها وإطعامها ومسامرتِها كي لا تضجر، أحيانًا تحملُها وتضعها على مقعدٍ في الشُّرفة كي تستنشقَ الهواء المُنعِشَ، وتُجالِسُها ساعاتٍ طُوال، ثم تُفارِقُها لجلْب وجباتِ الطعام..

وعِنْدَ حُلولِ الليل تَنامُ معها في نفسِ السَّريرِ، وأحيانًا تغني لها حتى تَنامَ..

كانت (ضارية) قديسةً..

لكن (لؤلؤة) اعترفت في قَرارةِ نفسِها أنها لا تستحقُّ حتى شَفَقَتَها..



17

ذاتَ مرةٍ، أرْجَحَها قليلًا قبل أن يُوقِفَها، فهتفت مُعترضةً:

- لِمَ توقَّفت؟

- (ظلال) أنا..

- أنتَ ماذا؟

- أنا أحبُّكِ!

قالها ووجهُه يتعرقُ بكثافة، حتى زالت كل المساحيق التي وضعَها على نُدبته القبيحة، فتلفتتْ بصمتٍ.. لم تخبره أهم جميعًا هُنا مجردِ مرضى في طَوْرِ النقاهة، ولم تهزأ منه ومن نُدبته رغم الإغراء الواقع في نفسها تلكم اللحظات، الحقيقةُ أن الأمر أسعدَها قليلًا فقررت أن تتسلّى بعواطفه..



هكذا ردّت عليه هامسةً وعيناها مُسبلتان:

- استغرقَ منك الأمرُ مُدّةً طويلةً.. وأسفاه!

- ويلي! على ماذا؟

- قلبي مِلْكٌ لغيرك.. آسفةٌ يا (بلجة)!

ثم فرّت من ناظريه مُهنئةً نفسها على النجاح الساحق الذي حققته، غير آبهةٍ - أو عالمةٍ- أنها صدمته صدمةً لم يستشعر لها مَثيلًا..

كان الغُرور صفةً رئيسيةً من صفات (ظلال) الحسناء، وربما كان لها بعضُ الحَقِّ في غُرورها، فهي هيفاء القَدِّ، ذاتُ شَعْرٍ مُتموِّجٍ وأنْفٍ دقيقٍ وشفتينِ أكثر دِقّةً، كانت ترنو للكل بعينين غامضتين تبعثان بسحرٍ مشوق، وحديثها ذكي لا يخلو من دهاء الإناثِ الحاذقات..

لم تكن كذلك يوم أتت أول مرة، بل إن قلبها تعلّقَ نوعًا ببلجة بداية، مرضى الإدمان الذين ما زالوا بضعفهم قبل تماثُلهم نوعًا للشفاء..

إلى جانب غرورها كانت (ظلال) غيورًا، ولأنها كذلك فقد قررت تحويل غُرفتها إلى أجمل غُرفة في المصحة، بعدما رأت التنسيق الدقيق والبارع لغرفة غريمتها (ذهب)..

الواقع أن لها ذوقًا سيِّئًا مُخالفًا لُمخيلتها. فقد كانت الغرفة التي في مُخيلتها أجمل من تلك التي جهَّزتها بنفسها، أي أنها لا تملكُ ذوقًا في المُخيلة فحسب، بل ذوقُها قابلٌ للتنفيذ على أرض الواقع..

وعندما تلقت عرض (ذهب) الخفي بالانضمام للنادي السخيف لم تتردد، كانت تكرهها، لكنها كذلك تُكنُّ لها إعجابًا خفيًا، بتصرفاتها القريبة من تصرفات الأرستقراطيات، فقرَّرت الالتصاق بها والتعلُّم أكثر..

عَلَّمَها الغُرورُ احتقارَ الآخرين، وبخاصة (قبرة) التي كانت تنهشُها بلسانها نَهشًا كلما رأتها تأكلُ كبقرةٍ جائعة، مَنظرُها وشفتاها ملطَّختانِ بالكاكاو بدا مُبتذلًا ومُثيرًا للقرفِ لأقصى حَدٍّ..

وهناك (حلزون).. يا له من اسمٍ! ويا له من مظهر! وكأن مُنغّصاتِ فتًى مُعاقٍ تنقصُها، ماذا عن (ثؤلول) المُقرف؟

وأخيرًا (بلجة).. الفتى صاحب النُّدبة القبيحة.. رباه! كيف تتخلص الفتاةُ من العلقة النَّتنة؟ منظره بالقرب منها كفيلٌ بإصابتِها بالصُّداع وأعراض القيء..

ثم تنظرُ متأمِّلةً، فتجد بعضهم غير منفرين إلى تلك الدرجة، فهنالك (داهوت) الجميل، يتصرفُ كالأمراء تمامًا، هندامه أنيقٌ نظيفٌ، ومَظهرهُ رائعٌ حين يمتطي الجواد..



و(شاهر) قويٌّ لا يخلو من وسامة، أحيانًا تسرح في مَنظره الآسر وهو مُنهَمِكٌ بتنظيف الحصان ويُؤْثِرُ الآخرينَ على نفسِه ويساعدُهم لتجاوز همومِهم..

وبين الأمير الجميل والعامل القوي تسرح بها التخيُّلات العجيبة، فترى نفسها أميرةً مخطوبة للأمير، لكنها تعيشُ حكاية حُبٍّ حتى النُّخاع مع سائسه!

أظهرت (ظلال) تفوُّقًا ملحوظًا في اللغة الفرنسية، أرادت تعلمها بشدة، فهي لغة مدام بوفاري التي استعارت روايتها من مكتبة (حلزون) المقعد، لم تكن قارئة بطبعها لكنها أحبَّت تغذيةَ مُخيلتَها ببعض التفاصيل التي تُحبُّها، وعندما تُطالعُ كانت تتخيَّل بأكثر مما تقرأ، مُتخيلةً نفسها مدام (بوفاري) بكل الحُبِّ والجمالِ والخيانة..

تدريجيًا وجدت نفسها تحلم بالشابَّين، لكل واحد صفاتُه الخاصة الآسرة، لو كان الأمر بيدها لصنعت كمدام (بوفاري) تمامًا، تتزوج (داهوت) وتبدأ علاقةً كالحلم مع (شاهر)!

يا له من طموحٍ يُراوِدُ فتاةً في الثالثة والعشرين من عُمرِها!

لكن طموحها الخيالي لم يتوقَّفْ عند حد، فها هي ذي تُفكِّرُ بأمرٍ جديدٍ وغريبٍ.. ماذا عن زوج (أزوريت) الطبيب؟

رأته مَرةً واحدة واقفًا يُحادثُ زوجتَه، كان وسيمًا أشيب الفَوْدَين، يتمتع ببنيةٍ سليمة ودماء الرجولة الحارة تتدفّق في عُروقه كما صَوَّر لها خيالُها الجامح، كما أنه مُتحدِّثٌ بارعٌ ومَرِحٌ، لا يهْرِفُ بما لا يعرفُ كديدن الأغبياء من مرضى المصحة..

ولما راودت ذهنها صورة خاطفة سريعة للممرضة الرقيقة، تبسّمت هامسةً لنفسِها باستخفاف:

- لتجد لنفسِها رجلًا آخر فهي لا تستحقُّه!

هكذا وبكل بساطة، كانت تُطلِقُ الأحكام جُزافًا دون مراعاة لمشاعر أحدٍ وبأكبر قدرٍ من الاستخفاف، كانت فكرتُها المتكونة حول العالم أنه يتألف من الأثرياء الذين يحتفلون طيلةَ الوقت.. وألا شواغر لفقيرٍ أو مُحتاجٍ، قد كانت تزدريهم حقًا، وأشنع كوابيسها أن يحلّ بها ما يحلُّ بهم..



18

إذا كانت (ظلال) مُتكبرةً ومغرورةً في العلن فغصون مثلها لكن في السِّرِّ.. كانت حاذقة لا تُجاهرُ بمشاعرها الحقيقية، تمنحُ مَنْ تكرهُ أعذبَ بسمة، وتمدُّ يدَ العون لمن تُريدُ تحطيمَهم راسمةً خُطةً ذات أبعاد مُستقبلية مَضمونة النتائج!

عندما انضمت لنادي (ذهب) وضعت في رأسها فكرةً مُعينةً لم تحدْ عنها بتاتًا، أرادت جعلها خاضعةً لإرادتها هي، وكم من مرة أشارت عليها – بلُطف- أن يغيرا منْ هذا أو يفعلا ذاك، فكانت (ذهب) تستجيبُ بحماسة مُنقطعة النظير لأفكارِ العُضوة الألمعية، غير مدركة أنها في قرارة نفسها تسخرُ منها..

كانت لغصون فتنةٌ خاصة، فهي إلى جانب جمالها مُغريةٌ لأقصى حدٍّ، وقد كانت أجرأ الفتيات في الملبس، لكنها أكثرهنَّ لباقةً بالتصرف ظاهريًا..

كانت ترمقُ الفتيان بعيني الرغبة، تحلم بكل واحد منهم، مُتخيلة أسلوبه الخاص مع الإناث في المُعاشرة، حتى (حلزون) المسكين تخيلته يحاول مُغازلةَ أنثى وهو على مقعده الكئيب!

في غرفتها وفي أكثر الليالي الباردة تقفُ بغير احتشامٍ أمام المرآة مُتخيلةً نفسها أكثر إثارةً، راودها أشدُّ الأفكار عجبًا بشأن الحَمْل، فكانت تتخيَّلُ بطنَها مُكوَّرًا من أثرِه، وعلى عكس أكثرهِنّ وجدت ذلك أكثر جمالًا وأشدَّ إغراءً بالنسبة لجسد أُنثى!

خرجت ذات يومٍ من غرفة (ذهب) بعد اجتماع خاصّ بالنادي، يمكن للكل معرفة ذلك من قدميها الحافيتين، فوجدت نفسها مُتضايقةً بعض الشيء، فكرت.. لِمَ لا تخرج قليلًا لتتنسَّمَ الهواءَ؟

كانت تمقُت المزرعة مَقتًا غريبًا، لم تحب جو الطبيعة الذي بدا أقرب للمنفى بالنسبة لها.. لماذا لا يختلطون بالناس؟ لماذا لا يمضون مزيدًا من الوقت مع الأصحاء؟

والجميع في مَلهاةٍ عن تلك الأفكار، لا يحسبونَ حسابًا لأي شيء، إنهم أغبياء حمْقى، ألا تُراوِدُهم ذات الأفكار؟ ألا يخشونَ على مُستقبلِهم من الضياع مُجدَّدًا؟

ذكرياتُها مع الإدمان مُؤلمةٌ، والدها انغمست به كي تتناسى عذاباتِها مع والدها المُدمن أيضًا، ذاك الوالد الذي لم يكفَّ ليلةً واحدة عن دخول غُرفة ابنته والاعتداء عليها، حتى دفعها هي



الأخرى في هوة الإدمان الجهنمية، مُستخدمةً أسلوبَ النّعامة في دفن الرأس داخل الحفرة هَرَبًا من الخوف والخطر المُحدق المروع..

ظلت تُفكّرُ وتفكّرُ حتى مالت الشمس الحمراءُ في رحلة الغُروب الأزلية، وعندئذٍ وجدت السكينة طريقًا لفؤادها، وببسمة واجمة قالت لنفسها:

- لا بأس، أعرف كيف أتدبّر أمري..

ولأنها تعلمُ، سقطت أول ما سقطت مع (داهوت)!

استسلمت له في حفل (أزوريت)، ثم صارت تُسلّمُ نفسَها له أغلبَ الليالي مُحاولةً إقناع نفسها أنه يُحبُّها..

ظلت العلاقة سرّيةً، حتى استيقظت ذاتَ ليلة لتجد شخصًا عجيبًا يُراقبهما مُتسترًا بالعتمة مُطلقا صفيرًا مألوفًا!

- "(داهوت).. استيقظ!"

تجاهَلَها الأمير الجميل مُتقلّبًا في فِراشه، فالتفتت صَوْبَ ذلك الشخص صائحةً به بنبرة مُختنقة:

- "مَنْ هناك؟ أهو أنت يا.."

لكنه لاذ بالفرار قَبْلَ أن تقولَ أو تصنع شيئًا، فعاودت وَضْعَ رأسها على الوسادة مُجددًا، وأفكارُها المُشتّتةُ تتلاطَمُ بين ثنايا عَقلها دونما هوادةٍ..



19

- "أريدُ الانضمام إلى نادي الآنسات الحافيات!"

كان منظر (قبرة) مُثيرًا للشفقة، فهي مُمتلئة ذات شفتين مُلطّختين بالحلوى طَوال الوقت، و(وجيهة) تصفها بالحيوان القذر لكثرة الفتات وبُقع الزيت على مريولتها..

اعتقد الجميع أنها شَرِهةٌ بطبيعة الحال، لكن الفتاة وجدت في الطعام حلًّا لكل مشكلة مُستعصية تمُر بها، منذ الصغر كانت تأكُلُ بنَهَمٍ إذا خافت أو فرحت، وعندما فاجأت الدورةُ الشّهريّةُ جسدَها المُمتلئ التهمَتْ نصفَ درزينة من ألواح الشوكولاتة بجنون، وكأنها حسبت أن موتها آتٍ، كانت مصابة باكتئابٍ لا علاج له..



عندما حضرت للمصحة كانت كالغصن الهَشّ، نحيلة تمامًا وشاحبةً، فما إن تماثلت للشفاء حتى تحولت إلى حيوانٍ نهمٍ أكول، فانقلبت إلى ما يُشْبِهُ برميلًا متنقّلًا!

الفتيات يسخرن منها، لكن (ناردين) قالت لها ذات مرة إنها صديقتُها وبأنها تُحبُّها، ووجدت (قبرة) نفسَها مُتعلقةً بصديقتها إلى حَدِّ الاختناق! حقًّا كانت (قبرة) مُتعبةً، هكذا تفكّرت (ناردين)، لكن طيبة قلبها تشفعُ لكل تصرُّفاتِها المُقزِّزَةِ..

لم تحتفظ (قبرة) بسرٍّ واحدٍ بين تجاويف رأسِها، أسرت بكل صغيرة وكبيرة لناردين، ولعل أخطرَ سرٍّ لَمّا كاشفتها بميلِها الشديد تجاهَ (شاهر)!

بالطبع تضايَقت (ناردين) من الأمر رغم مدى تفاهته، فقبرة ليست ندًّا لها أو لغيرِها، ومع مرور الوقت ابتدأت بالإشفاق عليها أكثر، حتى أنها ذات مرةٍ أخذت تُمشّطُ لها شَعْرَها الخَشِنَ أمام المرآة هامسةً بأذنها بابتسامةٍ:

- حتى تعجبي (شاهر) أكثر!

فتتورد وجنتا الفتاة خجَلًا، فتزدادُ شفقةُ (ناردين) عليها وتعلُّقها بها..

في الدروس تحاول (قبرة) الجلوس قريبةً من (ناردين) كي تغُشَّ منها، وفي المساء تعاونُها الأخيرة في حَلِّ الواجبات، بدت الفتاةُ ذات

استيعاب بطيء ومتعثرة في التعلُّم، وبدت حياتُها مُنذرة بالعواقب السيِّئة وكثرة المشكلات..

لكن (قبرة) لا تدري عمَّا يدور حقيقةً في العالم، ولو سألتها عن أقصى طموحاتها لقالت بشوقٍ وهي تلعقُ شفتها السُّفلى بلسانها من بقايا القشدة:

- أريد الانضمام إلى نادي الآنسات الحافيات!

لعلها كانت أجرأ خطوة قامت بها الفتاة التي تهوى الأكل، فقد دنت بخجلٍ من (ذهب) وبتردُّدٍ همستْ:

- إذا نفذتُ الشرط..

تأملتها (ذهب) مستخفةً، وباستهزاء قالت لها:

- ماذا؟

- إذا نفذتُ شرط الانضمام للنادي فهل..؟

- طبعًا طبعًا!

وتبسَّمتْ مفكرة.. سيكون ذلك مسليًا في الواقع، وغمزت لصديقتيها..

ركضت (قبرة) والبِشْرُ بادٍ في وجهها، فقهقهت (ظلال) قائلةً:

- عسى ألا تسحق شابًا بقدمها الثقيلة كفيلٍ!



- من قال إنها ستجدُ من يوافِقُ على مطلبها السخيف؟ هي منبوذةٌ تمامًا من جميع الفتية!

- ربما على سبيل التسلية يوافِقُ أحدُهم..

- تصير كارثة حقة، ونصيرُ مُلزمات بضمِّها!

- يا له من كابوسٍ! مستحيل أن نفعل!

لم يساورهن شكٌّ بخيبة أمل الفتاة المنتظرة، حتى وإن كان الأمر لا يعدو مجردَ طُرفةٍ، لن يقوم بها أحد لأن الفتية قد غضوا الطرف عن (قبرة) منذ الوهلة الأولى..

ولكن في اليوم التالي، وبينما كانت فتيات النادي الثلاث جالساتٍ يُثرثرنَ، فوجئن بقبرة تدخل متُهللةً ويدُها تشدُّ (شاهر) شخصيًا من ذراعه!

احتقن وجه (ذهب) ، وبدهشة تساءلت (غصون) كالمأخوذة:

- ما هذا؟

ابتسم (شاهر) مُداعبًا مؤخر عنقه بأنامله، في حين صاحت (قبرة) بشوقٍ طفولي:

- وافَقَ (شاهر) على الخضوع! وسأنضمُّ للنادي أخيرًا!

تساءل (شاهر) وهو لا يكفُّ عن الابتسام:



- ما المطلوبُ مني؟

- فقط تمدَّدْ هنا..

وصَنَعَ كما طلبتْ، فوَضَعَتْ قدمها المكتنزة على صدرِه بشبه اندفاعة، حتى أنه شهق ضاحكًا، مما دفعها للقول بعجلةٍ ووجهُها يكاد ينفجر من شدة احمرارِه:

- باسم عضوات النادي الجميلات أُعلنُك حارسًا لي!

- وأنا سعيدٌ بهذا الشرف!

كان يهمُّ بالنهوض عندما هتفت (غصون) فجأة:

- هذا لن يكون..

تأمّلها الجميع مندهشين، فصاحت بلهجة المُنتصر مُخاطبةً (ذهب):

- ألا ترين؟ لا يحقُّ لها استخدام القَسم مع حارس استخدمته إحدانا سابقًا، عليها إيجاد شخصٍ جديد!

اكفهرَّ وجه (قبرة) مُتسائلةً في حيرة:

- ماذا تعنين؟

أسرعت (ظلال) تقول باهتزازٍ شامتة:



- (ذهب) اختارت (شاهر) حارسًا لها من قبلُ، لذا يجبُ عليك إيجاد شخصٍ آخر غيره!

ونظرت إلى (ذهب) متُبسمةً بظفر.. لكن هالها أن تجدَها صامتة ووجهها مُطرقٌ بذُلٍّ وانكسارٍ..

خُيِّلَ إليها فهم اللعبة أخيرًا، في حين، غمغم (شاهر) رافعًا كفًّا مهدئةً:

- لحظة يا بنات.. أنا لم أخضع إلا لمطلب (قبرة).. لم تقصدني إحداكُن من قبلُ!



20

نظرت (لؤلؤة) عبر نافذتها، فرأت عصفورًا مُلوَّنًا يتشبث بمخاليه الدقيقة فوق غُصن شجرة مُطلقًا لعقيرتِه المُبدعةِ العنانَ..

همست بافتتان:

- سيكون يومًا رائعًا!

سعلت قليلًا، فدلفت عليها (ضارية) قائلةً لها بقلقٍ:

- أرى أن النوبة داهمتك مجددًا..

تأملتها (لؤلؤة) بأسًى، ثم قالت لها باسمةً:

- لي عندك رجاء..

- أي شيء..



- أريدُ رؤية (شاهر)!

تبدت حيرةٌ عارمة على سحنتِها، فكتمت (لؤلؤة) فمها براحة يدها كي تمنع مزيدًا من السُعال..

ساد الصَمتُ دقيقةً، ثم قالت (ضارية) لها بحنان:

- وهو كذلك أيتها الملاك..

- بل أنتِ المَلاك! اقتربي كي أقبلكِ..

دنت (ضارية) مُقربة وجنتها من الفتاة الضعيفة، فلثمتها الأخيرة هامسةً:

- ولا تدعي أحدًا يراه يدخل..

- وهو كذلك..

غابت (ضارية) مدة تبدت كالدهر، وحاولت (لؤلؤة) التسرية عن نفسِها بمراقبة النافذة، وهي تتناول مُشطًا خشبيًّا ابتدأت تمشط به شعرَها الطويل الناعم مُدندنةً بدلالٍ..

عاودها السُعالُ المحموم، فتماسكت قَدْرَ استطاعتِها قائلةً بضيقِ صَدْرٍ وقد احمرَّ وجهُها احتقانًا:

- ليس بعد! ليس بعد!

نظرتُ عبرَ نافذتِها، فرأت العُصفور قد طار وغُصن الشجرة يترنّح من هبوب الرياح الباردة، لقد تغير الجوُّ بسرعةٍ مُخيفة..

همست بأسًى:

- ليس بعدا ليس..

وهنا، سمعت صوتَ طرقاتٍ منتظمةٍ قبل أن يدخل (شاهر)..



الجُزْءُ الثَّالِثُ



1

- "مَنْ كان مِنكم بلا خَطيئةٍ فليرجُمْها بحجر!"

يوم جمعة بارد الطقس نِسبيًّا..

والمسجد الواقع وسط بلدة "خرم الحنطة" كان الملاذ في وقت الصلاة لكل ساعٍ لها أو للدفء.. عددُ المصلين ينخفضُ مع مرور الشهور والسنين، فالتجار خرجوا بتجارتهم للخارج، حيثُ العاصمة والمُدن الأخرى، فالرزق في البلدة باتَ شحيحًا، والنفوس باتت تخشى المستقبل أكثر من الله، فحتى المُطفِّفُ والغشّاشُ والنّصابُ صار المستقبل يُمثّلُ هاجسًا لهم في بلدةٍ نائيةٍ لا مُستقبلَ لها..

داخل المسجد يستطيعُ الغريبُ أخْذَ فكرةٍ عامَّةٍ عن تعدادِ السُّكانِ ومدى تمسُّكهم بالتعاليم الدينية، فإذا عَقَدْتَ مُقارنةً ما بين عدد المنازل وعدد المصلين الذين يؤمُّون المسجد لوجدت شحًّا ملحوظًا، لا



وجود لمساجد أخرى قريبة، والمسافة بين البلدة وأقرب مدينة يربو عن المائة كيلومتر..

أصبحت الخُطبة مُكرَّرةً بشكل ملحوظٍ ومُضْجِر، فالإمام لم يعد يهتم بكتابة خُطبة جديدة، كان يبحث في المسودات عن خطبة مؤرخة بتاريخٍ قديم، يستعملُها بقلبٍ مُطمئنٍّ لأن الناس تسمع من أذن وتخرج ما تسمع من الأذن الأخرى، ولم يكترث لذلك قط، فما دام احترامه قائمًا وعدد من المصلين موجودون في المسجد فلا ضير مِمَّا يحدث..

في رمضان يحضرُ قاطنو البلدة في المسجد بنفس الكيفية تقريبًا، لا مظاهر فرحة بقدوم الشهر الفضيل، لا فوانيس رمضانية بيد الأطفال في الطُّرقات، لا بهجة ولا سرور، بل ازدياد مفجع في أسعار السلع التموينية، وتهديدات صارمة من الآباء تجاه الأبناء إذا لم يختموا القرآن الكريم قبل نهاية رمضان، أو أهملوا العشاء والتراويح جماعةً في المسجد، كل تلك الصرامة ظاهرية بالطبع، إذ سرعان ما يتناسى الآباء كل وصاياهُم، وينشغل الأبناء باللهو التامّ الذي أبعدهم كل البُعد عن دينهم قبل دراستِهم..

أمام البيوت ذات الجدران المتصدعة تجد النُّفايات مُتراكمةً كالتلال حيث اتخذت الهررةُ مَلاعبَها، والرائحة لا تُطاقُ طبعًا، لكن الأهالي اعتادوها كما اعتادوا رائحة المجاري العَطِنة، وفي فِناء كل دار



تقريبًا لا بُدَّ من عنزة أو تيس ليزيد الرائحة سوءًا، وإمعانًا في القذارة لا بأسَ من قن دجاج فوق السطح أو بيت للحمام..

في المدرسة القريبة تجد كتابات غاية بالبذاءة على الجدران، كلها وصف لأعضاء النساء المثيرة أو الرجال الحساسة، ولكن ما يثير الاستغراب حقًا هو عدم إزالتها طيلة الوقت، رغم أنها جُدران مَقرّ لتخريج أجيال! لا مُدرِّسَ ينطق، ولا حتى فرَّاش ، حتى النسوة يمررن من أمام الجدار ويطالعنه بلا مبالاة!

لم تكن السوق رحبة وافرة البضاعة، وقلما أن تجد النسوة يتسوقن داخله من كثرة الفتية الذين يترصدون أية فرصة كالذئاب الشَّبقة، يتركون أفواههم مفغورة كلما وقعت أبصارهم على كعب، ويلهثون بانتشاء إذا ما لاح كاحل من بين ثنايا عباءة أو فستان، في حين تظهر الشرطة في فُرصٍ نادرةٍ جدًا، فعددهم شحيح ورواتبهم غير مشجعة، لكن رئيس المخفر شخص من المُعتدِّين بأنفسهم كثيرًا إلى درجة الخُيلاء والزهو، وكثيرًا ما كان يخرج فقط لاستعراض بذلته الرسمية الأنيقة والنظيفة، والتي تحرص زوجه صغيرة السِّنِّ على نظافتها وإلا حطم رأسها بكعب مسدسه الأسود اللامع.. كانت فيما مضى طالبةً مجتهدة تحبُّ القراءة والأزهار، ثم مقتت ذلك كله عقب ارتباطها برئيس المخفر الذي يكبرها بعشرين سنة على الأقل، فأتم الزواج عملية غَسْلٍ دماغها لتصير بعدها مُواظبةً على إعداد طعامه،



وتنظيف وكي لِبْسه، وغسْلِ كاحليه بالماء الساخن والملح، والاستلقاء في فراشه لإرضاء حوائجه إلى حَدّ الهوس!

أما عن المستشفى فحدِّثْ ولا حرج.. مجرد مستوصفٍ صغيرٍ يُشرفُ عليه طبيبٌ هزيلٌ خَشِنُ الذقن سميك النظارات، أتى للبلدة قبل سبع سنوات ابتعادًا عن ضوضاء المُدن وتحضُّرِها الزائف، لكن لحسن الحظ أن كفاءته معقولة، كما أنه رجل صموت نظراته مفعمة بالحزن طيلة الوقت..

في المساء، تجتمعُ الهِررةُ عند مُستودع النفايات لتبادل الشكاوي حول بخل أهل البلدة – أم تراه الفقر؟– ، فالجوع دفع الحيوانات إلى التهام بعضها البعض، ومن عجائب ما وقع في البلدة أن الهِررة تكاثرت ذات مرة على كلب حتى أتت على عظامه قبل لحمه!

وقد قال المؤذن مرتجفًا لما وقع بصره على المشهد الرهيب:

- لابد أن القيامة دانيةٌ.. هذه من علامات قيام الساعة لا ريبَ!

وعندما أبصر (مشهراوي) الحلاق ذلك المشهد تقلّصَ وجهُه بأقسى آيات الاشمئزاز، فحملَ سطلًا وقَذَفَ ما به من ماء قَذِرٍ على المخلوقات ذات الفرو المتّسخِ والمخالبِ الحادة صائحًا:

- هش! هش! عليكم لعنة الله!

ولما فرغ من مهمة التنظيف تلك عاد إلى زبونه (جعفر) الجزار، حيث كان يعكف على حلاقة ذقنه ذي الشوك بالموسى عندما استوقفه مشهد الهِررة المُشردة آكلة لحوم الكلاب الضالة..



- "لم يبقَ إلا أن نأكل نحن البشر لحم بعضنا البعض.."

- "معقولة، كل شيء ممكن في آخر الزمان.."

ثم نسيا تلك السيرة لما أتى ذكر (راجح) على لسان (مشهراوي) الحلاق:

- البغل ابن ال..! يفكر بالزواج مرةً رابعة!

- الله لا يشبعه! ألا يكفيه أن زوجه الثالثة كانت من بنات الهوى؟

- عينه على البنات الصغيرات، زوجه الأولى هَرِمَةٌ، والثانية ولجت سن الكهولة، والثالثة لم تعد تملأ عينه..

- يا بخته! عنده مال يسد عين الشمس، فليصنع ما شاء في دنياه، مَنْ يُوقِفُه؟ حتى أولاده لا يستطيعون فعل شيء له..

- زير النساء السكير! مَنْ يُصدِّقُ أنه كل عامٍ يسافرُ للحج؟

- وحده الله العالم بسرائر النفوس..

والمُضحك في الأمر فعلًا أن الأول كان معاقرًا للخمر هو الآخر، أما الثاني فمن رُواد ملهى ليلي في العاصمة، حيث يعاشر راقصة في التاسعة عشرة من عُمرِها!

يمُرُّ من أمام الدكان الحاج (جسار) البقَّالُ، يُسلِّمُ عليهما فيردان التحية بأحسن منها، ومن ثم يأكلانه بألسنتهما:

- المنحط المطفف بالميزان! الله لا يشبعه فلوس لا دنيا ولا آخرة!

طبعًا لا يسمعهما الرجل وهو يشقُّ طريقه للمسجد بتعلين مُمزقين علامة البخل، وعصا أبنوسية جاءته هدية من ابن عمه في العيد الكبير لما زارهم قبل سنوات..

في الطريق يقع بصرُه لا عرضيًا على شباك دار آل (مسعود)، فيلمح ابنتهم (دعة) وقد مرت مرتدية قميص نوم سيقطُنُ مُخيلته إلى يوم يبعثون، فيشع فؤاده الهرِمُ بنور الشغف الحيوي، وتصير أغلى أمنياته الارتباط بذلك الكائن الفاتن غزالي الخطوات بدري الملامح، الذي أنساه – أو جعله يتناسى– العجز الذي كان يعانيه وزوجه..

ولكن إلى أين كانت وجهته بحقِّ الله؟ أجل.. كان ذاهبًا إلى المسجد ليصلي الظهر..

***

- "مَنْ كان مِنكم بلا خَطيئةٍ فليرجُمْها بحجرٍ!"

خطيب الجمعة وإمام مسجد البلدة الشيخ (جبران) رجل ممتلئ مركزًا وبدنًا، يرتدي بشتا بنيًا، ويطلق لحية جبارة جعلته شبيهًا بالمسلمين الأوائل في يثرب..

لا أحد يُسائلُ ذاته عن جوهر الرجل ومعدنه، الجميع بلا استثناء كانوا يحترمونه ويهابونه ويشاورونه في كل صغيرة وكبيرة، سواء أكان الأمر متعلقًا بزيجة أو حتى باستشارة طبية..



لكن نجم الرجل خَفَتَ في الآونة الأخيرة مع توالي الانتكاسات على البلدة، من ناحية الرزق طبعًا، فلم يتوانَ بعضُهم عن لعن الرجل وشتمه في السِّرّ، على الأقل لم يجاهر أحد بعد بكراهيته للرجل..

كان يحمل جسده الضخم، ويسير مُسبِّحًا بحُبيبات من العقيق، مسبحته من ديار المسجد الحرام، كذلك السواك الذي لا يُفارقُ جيبه العُلوي والذي ينظف به أسنانه على الدوام، مُتزوجٌ لكن بلا أبناء، وقلما يظهر اشمئزازًا للظروف القاسية التي أصابت البلدة، حتى أنه لم يأمر في خطبة من خطبه الناس بإماطة الأذى عن الطريق رغم مظاهره التي صارت كعلامة تجارية للبلدة، وبالطبع لم يأمر بإزالة العبارات البذيئة من على جُدران المدرسة، فصارت مَعلمًا سياحيًا هي الأخرى..

الأجهزة الكهربائية في المسجد كلها مُعطلةٌ، حتى مُكبِّرُ الصوت، لذا كان يجبُ على المؤذن صعود سلالم المئذنة ورفع الأذان بعقيرته المبحوحة على الطريقة القديمة، إلا أن حادثًا أصابَ البائس في أحد الأيام، فقد زلّت قدمُه وسقط فكُسِرَتْ ساقُه، وعقب تعافيه ورجوعه أمره الشيخ بأخذ حَيْطَتِه وحذره لدى ارتقائه الدرجات الخَطِرَة..

- "لكن يا شيخ ساقي لم تتعافَ تمامًا، أخشى أن.."

ردَّ عليه الشيخ (جبران) عابسًا:

- إذن فاترك عملك هذا لآخر يستطيع القيام به، لا يكلّفُ الله نفسًا إلا وسعها.. ما فائدتُك إذا لم تتمكن من رفع الأذان؟

حتى الصبيان كفوا عن الهرب من أمامه كلما مَرَّ كما كانوا يصنعون سابقًا، يشتمهم ويعايرهم بذويهم الذين لم يحسنوا تأديبهم، فيردون عليه بإشارات بذيئة من ألسنتهم وأياديهم، وعندئذ يرجُمُهم بالحصى وكأنه يرجُمُ الشياطين في المُزدلفة، فيتدافعون هربًا ضاحكين سُخريةً واستهزاءً..

- "أولاد الكلاب! إن شاء الله تصيرون حطبًا لجهنم وبئس المصير!"

ويواصلُ طريقه حتى يبلغ دكان (مشهراوي) الحلاق، فيحييه، فيرد الرجل التحية بأحسن منها وهو يصيح ملوِّحًا بالمقصِ في يده:

- زارتنا البركة يا شيخ.. شعر أم ذقن؟"

يرد عليه الشيخ بعصبيةٍ مُفرطةٍ:

- شعر طبعًا، ماذا كنتَ تتوقَّعُ؟

- أُمازِحُك يا شيخ فحسب!

- سامَحَك الله..

ثم يجلس على كرسي الحلاقة منتظرًا بنفاد صبرٍ، ومِنْ دون خلع البشت الثمين كأنما يخشى عليه من السرقة..

- "الأوضاع صارت جحيمًا يا شيخ.."



- "إن الله مع الصابرين..(أيوب) صبر.."

- "وصبر (أيوب) ما كان ليجاري صبرنا!"

- "أستغفر الله العظيم.."

- "والله حانق علينا.."

- "نحمدُه في السَّراء والضَّراء.."

يقولها الشيخ ممتعضًا، لكن (مشهراوي) لا يصمت، فيتحول كعادته إلى مِذياعٍ يلوكُ سِيَرَ الناس ويُدنِّسُها، لكن بمكرٍ ودهاءٍ، تارةً يوافقُه الشيخ وتارةً يُعارِضُه..

لكن هذا لا يمنعه من شتْمِه في سِرِّهِ كأرذل شيطانٍ..

- "يا شيخ منك السموحة، ولكن أداني هذه الأيام.. أنت تعلم.. وزوجتي النكدة.."

- "مفهوم مفهوم.."

كان الشيخ على درايةٍ بطبِّ الأعشاب، يُشاورُه الناس بشأن داء السُّكري وآلام المفاصل، فيجاوبهم دومًا بطب الأعشاب.. في النهاية يحترمونه على علمه لعونه لهم في أزماتهم مع نسائهم ليلًا، حيث يوصي بأعشابٍ مفعولها قوي حسب زعمه، والناس هنا بُسطاء يصدقون أي أمل في زيادة الأداء، فالتناسل متعتهم الوحيدة، والشيخ لا يُقصِّرُ في بعث الأمل في نفوسِهم المريضة..

حتى النساء يزرنه لأجل تلك الغاية، والواقع أن البلدة تحولت إلى بلدة مهووسة جنسيًّا، لدرجة أن الفتية المقبلين على الزواج زاروا الشيخ للاستزادة من علمه الغزير في هذا الصدد!

وعقب مداواتهم بما يملك كان يودعهم ولسان حاله يقول مُتهكمًا:

- بهائم عاجزة.. مجرد بهائم!

ثم يعكف على حساب ماله الوفير قبل نومه في فراشه قرير العين، فلا يصحو إلا قبل أذان الفجر بنصف ساعة..

كان فخورًا بالمسجد رغم قدمه وسقفه الآيل للسقوط، يرمقه بنظرات الاعتزاز، وكأنه مَعْلَمٌ تاريخي شَهِدَ موقعةً من المواقع التي غيرت وجه التاريخ، ولا يسمح للقمامة بالاقتراب منه كما فعلت مع كل الديار، ولا يسمح لوغدٍ صغيرٍ واحدٍ برسم أو كتابة حرفٍ واحدٍ على جدار من جُدرانه، بيت الله مُقدسٌ ما دام نظيفًا، وبالطبع ما دام هو إمامه..

في خاطرة من خواطره التي تؤرق منامه يقول الشيخ:

- أنا رجلُ الله، وعبدُه المطيع، مهمتي جعل النظام قائمًا لا مسيبا كما صنع رئيس المخفر الجاهل الوبش، ولن أسمح أبدًا بتدنيس حرمة بيت الله.. أبدًا!



وبعدها، ينام منفرج الأسارير، وقد تأكّدَ له قيامُه بأداء واجبه كاملًا مُكمَّلًا اليوم، فلا تنتابه أضغاثُ أحلامٍ تُكدِّرُ عليه وتعكر له صفوه..

لكن في الآونة الأخيرة عانى الشيخ كابوسًا مُروِّعًا قضَّ مناماته فترة لا بأس بها من الزمن، حيث أبصر نفسه يركض في ظلامٍ دامسٍ مُريعٍ، وتناهى إلى مسامعه أصوات عواء ذئاب مُتربصة به، وشاهَدَ بفزعٍ عارمٍ عيونها متألقة في الظلام كيراعات النار، كان هذا قبل أن يثب عليه أحد الذئاب لافتراسه، وحش مروع ضخم الجثة بلون عتمة الليل، حدقتاه تختلفان، إذ هما بلون الدم الذي سال من شدقيه..

- "بسم الله الرحمن الرحيم! قل أعوذ برب الفلق.."

قلَّت ساعات نومه، أصابه أرق مبين من جراء ذلك الكابوس المخيف، حتى إنه غاب مرات عن الصلاة مع الجماعة بحجة المرض، كان يشعر بنفسيته تتهاوى كآبة، وبأن الله يُعاقبُه لشأنٍ ما.. لكن لماذا؟ ماذا صنعَ؟



2

كانت ليلة باردة من ليالي فصل الشتاء القاسي..

في الخارج تصاعد عويل الزمهرير، وكأنه نفخ بوق مَلَكِ الموت شخصيًا، أما عن الداخل – داخل المسجد- فقد وقف صَفٌّ نصف مكتمل وراء الشيخ (جبران) لأداء فريضة الفجر..

على يمين الشيخ وقف (مشهراوي) الحلاق وبجواره ابنه (سعد)، يجاوره (راجح) المزواج، ثم (سائد) طبيب البلدة، و(جعفر) الجزار ملتصق به، ثم المؤذن، فالبقال (جسار) وولده البِكر، ثم رئيس المخفر، وأخيرًا شابٌّ وسيم يجاوره صبي جميل غزير الشعر الأشقر في العاشرة من عمره..

كان الفتى (سعد) مُجردَ بلطجيٍّ وغدٍ يَهْوَى مُطاردةَ النِّساءَ ومُشاحنةَ الكِبارِ، لكن لوالده سيطرةٌ شِبْهَ مُحكمةٍ على عنقه، لذا



كثيرًا ما كان يصطحبه رغمًا عنه للمسجد بُغية طرد بعض الشياطين من رأسه..

أما الطبيب فقد كان يتوقع الشكاوى عقب الصلاة، فبخبرته الطويلة كان يدرك أن التذمُّر الحقيقي هؤلاء يبدأ عقب الصلاة، وعندئذ ينصحهم بمراجعته في أقرب وقت ممكن قبل فوات الأوان، ولم يحدث أن صدَّقَ أحدهم تشخيصاته ما إذا كانت بسيطة، ونتيجة لهذا صار غالبية أهل البلدة من المختضرين!

(راجح) يرى قُدودُ النسوة مجردات من الثياب أثناء الصلاة في مُخيلته المريضة، ورئيس المخفر يضع يده على سلاحه الساكن في الجراب كلما ركعوا وسجدوا، وكأنما يتأكد وجوده هناك، صورة ذلك السلاح البراق الجميل لا تُفارقُ مُخيلته أبدًا..

(مشهراوي) يحلم بتطليق زوجته، و(جعفر) يحلم بقتلها، و(جسار) البقال يتخيل نفسه أغنى من (هارون الرشيد)، تحيط به حسناوات القِيان، ويسهر على راحته عبيدٌ مِلاحٌ غِلمان..

والأسوأ أن هذا كله يتمُّ بقيادة شيخ لا يكفُّ ذهنه عن تصور عضة ذئب شرس حالك كعتمة الليل في كل شبر من جسده وكأنه هوس، وفي النهاية تلا بفكر مُشتَّتٍ ومُخيلة محمومة:

- (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من الظلمات إلى..)

لم يتنبهْ واحدٌ من المصلين لذلك الخطأ سوى الفتى النحيل الوسيم الذي تلا مصححًا:

- (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجهم من النور إلى الظلمات..)

انتبه الشيخ (جبران) للخطأ غير المقصود، ثم تنبَّه - هلعًا- إلى أنها المرة الأولى في حياته المهنية بأسرها، فتمتم بنبرة مغيبة وبصر زائغٍ بذات الخطأ مُتشبثًا به! وكأنما يُصرُّ على أنها الآية الصحيحة! فعاود الشاب التصحيح بإصرارٍ، مما دفع الشيخ إلى الركوع على الفور مُكبرًا بغيظٍ مكبوتٍ ومن دون أن ينهي الآية الكريمة!

- "الله أكبر.. سمع الله لمن حمد!"

لن ينسى ذلك الصوت للأبد.. أصابه مجرد سماعه بغمامة الكآبة التي لا تزول بسهولة، في قرارة نفسه كان مدركًا أن الشاب قام بما يتحتم عليه فعله من صواب، لكن الغيظ اشتعل كجَذوةِ النارِ في مخزنٍ للقشِّ، بين ثنايا جوفه وقلبه وأحشائه، وشعر بالدهشة والذهول للكراهية التي أصابته من جرَّاء ذلك، كانت كراهية بلغت مدى تمنى الهلاك لذلك الشاب البريء!

ومن دون أن يشعر زاد من سرعته في أداء الفريضة بُغيةَ إلقاء نظرة على وجه ذلك الشاب الذي استحقَّ بُغضَه غير المبرر.. مَنْ كان بحقِّ الله؟ أهو غريبٌ أم ماذا؟ كيف لا يتذكَّر ملامحَه؟



- "السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.."

وانتظر هُنيهةً قبل وثوبه للوراء والنظر بشوقٍ، فوقع بصرُه على وجهِ رجولي لشابٍّ حَسَنِ التقاسيم والتكوين، لكنه لا يهتمُّ بقص شعره وحلاقة ذقنه كما يبدو عليه..

كان يرتدي سُترةً بسيطةً، وقد تهدلت خُصلاتٌ من شعره الأسود الناعم على عينيه العسليتين، فتفكَّرَ الشيخُ - مغتاظًا- في أثر تلك الخصلات وتلكم العينين على أفكار بنات الناس، وتفكَّر بغمٍّ وشرود في حكايته البائسة مع صلعته ذات الزبيبة التي يخفيها بالعمامة على الدوام..

كانت دهشته في تزايُدٍ من مدى خُبْثِ أفكارِه وقَسوتِها، فاستغفرَ رَبّه العظيمَ بلسانه وقلبه بلا كَلَلٍ، وإن لم يتمكن من زحزحةِ بصرِه عن الشابِّ الذي بدا سارحًا في شيء لا يعلمُ سواه إلا الله ..

نهضَ أول من نهض (جسار)، فسار بخطواتٍ متعجِّلة صوب الباب مغادرًا..

وعندما فتحه، لفحتْهم جميعًا ريحٌ باردة بعثت القشعريرةَ في أوصالهم وكأنه تيار كهربائي، فضم الفتى سُترته الجلدية بقوة، وقال عبارةً أثارت استغراب بعضهم:

- يا له من ظلامٍ غريب!

ثم شقّ طريقه للخارج.. وكانت تلك آخر مرة يرونه بها! إذ ارتفعت صرخته المروعة بطريقة انخلعت لها قلوبُهم، فوثبوا على أقدامهم، ومن ثم تدافعوا نحو الباب وأولهم (جسار) الذي ردّدَ برعبٍ لا يوصف:

- ما كان هذا؟

في حين ردد المؤذن أدعية محمومةً ويدُه على موضع قلبه، وسارع الشاب الوسيم بفتح الباب على مصراعيه، ثم لم يلبث أن فترت حماستُه..

لم يكن الظلام غريبًا، كان مُخيفًا كرعب قصص يوم القيامة وعذاب القبر، في الأحوال المعتادة كان بإمكان أي امرئ رؤية البيوت على ضوء مصابيح الزيت وهو خارج، وحتى وإن انطفأت لا يزال بإمكانه تبينها..

لكن الظلام هذه المرة كان دامسًا بقوة لا توصف، وكأنهم ينظرون للخارج من مناظير العميان! والذي زاد الأمر سوءًا هو صوت الصراخ الأليم لشخصٍ يتعذب عذاب الويل، صراخُ ضحيةٍ تخللتهُ أصواتٌ ضاحكةٌ كريهةٌ لمعذبيه!

ارتجف بدن المؤذن وهو يصيح وعيناه جاحظتان:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! أسمعتم؟ هذه أصواتهم!



- أصواتهم؟

- أصوات الشياطين!

- تعقّل يا رجل! منذ متى تسمع أصوات الشياطين كي تألفها أذنك؟

فوجئوا أكثر بالشاب يحاول الاندفاع خارجًا، فوضع أكثرهم أياديهم على كتفيه لمنعه صائحين:

- إلى أين يا بُني؟

- ألم تسمعوا؟ يجب أن ننقذه!

- ننقذ من يا بني؟ لقد انتهى الفتى!

وهنا صاح (جسار) هلعًا:

- ماذا نصنعُ إذن؟

كان يسأل عن موقفهم وعمّا يواجهونه بالطبع، فلم يكن يكترث كثيرًا لحياة ولده، وبالتأكيد كانوا يعلمون ذلك لكنهم تجاهلوا الأمر..

أبعد الشاب أياديهم عنه بحدَّةٍ وصوته يرتفع بذات الحدَّة:

- نخرج من هنا طبعًا، معا..

- هل جُننتَ يا بني؟ نحن نجهلُ ما يقبع بالخارج بانتظار خُطوة حمقاء كهذه..



وتمتم الشيخ (جبران) متهكمًا رغم دقة الموقف وخطورته:

- يا له من متهورٍ طائشٍ!

تجاهله الفتى قائلًا للبقية:

- ماذا تقترحون إذن؟ البقاء حتى مطلع الفجر؟

- يا لها من فكرة سديدة!

- فعلًا! رُبَّ رميةٍ من غير رامٍ! فلنجلس ولننتظر شُروق الشمس!

أشار الشاب للخارج صائحًا بنبرةٍ ذاهلة:

- وماذا عن البائس الذي..

قاطعَهُ الشيخ دون أن يملك إخفاء مَقْته:

- ماذا عنه؟ ألم تدرك بعد أنه انتهى؟ والآن أغلِقُوا الباب بسرعةٍ..

تكاثروا على الباب حتى أغلقوه، ثم تراجعوا للوراء مُتجاورينَ، فلحق بهم الشاب متجهمًا يتبعه الصبي الأشقر..

المؤذن يردد أدعيةً لا حصر لها، وجسمُه ينتفضُ بين الفَينةِ والفَينة، ثم يسارع بسحب مصحف صغير والقراءة منه.. التوتُّر قد غزا بعض الوجوه، والخوف واضح على أكثرها، والشاب الوسيم لا يُظهرُ توترًا أو خوفًا، بل يُراقِبُ الوجوه ببصرٍ خاوٍ..



(سعد) البلطجي ينظر من خلال فجوات الزخارف عبر نافذة المسجد، قبل غمغمته الراجفة قليلًا:

- لا أتبينُ شيئًا، العتمة أحلك من قلبِ كافرٍ!

- رُحماك يا الله!

- ما الذي يحدثُ بحقِّ الله؟ أهي القيامة؟

- "لا بُدَّ أنها كذلك!"

كذا صاح المؤذنُ وقد كفَّ عن التلاوة.. بدا وكأن عقله قد كفَّ عن التفكيرِ كذلك، فقد أطلق صرخةً قصيرةً قبل استرسالِه برُعبٍ لا يُمكنُ وصفُه:

- أتت الساعة أخيرًا، والخاطئ سيُحاكَمُ على أفعالِه!

قال (جعفر) ببرودٍ مُدهشٍ:

- وماذا في ذلك؟ نحن قوم مسلمون، ولم نفعل ما يستوجب الخوفَ..

رَمَقَه الشيخُ (جبران) بأقسى نظراتِه،في حين أعطى الطبيبُ (سائد) ظهرَه أحدَ الجُدرانِ وهو يتمتمُ مُرتجفًا:

- القيامة؟

وكأنه لم يكن يؤمنُ بوجودِها..



إلا أن الشابَّ قال برصانة:

- لا أظنُّ..

صوَّب الشيخ نظرات قاسيةً صوبه وهو يقول بصرامة:

- ماذا؟ ألا تؤمن بالقيامة؟ أأنت مسيحي؟ لربما مُلحدًا!

- لا لستُ كذلك.. لكن القيامة لا تحدث فجأة.. أين العلامات الكبرى؟

- ربما حدثت ونحنُ في هذه البلدة الملعونة، لا ندري عن وقوعها شيئا!

- ما هذا الهراء الذي تقولونه؟ أين الأعور الدجال ويأجوج ومأجوج؟ أين المهدي المنتظر وسيدنا (عيسى) عليه السلام؟

احتقن وجه الشيخ بشدة، ثم نطقَ قائلًا بغلظة:

- أتجدِّفُ أيها الشاب؟

نظر إليه الشاب قائلًا بدهشة:

- أُجدِّفُ؟ أثمة خطأ فيما قلتُه يا شيخ؟

وقبلَ أنْ يردَّ الشيخُ (جبران) ردًا غليظًا آخر، فوجئ الجميع بأصوات طرقاتٍ قويةٍ تتصاعَدُ على باب المسجد..

***



أخيرًا فَقَدَ المؤذن أعصابه تمامًا، فقهقه قائلًا بمرحٍ:

- لقد أتوا أخيرًا!

- مَنْ أتى؟ ولماذا؟

- مخلوقاتُ الظلام! ستأخذ أرواحنا إلى جهنم وبئس المصير!

- ما هذا الذي تَهْرِفُ به؟

أخيرًا نطق (جعفر) الجزار، فتساءل بنبرةٍ خافتة:

- هل نفتحُ؟

رَمَقَهُ الجميع بنظراتٍ مُستنكرة،فانكمش على نفسه متأمّلًا التطريز شبه المتناسق في بساط المسجد، فبدا مَظهرُه مُضحكًا خصوصًا وأن جثته بحجم جثة الثور..

فجأة، وفي لحظة تبدت لهم غادرة، اندفع المؤذن صوبَ الباب، فارتفعت أصواتُهم الهَلِعَةُ بآنٍ واحد:

- "لا تفتح الباب!"

لكنه تجاهلَهم وفتح الباب على مصراعيه وقال زائغَ البصرِ ولُعابه تحرر من فمه المفغور:

- يا أهلًا وسهلًا! شرفتم بيتَ الله!



تراجعوا جميعهم مغطين وجوههم بأياديهم، وقد توقّعوا الشَّرَّ بأبشع صوره، إلا أن شيئًا لم يحدث، وظل المؤذن واقفًا يُردِّدُ عبارته تلك من دون استجابة ما..

كَفُّوا عن هَلَعِهم قليلًا، واقتربوا أكثر محاولين لملمة أشلاء شجاعتهم، وقد غمغم (جسار) البقال بنبرةِ ضيقٍ واضحةٍ:

- ربما كانت مجرد دُعابةٍ سَمِجَةٍ..

بدا الأمر منطقيًا للبعض أكثر، لكن للأسف، لم ينعموا بالارتياح لذلك الرأي لأكثر من نصف ثانية..

ففي نصف الثانية التالي، فوجئوا – بأعين غير مصدقة، ووجوه شاحبة– بقبضة ماردة زرقاء تقبض على وسط المؤذن الذي كان يمد ذراعيه في الهواء وكأنما يستقبل ضيفًا، فاعتصره واعتصره حتى جعل الدم يتفجّرُ من محجريه ومنخريه وأذنيه!

ثم سمعوا – والرعب يُشوِّهُ وجوههم– صوت عظام الرجل تتحطم، ومن ثم سحبته تلك القبضة العملاقة المفزعة إلى جوف الظلمات..

- "لا!"

قالها الحاجُّ (راجح)، الذي انكفأ على الأرض مُغطيًا رأسَه بذراعيه، وفي جنون صرخَ رئيس المخفر وهو يُشهِرُ سلاحه للمرة الأولى في تاريخ حياته المهنية:



- أوصدوا الباب! أوصدوه!"

لم يجرؤ أحد سوى الشاب على تنفيذ الأمر، ثم عاودوا التقهْقُرَ حتى التصقوا بالجهة المقابلة، والغريب أن رئيس المخفر لم يجد الجرأة في نفسه لإطلاق النار على تلك القبضة المَسخية العملاقة، وبذُعْرٍ يستحيلُ وصفُه صرخَ (راجح) ودموع الفزع تنهمِرُ من مُقلتيه الغائرتين:

- إنها القيامة حقًّا، وتلك المخلوقات هي شياطينها!

ورغم دِقّةِ الموقف تساءل الشابُ بعصبية:

- وما علاقة الشياطين بالقيامة؟

- يا إلهي! ارحمنا يا إلهي!

جلس الشاب أرضًا وهو يهمسُ بصوتٍ شِبْهِ مَسموعٍ:

- ليست مُزحةً إذن..

- ماذا كنتَ تتوقع؟ تلك الذراع وتلك القبضة كانتا لعفريت من الجانّ الأزرق!

- ولماذا تهاجمُنا العفاريتُ إذن؟

- وما أدراني عليك اللعنة؟

كانت عصبيتهم قد ازدادت عددًا من الدرجات، ما رأوه كان حقيقة وليس وهمًا، دم المؤذن الطازج على بساط المسجد عند مقدمة الباب يؤكِّدُ ذلك..



- "ربما نحن نعاقَبُ على خطايانا فعلًا.."

التفتوا جميعهم إلى الشيخ (جبران) الذي أظهر وجومًا جعلهم مشدوهين، وبحدة شديدةٍ صاح (جعفر) وسبابته مُصوَّبةٌ باتجاهه:

- أنت تقول ذلك يا شيخ؟

- ما رأيناه كان الهول.. وأي هول؟ أي هول ذاك الذي تنبعث منه قبضةٌ عفريتيةٌ عِملاقةٌ من قَلْبِ الظلمات؟ إن ثمة حكمة فيما حدث، خصوصًا أن (عابد) كان..

ثم استسلم للصمت، فألح عليه (جعفر) بخشونة:

- ماذا؟ (عابد) كان ماذا؟

سكت الشيخ (جبران)، وإن أفصح صمته واتساع بصره عن مكنون من الأسرار والخبايا المَخيفة في عَقله وقلبِه..



3

- "يؤذّن للصلاة وهو سكران؟"

سدد الشيخ (جبران) نظراته إلى رئيس المخفر المستنكر قبل أن يومئ برأسه إيجابًا، فاتسعت عينا الأخير أكثر قبل أن يردف:

- وأنتَ كنتَ تعلم؟

- وماذا عساي أفعلُ؟ قد حاولت مرارًا نصحه لكن للأسف..

- للأسف؟ مؤذن بيت الله رجلٌ سكّير؟ كيف لم تطرده؟

- وأين أجد مُؤذنًا غيره؟ لا يوجد من يحلُّ محلّه..

قال الشاب مستنكرًا:

- ماذا عنك أنتَ؟

عاود الشيخ رمقه بنظراتِ الكُره وشفتاه تتمتمان بغيظٍ مكبوت:

- الأمر ليس بتلك السهولة التي تتصورها يا فتى!

- حقًا؟ أتدري إذن؟ أنا لم أعد أستغرب موضوع عِقابنا على خطايانا!

- ومَنْ أنت بحقِّ جهنم؟

تبسم الشاب مستغربًا وهو يردُّ:

- أتسألني حقًا أم ماذا؟

- بل أسألك، أنا لم أتشرف بحضرتك بعد.. مَنْ أنت؟ من هذا يا جماعة؟

كذا تساءل الشيخ وهو ينظر في وجوه القوم، فردَّ عليه الشاب بعبوس:

- مجرد عابر سبيل غريب سمع الأذان فلبَّى النداء، واسمي هو (شاهر)..

صمت الشيخ ممتعضًا، في حين قال (مشهراوي) مُنزعجًا:

- لا أظنُّ هذا وقت التعارف يا رجال، علينا أن نجد حلًّا لمشكلتنا الرهيبة..

تمشَّى (جعفر) كالمتريض وهو يهتفُ:

- ننتظر مطلع الفجر كما خططنا من قبل..



في حين أخذ الطبيب (سائد) يردّدُ بهمسٍ سمعه الجميعُ:

- أوهام.. مجرد أوهام ابتدعتها عُقولُنا!

- يا لتلك الأوهام التي تصيبُنا جماعة! يا لتلك الأوهام التي خلّفت لنا بقعة الدم الهائلة تلك!

كذا قال الشيخ مُتهكمًا، وتابع بمقلتيه الشاب وهو يتخذ لنفسه زاوية حيث أخذ يُراقِبُ من إحدى نوافذ المسجد..

عجبًا! لقد شعر الشيخ بكراهيته له في تزايد.. لماذا؟ لماذا يشعر بالمَقت كلما أدار رأسه جهته أو سمع حرفًا من حروف كلماته؟

وعاود النظر إليه، فوجده شابًا وسيمًا حَسَنَ التكوين.. أما عنه فيمتاز بصلعة قبيحة، وبدن [illegible]رهل، و[illegible] [illegible]قوّضُ من أهل بلدة المنكر هذه.. أتراه السبب إذن؟

لكن أفكاره اختلفت تمامًا لما حوّل بصره جهة الصبي الأشقر الجميل، كان يشعر براحةٍ وإعجاب كلما نظر إليه، ولم يحاول معرفة كُنْه الصبي رغم أنه يراه للمرة الأولى في حياته – أو أنه رآه من قبل ونسيه–، لكنه لم يستطع كَبْحَ جماح الراحة النفسية التي يستشعرها كلما وقع بصرُه على وجه الصبي المَليح..

هل هو شقيقُ الغريب؟ ثمة مِسحةُ تَشابُهٍ بينهما، لكنه لن يسأل، حتمًا لن يفعل..

- "أنا لا أستطيعُ الوقوفَ مَكتوف اليدين هكذا.."

سمعه الجميع وهو يطرق الجدار بقبضته عدة مرات، فتحول انتباههم الكامل نحوه، في حين هتف (سعد) ساخرًا:

- وماذا تريد أن تفعل يا فارس الزمان؟

بدا وكأن (شاهر) قد تجاهل سخريته عندما أجاب مُخاطبًا إياه بجدية:

- ماذا لو أشرقت الشمس وبقي الحال على ما هو عليه؟ ثم إنكم قد نسيتم أمرًا مُهمًا وخطرًا، ماذا يحدث لأهاليكم الآن؟ ماذا يحدث لزوجاتكم وأولادكم الآن؟ هل يُهاجَمون من قبل مخلوقات الظلام تلك أم ماذا؟

هوى كلامه على رؤوسهم كحربات الصواعق، حقًا ما يقوله، هل أهالي البلدة بخير أم يتعرضون لكوارث مُروِّعة مماثلة؟

لكن (جعفر) قال متهكمًا وكأن الأمر لا يعنيه بتاتًا:

- أراهن بدكاني أننا وحدنا مَنْ يتعرض لهذا العقابِ المُخيف.. نحن المسؤولون كل المسؤولية أمام الله وأمام نبيه عن كل تجاوزاتنا التي حدثت، فنحن لم نحرك إصبعًا لتغييرها..

ورمق رئيس المخفر بنظراتٍ تتقاطرُ اشمئزازًا، فعبس الأخير صائحًا:

- ماذا؟ أتتهمني بتجاوزاتك المزعومة؟ هل جُننت يا ابن..



صاح (جسار) وقد انتابه الذُعر:

- نحن في بيتِ الله!

صَمَتَ رئيس المخفر بغتةً قبيل تبسمه مُستهينًا، ثم حَدَّقَ في السقف قائلًا:

- الواقع أنكم حِفنةٌ من الأوباش الذين أخذهم العِزَّةُ بالإثم، وما دمنا "في الهوا سوا" كما يقولون، دعوني أذكركم أن التجاوزات التي تتحدثون عنها مُتعلقةٌ بكم كلكم، وربنا أمر بالستر..

هتف (جعفر) مُتحديًا:

- لا، أفصح أرجوك! لا تدع الفضول يقتلُنا!

- أنت بالذات تخرس! تحاول إيهام الجميع أنك وليٌّ من أولياء الله الصالحين، بينما أنت مُجردُ شيطان إنسي يعيثُ في الأرض فسادًا..

احتدَّ الشيخ قائلًا بنبرة غضبٍ:

- يا سيدي لا تتهم الناس جُزافًا، كما أن ربنا أمر بالستر كما تفضلت أنت، واحترموا بيت الله الذي نحن فيه..

لكن رئيس المخفر تجاهله وهو يواصل حديثه مُخاطبًا (جعفر):

- لا تدفعني إلى النُطق يا (جعفر)، فأنت كغيرك من أهالي هذه البلدة الملعونة، مجرد نصابٍ ووغدٍ أيضًا!

وهنا صرخ (جعفر) كالممسوس:



- لا انطق.. أتحفنا بدُرَرِكَ الزائفة! كيف صار وغد جبان مثلُك مسؤولًا عن أمن بلدتنا؟

- طظ فيك وفي بلدتك يا ابن..

- "كفى!"

رَدَّدَ الصدى صيحةَ الشيخ فصمتا من فورهما..

- "لن أسمح أبدًا بالتفوُّه بمثل تلك السفالات في مسجدي.. هل جُننتما؟ أأصابكما مَسٌّ أم ماذا؟ نحن قوم مسلمون لا همج تربوا في الشوارع ومستودعات القمامة!"

صمتا والكره بادٍ عليهما كلٌّ تجاه الآخر، فتنفَّس (مشهراوي) الصعداء قبل أن يقول:

- هداكما الله..

ابتسم (جعفر) بسمةً مُستخفَّةً أثارت حفيظة رئيس المخفر، فلوَّحَ الأخير بإصبعِ سبابته تجاهَهُ وهو يقولُ بغيظٍ مِنْ بين أسنانه:

- إذن، فاعلموا أن الوغد كان يبيعكم في الآونة الأخيرة لحوم الكلاب الضالة كي تلتهموها على موائدكم أنتم وأولادكم!

اتسعت عيونهم أشد اتساع وهم يحملقون في سحنة (جعفر)، الذي فقد ثقته بنفسه دفعة واحدة وقد اصفرت سحنته تمامًا..



ثم بوغتوا جميعًا بسماع أصوات الطرقات الرهيبة تتصاعَدُ مجددًا على باب المسجد،فتبادلوا نظرات ملؤها الرُّعبُ والفزعُ الشديدان..

***

قال رئيس المخفر معاودًا استخراجَ سلاحِه الأسود اللامع من جرابه:

- إياكم وفتح الباب..

- ماذا تحسبنا؟ مخابيل؟

كانت أبصارهم مُتجهةً صوبَ الباب، ما عدا بصر (مشهراوي) الذي أغمده في مُقلتي صديق عمره (جعفر)، وبسُخطٍ هَتَفَ به:

- لا بُدَّ وأنهم قد أتوا من أجلِك!

رَمَقَه (جعفر) بعينين زائغتين من فَرْطِ الرُّعب، ثم صاح:

- صدقته يا (مشهراوي)؟ صدقت اللئيم المُخادع؟

- ولِمَ لا؟ أنت أكبر وغدٍ عرفته في حياتيَ!

- ماذا تقول يا (مشهراوي)؟

صارت الطرقات أقسى وأخشن، فقال (مشهراوي) بتهكُّمٍ رغم ذلك:

- عِقاب الله آتٍ يا (جعفر)، فكُنْ مستعدًا!



- الله يأخذكم إلى سعيره!

وتراجعَ كالثور الهائج استعدادًا لمهاجمة أحدهم، فصوَّب رئيس المخفر سلاحَه إليه قائلًا بصرامةٍ:

- إياك.. اذهبْ وافتح الباب!

- ماذا يا وغد؟

- كما سمعت!

حولوا جميعهم أبصارهم إلى رئيس المخفر، وبنبرةٍ مُتلعثمةٍ تساءل (جسار):

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- أنوي معاقبة المجرم على أفعاله.. ألا تبتغون النجاة؟ كيف ننجو إذا دافعنا عن مجرم كهذا المجرم؟

وهنا قال (شاهر) بصرامةٍ مُماثلةٍ:

- كما ندافع عمَّن تستر على أفعاله!

- ماذا تقولُ يا فتى؟

- أقولُ إنك كنت تعلم طِيلةَ الوقت بجرائم (جعفر)، فلماذا لم تُلقِ القبضَ عليه إذن؟

- لم أكن متأكدًا، كان علي ضَبطُه مُتلبسًا..



قهقه (جعفر) قائلًا بمقت:

- أم أنك كنت تنتظر اللحظة المناسبة لابتزازي؟

- بإمكانك قولُ أي شيء الآن،لكنك لن تضعني في دائرة الشبهة أبدًا، أنا أنظف وأشرف من أي صعلوك في هذه البلدة، أنا مُنفذ القانون هنا، لذا آمرك بالتقدُّم نحو ذلك الباب وتقبُّل مصيرك كرجلٍ وإلا..

ورَفَعَ سلاحه في رسالةٍ جَليةِ المعنى، فارتعشت شفتا الرجل الضخم قليلًا وهو يتمتم:

- أفضل أن تُطلقَ النارَ عليَّ..

انتفضت أبدانهم عقب سماع دوي الطلقة، فأنشده (جعفر) وهو ينبش جسده ملهوفا بحثا عنها، لكنه لم يجدها لحسن حظه..

- "لن أكرر الأمر.. الطلقة التالية ستكون في كرشك.. تحرك!"

اقشعرَّ (جعفر) وهو يسير بقدمين زلقتين، فقال (شاهر) غاضبًا:

- قد يكون مُدانًا يا سيدي في عرفك، لكنني أرفض أسلوبَك هذا..

انحرف مسار السلاح ليصير مواجها للفتى..

- "أتبغي فتح الباب عوضًا عنه؟"

صمتَ (شاهر) وهو يتنفسُ بعمقٍ، ثم ردَّ بحزمٍ:





- أجل!

كان لكلامه أثرُ وَقْعِ الصاعقة عليهم، إلا أنه تجاهَلَهم جميعًا وهو يتجهُ صوب الباب..

- "لا تتهور يا فتى.."

ورمقه (جعفر) بنظراتٍ غارقةٍ في العرفان والامتنان، لكن (شاهر) تجاهله وتجاهلهم مُسارِعًا بفتح الباب قبل أن ينال منه الخوف أو التردُّد..

حدَّق شاردًا في الظلمة المخيفة، وبشرودٍ أكبر غمغمَ:

- توقّفت الطرقات..

وأضافَ:

- لا أحدَ على الباب!

فوجئوا - وفوجئ هو أكثر- بشيءٍ عملاق داكن يَثِبُ عليه ويوقعه أرضًا، وسمع صُراخهم الجنوني يكاد يصمُّ أذنيه، لكنه لم يكترث لذلك فقد غابَ عن الوعي..



4

عندما أفاق (شاهر) من غيبوبته، وجد الصبي جالسًا عند رأسه وهو يمسحُ له جبهته برفْقٍ..

- "ماذا حدث؟"

ونهض ببطء مُتحسسًا صدغَه، فوجد الرجال يرتجفون وبعضهم ينتحبُ!

- "ماذا حدث؟ أين (جعفر)؟"

تطوع (راجح) بالإجابة، إذ قال وهو لا يكف عن النهنهة:

- انتهى! افترسه الوحش الأسود واحتمل جثته بأنيابه خارجًا!

- رُحماك يا إلهي!

قال (مشهراوي) كالأبلهِ مُحدقًا بالسقف:



- كان يشبه الكلب، لكن أنيابه مثل أنياب الأسد! لم يفترس سوى (جعفر) و(جعفر) وحده..

إذن فنحن نُعاقَب على خطايانا فعلًا!

بدا (شاهر) غير مقتنع بذلك الكلام، لكنه قرر الاحتفاظ بأفكاره لنفسه، وبوجهٍ عابسٍ تساءل:

- كم الساعة الآن؟

ونظر باتجاه ساعة المسجد المعلقة، فوجدها تشير إلى لسابعة صباحًا..

ابتسم بسمةً مريرةً، وبتجهُّمٍ قالَ:

- يبدو ألا منجاة لنا من الظلمات يا سادة!

قال رئيس المخفر ببرودة مداعبًا فوهة سلاحه:

- ربما كان هذا ظنّك، لكن رجل القانون يفكر بطريقة مخالفة تمامًا.. لقد علقنا في المسجد لغاية لا يعلمها سوى الله، وأظن أن تلك الغاية قد بدأت بالاتضاح أخيرًا..

تساءل (مشهراوي) مرتجفًا:

- ماذا تعني؟

تأمّل وجوههم وقد بدا منتفخ الأوداج، وبعزمٍ قال:



- يبدو أنها لحظة الحقيقة يا قوم، نحن عالقون هنا إلى أن ينتهي هذا الكابوس، والكابوس قد حضر لأجلنا نحن، ونحن فقط من يقدر على إنهائه..

- كيف؟

- بذات الطريقة التي أنهينا بها (جعفر).. لن نتمكن من الخروج إلا إذا أدنّا كل مجرم جاء إلى هنا مدعيا الإيمان والتُّقى! كلنا أتينا للصلاة، لكن هذا لا يمنع من وجود منافقين بيننا، ويبدو أن الظُّلمات لن ترحل والنور لن يبزغ إلا لو تبيّنا الطالح من الصالح!

تدخّلَ الشيخ (جبران) قائلًا بنبرةٍ حادة:

- حذارِ من التجديف..

- أنا لا أُجدِّفُ يا شيخ، أنا أبسطُ لكم الحقائق..

- وأنا لن أسمحَ بالمزيد، سنظلُّ ننتظر إلى أن يُفرِّجَ اللهُ علينا كَرْبَنا..

هرش رئيس المخفر ذقنه بسلاحه قائلًا باستهزاءٍ:

- لقد استلم القانون من هنا يا شيخ! آسف لكن الواجب ينادي، وقد اعتدتُ تلبية ندائه!

- ماذا تعني؟



قال (شاهر) بحزم:

- المعنى واضح يا شيخ، سيادة رئيس المخفر المحترم ينوي استجوابنا وتسليمنا للعدالة الإلهية على طريقة محاكم التفتيش!

- أنوي تسليم المجرم فحسب، وهذه ليست خطيئةً أبدًا..

- يلوح لي أنك تبحثُ عن منجاتك أنت فحسب..

- أنا لا أقلق من شيء ما دمتُ مُحقًّا، ثم إن سمعتي عَطِرَةٌ، لم يحدث أن قبلتُ رشوة من أحد، وقد قمتُ بواجبي تجاه أهل البلدة خير قيام..

- تبدو واثقًا بنفسك!

- وذلك هو سِرُّ نجاحي.. إذن.. من منكم يرغب بالبدء؟

صمتوا كأن على رؤوسهم الطير، فتبسم الرجل وهو يدق بسلاحه الجدار الذي وراءه، وبتهكُّمٍ قال:

- هذه الجلسة منعقدةٌ بأمر من رئيس مخفر بلدة "خرم الحنطة"، حيث سنبدأ باستجواب..

ورفع سلاحه صوبهم، ثم مرره ببطء فيما بينهم هامسًا:

- ب ب ب ب... بك أنت!

- أنا؟



قالها (جسار) البقال ويداه تنقران صدره بذُعرٍ، فصبغ رئيس المخفر كلامه ونبرته بلهجةٍ رسميةٍ وكأنه على وشك افتتاح مَحْضَرٍ:

- السيد (جسار النخل)، بقال بلدتنا، الرجل الذي سمعنا اتهامات كثيرة بحقّه..

- اتهامات؟

- يُقالُ إنك من المطففين.. فما ردُّك على هذا الاتهام؟

- كذب طبعًا.. لا يوجد دليل واحد!

- لسنا بصدد أدلةٍ ها هنا، بل سنعرض الاتهامات و..

- وماذا؟!

- وبابُ المسجدِ سيكونُ الحَكَمَ!

نظر له الشيخ (جبران) متسائلًا:

- ماذا تعني؟

- عندما كشفنا أمر (جعفر) الجزار تصاعَدَ صوتُ طَرقاتٍ تلكم المخلوقات على الباب.. إذن كل ما علينا فعله هو استعراض الاتهامات بخصوص كل شخص هنا، وإذا تصاعد صوت الطرقات فمعنى ذلك أنه قد أُدينَ!

قال (شاهر):

- لحظة واحدة، نحن لم نعلم بما اقترفه مؤذن المسجد إلا عقب أن صرعته قبضة المسخ ذاك..



كان رئيس المخفر يتذكر ذلك، وقد خشي أن يذكره واحد آخر لعدم إيجاده التفسير المناسب لما حصل، لذا قال بضيقٍ وخُشونةٍ بآن واحد:

- لستُ مُطالبًا بتفسير أمور خارقة للعادة، لكن أعتقد أنه إنذار رباني بأن نسارع بالاعتراف، فالعِقاب سيترل بنا شئنا أم أبينا، ومنجاتنا تكمُن بالاعتراف..

عاود (شاهر) التساؤل لكن بصلابةٍ هذه المرة:

- وهل ستعترف بخطاياك أيضًا أم ستظل تهددنا بسلاحك حتى تتأكّدَ هَلاكَنا جميعًا؟

- كفَّ عن استفزازي أيها الشابُّ، فلصبري حُدودٌ!

ثم ولّى اهتمامه شطر البقال البائس الذي ما زال مرتجفًا من قِمّةِ رأسه وحتى أخمصي قدميه، فشدَّد من لهجته عليه لما خاطبه بقوله:

- والآن.. هل تعترف بالتُّهم المنسوبة إليك؟

- أي تُهمٍ؟

- تُهم غِشّك للزبائن، بيع البضاعة الفاسدة والتلاعب بمكاييل الميزان و..

- أنا تاجرٌ أمين!



تبدت بسمة استهزاء على ثغر رئيس المخفر، وببرودة تمتم متأملًا وجوه البقية:

- تاجر أمين؟ يبدو أن الليلة ستكون طويلة حقًا..

كان (شاهر) يتابع ما يحدث وقد انبعث من أعماقه رفض تامٌّ، عندما شعر بأحد يجذب له كم قميصه لأسفل.. نظر مستغربًا فوجد الصبي الخائف يحاول أن يسترعي انتباهَه، فسأله برفقٍ:

- هل من خطب أيها الرجل الصغير؟

أشار الصبي إلى زاوية من زوايا المسجد من ورائهم، فأبصر (شاهر) رجلًا يجلس في الزاوية حتى التصق بها كالحرباء، حتى وجهه ملتصق هنالك، كان الرجل غريبًا عنهم، يرتدي جِلْبابًا وطاقية، ويتمسح بجدران المسجد وكأنه يتبرَّكُ بها!

***

أخيرًا تنبَّه القوم إلى ما استرعى انتباه (شاهر)، فحدقوا ذاهلين وأحدهم يهتفُ برُعبٍ:

- مَنْ هذا؟ وكيف دخل إلى هنا؟

قال (شاهر) وهو يقتربُ منه بحذرٍ:

- دعونا نسأله..

صاحَ (مشهراوي) بفزع:



- لا تقترب منه.. لا بُدَّ أنه.. بسم الله الرحمن الرحيم!

وهنا نَهَضَ ذلك الرجل فجأة، نهض بسرعة انخلعت لها قلوبُهم، ثم التفت ورَمَقَهم بنظراتٍ طويلةٍ مُتَّهمةٍ، حتى توقف بصره عند..

- "لماذا يتأمَّلك هكذا يا (جسار)؟ هل تعرفه؟"

بدا (جسار) وكأن السكتة القلبية قد نالت منه، كما أن علاماتِ الرعب المُبين قد رسمت أقسى تعابيرها على سحنته المُجعدة..

فتح الرجل الغريب فمه المشقق أخيرًا، وبأنين المُعذبين قال مخاطبًا (جسار):

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبك (صابر) من قرية النبع؟

- لا!

وسقط (جسار) على مؤخرته وأطرافه تهتز وترجف كأن تيارًا كهربيًّا سرى بها، في حين، رفع الرجل المُخيف جلبابه لفوق كاشفًا عن أشنع ساقين يمكن رؤيتهما، وهو ينتحبُ صارخا:

- تذكرتني يا (جسار)؟ تذكرت صاحبَك المشلول الذي أودع عندك ماله أمانة؟ أتذكُر خيانتَك للأمانة؟

وفي تلك اللحظة سمعوا كلهم صوت الطرقات المروع..



ورغم الخوف الذي شعر به رئيس المخفر، فإنه تَمالَكَ نفسه، وبدا رابط الجأش لما استدار نحوهم صائحًا بقوله:

- نحن نقوم بالصواب إذن.. إنها علامة من الله كنا بانتظارها مُطولًا!

وبانفعال التفت إلى (جسار) صائحًا به:

- اعترف يا (جسار)، اعترف بما ارتكبته بحقّ صاحبك هذا! يبدو أن خطاياك أكبر من مجرد التلاعب بمكيال الميزان وبيع أطعمة انتهى تاريخ صلاحيتها!

كان الموقف غريبًا وعصيبًا، لم يملك معه أحد النطق بحرفٍ واحد..

لكن (جسار) نَطَقَ، فصرخ وسبابتُه تشير إلى الرجل:

- هذه خُدعةٌ! أنا لا أعرف هذا الرجل.. لا أعرفه!

- الإنكار لن يفيدَك.. اعترفْ!

صارت الطرقات أشد وأقوى، فازدادت عصبية رئيس المخفر وقسوته عندما صاح مُهددًا بسلاحه:

- افتح الباب، عليك اللعنة!

- لا!

- افتحه وإلا أطلقت النار عليك.. افتحه ما دمتَ بريئًا!



- لا!

- إذن لست ببريءٍ كما تحاول إيهامنا يا وغد!

ونظر باتجاه القوم صائحًا بهم:

- احملوه وارموه خارجًا!

- هل جُننت يا سيدي؟

نظر رئيس المخفر إلى (شاهر) وصرخ بوجههِ:

- كلمة أخرى وألقيك أنت بدلًا منه! تريدون النجاة؟ إذن لا تقفوا في وجه العدالة، دعوا العدالة تأخذُ مَجراها!

بدا التردد على الوجوه، فأطلق الرجل طلقةً في الهواء صائحًا بثورةٍ:

- الآن!

كان هذا أكثر من كافٍ،فانقضوا كلهم – عدا (شاهر) والصبي– على (جسار) الذي أخذ يصرخ كمن مَسَّهُ جانٌّ، فجروه حتى الباب والفتى (سعد) يسارع بفتحهِ، في حين قاومهم (جسار) بعنف وهو ينعتهم ألفاظ شائنة، لكنهم لم يفلتوه..

وما هي إلا ثوانٍ معدودات حتى انبثقت ذراع أخطبوطية هائلة أرجوانية! فأحاطت بوسطه، ثم جرّته خارجًا وهو يصرخ أشنع صراخ حتى غاصَ في أمعاء الظلمات، وبالطبع لم تمسَّ واحدًا منهم بأذى!



- "رُفعت الجلسة!"

قالها رئيس المخفر بهذيانٍ مُراقبًا شبح الرجل الغريب، الذي كان يتلاشى رويدًا حتى اختفى عن الوجود كأن لم يكن..

نظر له (شاهر) قائلًا بقسوةٍ:

- لماذا لم تطلق النار؟

أجاب رئيس المخفر دون النظر إليه:

- كفاك مُكابرةً، لقد رأيت المخلوق الذي خطفه، لم يكن طبيعيًا بتاتًا..

- ربما لو كففْتَ عن إرهابنا بتفريغ الرصاص في السقف..

- قلت كفاك مكابرة! جيل مُزعجٌ يحسب أنه عليم بكل شيء!

سكت (شاهر)، لكن (مشهراوي) لم يفعل، بل صاح بوجه مُحتقَنٍ:

- الفتى مُحقٌّ، أنت لن تخسر شيئًا لو حاولت! أطلق النار على أية مصيبة تلج عبر هذا الباب في المرة القادمة وإلا قضينا جميعًا!

- في رأيي أننا في حكم الموتى ما لم تنفذ مشيئة الله، أليس كذلك يا شيخ؟



رمقه الشيخ (جبران) بنظرةٍ صامتة دون ردّ، فتولى (راجح) دَفّة الكلام نيابةً عنه:

- وفي رأيي أنك نصَّبتَ نفسَك مُفتيًا وقاضيًا علينا، وأنت لا تملك الحقّ في..

- بل أملكه، أنا رجل القانون الوحيد بينكم..

تمتم (شاهر) بشيء من التهكم:

- والوحيد الذي يملك سلاحًا!

- أتودُّ تجربته يا فتى؟ هذا ما حسبته! اصمت إذن ودعني أقم بعملي..

دَوْرُ مَن الآنَ؟

تبادلوا نظرات مُفعمةً بالتوتر، فتبسم رئيس المخفر مُتلذّذًا كأنها لُعبة مُسليةٌ يستمتع بممارستِها..

- "لا تبغون النطق؟ لا بأس، سأختارُ أنا إذن.."

ترددت الأدعية في رؤوسهم، تردّدت وترددت حتى سمعوا اسم..

- "الحاج (راجح).. هلمّ اعترف بخطاياك!"

***



لم يحاول (راجح) إخفاء خوفه وهو يقول مهمومًا:

- لم أرتكبْ ما يستوجب الخوفَ ولله الحمد..

- أحقًا؟ أكنت أمينًا في تجارتك يا حاج؟

- الحمد لله..

- لم تخُن الأمانة يومًا؟

- مستحيلٌ، إني أخاف الله رب العالمين!

- تخافُ الله؟!

ردَّدَ رئيس المخفر عبارته مُستهينًا، ومن ثم سأل القوم:

- هل ما يقولُه صحيحٌ؟

- وكيف لنا أن نعلم؟

- أنا أسألكم عن أي شيء، عن أي معصيةٍ ارتكبها (راجح) وشهِدَها أحدُكم..

- لم يحدث أن صنع أمرًا قبيحًا، (راجح) رجل وقور ومشهود له بالكرم والأمانة، يكفي أنه زار بيت الله بعدد شُعيرات الرأس..

انفجر الرجل ضاحكًا حتى دمعت عيناه، وسَعَلَ بشدّةٍ وهو يصيح:

- سامحكم الله! حقًا إنكم لحفنة من المنافقين!



كنتم تلوكون سمعة الرجل في كل مناسبة أما الآن..

قال (مشهراوي) ساخطًا:

- كنّا نُرَدِّدُ إشاعات نلنا جميعنا نصيبنا منها..

- كلام لا بأس به، إذن فجسار نقي السريرة معتنق لمذهب مكارم الأخلاق، ورجل عارف ربه ودينه، أليس كذلك؟

- بلى..

بدا (جسار) مُسترخيًا، مُنبسطَ الأسارير إلى أقصى حَدٍّ الآن، لقد ثبتت براءته أمام الله وأمام القوم فمن أسعد منه؟

أو إنه كان كذلك قبل ظُهورِ تلك الفتاة من العدم!

أول من أبصرها (مشهراوي)، الذي تراجع للوراء مُتمتمًا كالمصعوق:

- بسم الله الرحمن الرحيم! ربنا عافنا واعفُ عنا!

كانت الفتاة صغيرة السن، لكن قوامها ناضج وكأنه لامرأة، مليحة الوجه ممتلئة المفاتن، تعلو مِسحةٌ من الحزن والكآبة سحنتها، كما أنها تفرد شعرها الكستنائي الطويل والناعم على عينها اليسرى..

كانت ترتدي قميص نوم أبيض يكشف عن ركبتيها وكتفيها، مشكلته الوحيدة أنه ملطخ بالدم موضع البطن!



استعاذوا بالله من الشياطين حتى كلّت ألسنتهم، أما رئيس المخفر فقد رَسَمَ بسمة محنكة على شفتيه متسائلًا بمكرٍ:

- إذن.. من تكون هذه يا حاج؟

- لا أعرفها! لا أعرفها!

- كلكم تكررون ذات الكلام، وفي النهاية..

مَنْ هذه الحلوة يا حاج؟ فتاة أسأت إليها؟ لطخت سمعتها؟ قتلتها؟

تكلمت الفتاة.. بصوتٍ حزين، ودموعٌ خالطها كُحلها الأسود هطلت من مقلتها المكشوفتين للعيان صاحت:

- طفلي.. أين طفلي؟

ارتعشت أطراف (راجح) وهو يصرخ:

- اغربي عنا يا شيطانة!

قال رئيس المخفر محتدًا:

- صه.. دع الفتاة تتكلم!

وواصلت الفتاة الانتحاب وهي تصرخ مُقتربةً بقدمين حافيتين:

- طفلي الذي أجهضته بالقوة يا مجرم.. أين طفلي؟ أين هو؟

- طفل مُجهَضٌ إذن! أهو غير شرعي يا حاج؟ آه! أتسمع أصوات الطرقات؟ تبدو لي كأصوات مطرقة القاضي!



صرخ (راجح) كالمجنون:

- كذب! كذب! أنا لا أعرف هذه الفتاة.. لا أعرفها!

وبتوتُّرٍ قال (شاهر) مُخاطبًا رئيسَ المخفر:

- يبدو صادقًا يا سيدي، أرى أن..

- صه أنتَ أيضًا! هل تأثرت بسهولة؟ ألم تسمع الاتهام؟ ألم تسمع صوت الطرقات المروع؟ لقد أُدين هذا الرجل ولا رجعةَ في حكم أُصدِرَ بقضاءٍ ربانيٍّ!

هل ستعترف يا (راجح)؟ أم ستكابِرُ وتماطِلُ كما صنع المرحوم (جسار) ومن قبله المرحوم (جعفر)؟

لم يستسلم (راجح)، بل صرخ مهددًا بقبضته:

- يا فُجّار! أنتم قلتم إن سمعتي عَطِرَة.. أتصدقون وهمًا؟ أتصدقون شيطانة متنكرة؟ إنها تابعة لإبليس اللعين! جنيةٌ أرسلها لتدميرنا جميعًا!

- الجواب بلا.. لا بأس.. أتودُّ فتح الباب أم نجرُّك إليه جرًّا؟

- إليكم عني!

وتراجع والشراسة بادية على ملامحه، فهتف رئيس المخفر ظافرًا:



- دليل إدانة جديد! ليت أحدكم يعترف! ليت أحدكم يثبت رجولته ويجرؤ على الاعتراف! كلكم أوباش تخفون من المصائب ما يكفي لملء آبار!

- "أين طفلي؟ هذا الرجل قتل طفلي!"

- من كانت يا (راجح)؟ زوجة طلقتها أم عشيقة نبذتها؟

- هي كاذبة! كاذبة!

- تريَّث يا سيدي أرجوك!

وبازدياد صوت الطرقات على الباب ساد الهرج والمرج..



5

تحوَّل فم (مشهراوي) إلى مدفع لإطلاق القيء، أما الباقون فقد ظلت أبصارهم مُعلقةً بالباب المفتوح الذي أرجحته الرياح..

لم يكن (راجح) بينهم، وبالطبع تلاشت الفتاة بعدما أدت مُهمتَها التي ظهرت لأجلِها..

ربت (سعد) على ظهر أبيه متسائلًا بقلقٍ:

- أبتاه.. أأنت بخير؟

- بخير؟ أي خير وأي.. ألم تكن تشاهِدُ؟ ألم ترَ ما أصاب عَمَّك الحاج المسكين؟

وتفوَّهَ برُعبٍ هائلٍ وهو يمسح فمَه:

- أكانت تلك المخلوقات المُشوَّهة.. أطفالًا؟



ردّ رئيس المخفر متجهمًا:

- بدوا لي كذلك، لولا مخالبهم المُروِّعة ووحشيتهم..

- أعوذ بالله من غضب الله! لكنهم لم يمسوه بسوء، فقط جَرُّوه خارجًا، ماذا تراهم يصنعون به؟

- ينفذون عقابَ الله به طبعًا.. لن يلعبوا معه الغُميضة مثلًا!

- على ماذا؟ ما الذنب الذي اقترفه الرجل؟

- ألم تفهم بعد؟ تلك المخلوقات كانت أطفاله! يعلم الله كم من النساء عرف ذلك الرجل! يعلم الله كم تزوج منهن أو عاشر بالحرام! يعلم الله كم من الأطفال أجبر نساءه على إجهاضهم مخافة الفضيحة!

- أعوذ بالله من غضب الله! كيف تبدو واثقا هكذا؟ نحن لا نرى إلا كوابيس وعفاريت وأشباح!

- الأمرُ كله بعضُه مُرتبطٌ ببعضٍ.. الأشباح هي الضحايا والشهود نحن، أما ما يأتي عبر هذا الباب فمتمثل بالعقاب.. ويبدو وأن الجزاء من جنسِ العمل!

في قَرارةِ نفسه آمن (شاهر) أن الرجل لم ينطق إلا بالصِّدق، ما رآه يؤكد ذلك، يبدو أن الظلام قد حَلَّ على البلدة ولن يغادرها إلا إذا اعترفوا جميعهم بخطاياهم، وتقبلوا العقاب المروع على ما اقترفوه من ذُنوب..



لكن لماذا؟ لماذا يجبرهم الطاغية على فتح الباب في كل مرة؟ إنهم يملكون الحق كل الحق في الذّودِ عن أنفسهم..

هكذا تنحنح وهو يرمُقُ رئيس المخفر بنظراتٍ حازمةٍ..

- "ماذا تريد هذه المرة يا فتى؟"

- "سيدي، لقد بدأتُ أقتنعُ بموقفِك.."

- "حمدًا لله!"

- "لكن.."

وتأمّلَ الوجوه المُتربصة به، وسمع رئيس المخفر يتساءل بنفادِ صبر:

- لكن ماذا؟

- يحقُّ لهؤلاء الدفاع عن أنفسهم.. أقصد نحن! فنحن لسنا مجرد أُضحيات وقرابين تُقدَّم للمَحرقة كلما أوقدتَ نارها..

- إلامَ ترمي؟

- ما دمتَ قد نصَّبتَ نفسك قاضيًا وجلّادًا في آن واحد، فاسمح لي –على الأقل– أن أكون محاميًا!

- ماذا قُلتَ؟

بدا كأنه سيسخر منه بعبارات مهينة،إلا أنه صمت مُقلبًا الموضوع في ذهنه..



وفي النهاية، رسم بسمةً راضية على شفتيه قائلًا:

- لا بأس، هذا حقُكم، وإن كنتُ أرى أنك تضيع وقتك سُدًى، فالعدالة الإلهية ليست بحاجة إلى أعذار وتبريرات بشرية..

- سأتحمَّلُ أنا المسؤولية..

- لا أدري كيف ستفعل، لكنها مُشكلتُك الآن..

- أشكرُك..

نظر رئيس المخفر إلى الوجوه المُحملقة مُتسائلًا:

- أتقبلون به محاميًا يذودُ عنكم؟

تبادلوا النظرات قبل هَزِّهم رؤوسهم علامة الإيجاب.. لا خيار لديهم..

- "إذن، من الآن فصاعدًا سيكون الأمر نظاميًا كما لو كنا في قاعة المحكمة، ولن نفتح الباب حتى ولو حطمتْهُ الوحوش إلا عند تأكُّد إدانة المُتهم!"

بدا الخَلاصُ على الوجوه، وكأنما الظلمات قد انقشعت أخيرًا، فنظر رئيس المخفر إليهم وقد ارتسم تعبيرٌ صارمٌ على تجاعيده شبْه الغائرة..

- "(سعد)!"

انتفض الفتى المشاكس حتى كاد يختلُّ توازنه، في حين شَحبَ وجه والده وهو يلتفت إلى رئيس المخفر صائحًا:

- ولماذا هو؟

- لأني أريد الانتهاء بسرعة..

- ماذا تقصدُ؟

- أقصد أن خطايا وَلدِك بعدد شعر رأسه.. لا يمكن إحصاؤها أبدًا!

- حاكمني أنا ودَعْهُ..

- سيحين دورُك بعدَه.. والآن يا بني، ما قولك بالاعتراف وتوفير الوقت على الجميع؟ كن رجلًا وتقبَّلْ مصيرك ببسالةٍ..

قال (شاهر) مُقاطعًا:

- بعد إذنك سيدي، أرى أن تترك لي مُهمةَ استجواب (سعد)..

- لا بأس.. إذا ناديته بالمتهم!

- وهو كذلك.. أرجو من المتهم أن ينظر إليّ ويتناسى البقية..

للمرة الأولى يجد (سعد) نفسه ينظر إلى (شاهر) مُناشدًا ومتضرعًا، فلم يشمت الأخير أو يتشفَّى، فقد كان صادقًا في عونِه ومحاولة إنقاذهِ للكلّ..



قال له (شاهر) برفقٍ:

- اسمعني.. لا بُدّ أن خطاياك لا تعدو مُجرد السُّباب ومُضايقة الفتية الأصغر سنًا والأضعف بنيةً، أليس كذلك؟

- بلى..

- مُتأكّد؟

- نعم..

- لا بأس، اعترف إذن بخطئك، وبإذن الله لن تُعاقَب على مثل تلك الهفوات..

قال (سعد) دامع العينين:

- أعترفُ وأُقِرُّ بذنبي، لقد ضايقتُ كثيرين، وأنا آسف لذلك حقًّا..

- وأنا أُصدِّقُك..

بدا الجميع مُرتاحًا لسماع ما يدور، وبالأخصِّ (مشهراوي) والد (سعد) الذي كان مؤمنًا بنجاة ولده رغم أفاعيله الرُّعن، فهي مجرد أفاعيل طيشٍ وتهوُّرٍ لا يمكن أن تؤذي أحدًا..

كان مُتشبثًا بذلك الأمل عندما اندلعت النيران..

نيران حقيقية لا مجازية! شعر الجميع بحرِّها ولَفحِها، فصرخوا بآنٍ واحد:



- "ماذا يحدثُ بحقِّ اللهِ؟"

برقت عينا رئيس المخفر وهو يقول بظفر:

- آه! يبدو أن المتهم كان يكذب! ألديك ما تُخفيه عنا يا فتى؟

بدا (سعد) مُمتقعَ الوجه، ثم بدا مَصدومًا مُرتعبًا لأقصى درجات الرُّعبِ لمّا أبصر رجلًا مُسنًّا مُندسًا في فِراشٍ، ويرمُقُ الفتى بنظرات الاتهام!

- "لكن لحظة، أليس هذا الحاج (سعفان) الذي قضى في الحريق قبل أعوام؟"

نظر الشيخ (جبران) إلى ملامح الرجل، حَدَّقَ في لحيته الرمادية ونظارته الضئيلة التي لطالما استخدمها المرحوم في تلاوة القرآن الكريم في جوف الليل، وبدهشةٍ عارمةٍ تمتمَ:

- هو بعينه! الرجل الطيب كان مَشلولًا، وقد قلتَ في تقريرك إن الحريق نَتجَ عن إهمالٍ منه كلَّفَه حياته، إلا إذا..

وصمت متسع العينين، ثم رَمَقَ الفتى وقد فغَرَ فاهُ، فحذا الجميع حذوه..

وهنا.. انهار الفتى جاثيًا على ركبتيه، وقد أخذ ينتحب ويلطُمُ كالنساء صارخًا:

- كان حادثًا بالفعل، مجرد حادث!



أغمض (شاهر) عينيه مُتألمًا وقد أدرك الأمر كله، ثم تمتم مُحاولًا التماسُك:

- ماذا فعلتَ يا (سعد)؟

- ألقيت بالسيجارة عبر نافذته بُغيةَ إفزاعه قليلًا، فما إن شاهدتُ ألسنةَ اللّهب المُندلعة حتى استبدَّ بي الرُّعبُ.. قد كان حادثًا، لم أقصد إيذاء الرجل!

تألّقت عينا رئيس المخفر ما إن تناهى إلى مسمعه صوت طرقات الموت على الباب، فهتفَ كالمنتصر:

- لكن العدالة تُخالفُك الرأي أيها الفتى، لقد ارتكبتَ جريمةً مُروّعةً، وأكادُ أشمئزُّ كلما فكرتُ في كيفية تحمُّلك تأنيب الضمير كل تلك السنين، إن بداخلك بذرةَ مُجرمٍ مُحنّك!

وكالمصدوم، التفت (مشهراوي) إلى ولده قائلًا كالمُحطمِ:

- لا بُدَّ للحقيقة أن تتجلى يومًا مهما نحاولْ مُداراتِها..

- أبتاهُ؟

- ألا لَعنةُ الله عليك! ألا لعنة الله على الدنيا كلها!

ثم فاجأ الجميع باندفاعهِ صوْب البابَ، وبكل ما أوتيَ من عزمٍ فتحه..



غريب ألا يحاول الابن حماية أبيه، أو أن يصرخ به على الأقل بألا يرمي بنفسه في أحضان التهلكة من أجل ذنبٍ اقترفه هو..

لكن (سعد) راقب هرولة والده ناحية الباب وبارقةُ أمل تشعُّ من عينيه المتسعتين، وكأنه يتأمّلُ طوق النجاة الذي أُلقي إليه وسط عاصفة هوجاء في عرض البحر الثائر..

انقبض قلبُه عندما خرج والده إلى الظلمات، وظل ينصت لخفقاته القوية التي بدت جدًّ مسموعة لأذنيه، وبخاصة عَقِبَ توقُّفِ الصراُخ والحريق والطَّرقات.. ووالده!

- "لقد جُنَّ الرجل!"

قالها رئيس المخفر في سُخريةٍ مُندهشًا، لكنهم لم يبالوا بما قاله وهم يحدقون بالباب غير مصدقين..

تمامسوا وكأنهم يخشون الهلاك لمجرد النطق:

- هل مات؟

- لا أسمعُ صُراخَه..

- ابتلعته الظلمات إذن، لن يعود..

- من يدري؟ لعله يرجع، لا أحسبه ممن اقترفوا خطيئةً كُبرى..

دوت ضحكةٌ ساخرةٌ مُجلجلةٌ، فالتفتوا مندهشينَ واجمين صوب رئيس المخفر..



- "ألم تفهموا بعد يا حمقى؟ الرجل علم بجريمة ولده وتستّر عليها! ما بالكم؟ ألا تنصتون؟ ألم تسمعوا ما قاله؟ أوليس هذا ما حدث يا فتى؟"

ورمق (سعد) بنظراتٍ قاسيةٍ وهو يقول بخشونةٍ رافعًا سلاحه:

- أجبْ يا فتى..

طأطأ (سعد) برأسه مُجيبًا بتخاذل:

- صحيح..

- أحسنت! والآن اخرج وابحث عن أبيك..

- لن أخرج..

- بل ستخرج رغمَ أنفك!

- قلتُ لن أخرج!

في تلك اللحظة، قُذفَ بجسدٍ مُلطَّخٍ بالدم عبر الباب، كأن الظلمات نفسها لفظته..

كانت جثة (مشهراوي) وقد تشوهت تمامًا بفعل مخالب حادة أو شيء من ذاك القبيل، ولربما كان نَصْلَ مُديةٍ لسفاح مريض، المهم أنهم لم يتعرفوه إلا من ثيابِه!

ومن جُعبته استخرج (سعد) مُطواةً ماضية النصل انقض بها على رئيس المخفر وهو يصرخ كالمسعور، فأنشده الرجل لحظة أطلق عقبها مباشرة النار على صدر الفتى!



- "ماذا فعلت؟"

هكذا صرخ (شاهر)، فيما كان (سعد) يتهاوى مُعتصرًا صدره المخضب بالدم، فانحنى مسار تصويب السلاح إليه هذه المرة، مع صُراخ عصبي لا يمزح:

- اخرس! إنك حقًا تثير أعصابي أيها الغريب، أتودُّ اللَّحاقَ به؟ أقسم أن أنفذ رغبتك إن لم تصمُتْ..

- تدعي العدالة وأنت مجرد طاغيةٍ يهتمُ لنفسِه فحسب..

وعضَّ (شاهر) شفته السفلى قهرًا حتى أدماها وهو يرمق جثة (سعد) بضيق وتحسُّر، ثم همس معتصرًا قبضته اليمنى:

- سيعاقبنا الله لأننا لم نحاول إنقاذه من هذا الجنون!

سمعه رئيس المخفر، فأمره بصرامةٍ عاتية أن يحمل الجثة ويلقيها للظلمات.. رفض (شاهر) الانصياع بادئ الأمر، لكن طلقة بين قدميه أجبرته على الإذعان ممتعضًا..

- "من الآن فصاعدًا لن يكون هنالك تردُّدٌ من أي نوع، من يرفض الخضوع لمشيئة الله سيموت من جراء رصاصة، أسمعتم؟"

وأشار بفوهة السلاح إلى الطبيب (سائد) بحدَّةٍ، فتبدت رهبة على وجه الأخير وهو يرفع كفًّا مُهدئةً مُغمغمًا:

- لا داعي لتهديداتك الجوفاء، سأُقِرُّ وأعترفُ بكل شيء!



6

الكلُّ أجمع أن على الفتى المثالي أن يكون خلوقًا مُطيعًا لوالديه، ومتفوقًا في دراسته، إضافة إلى عوامل أخرى..

والدة (سائد) كانت مُقتنعةً أن ولدها كذلك وأكثر..

وحدهما منذ وفاة زوجها جعلتها تعتبرُ وحيدها رَجُلَ البيت، ولقد عوَّضها كثيرًا عن الحبِّ البشري الذي افتقدته منذ زمن..

حين تستيقظ من النوم تجده قد حضَّر وجبة الفطور بنفسه، بيض مقلي، دائما البيض المقلي فهو لا يجيد تحضير أطباق أخرى.. يناولها قدح القهوة قائلًا بابتسامة لطيفة شوَّهتها السيجارة المتدلية من بين شفتيه:

- صباح الخير أيتها الأميرة النائمة!

تبتسم، وتتركه يقبِّل جبهتها وهي تردُّ:



- أميرة مرة واحدة؟

- عليَّ الإسراع إلى الجامعة اليوم..

- هل ستذهبُ برفقة (مجد)؟

- إنه صديقي الوحيد..

- يجب أن تكوِّنَ صداقاتٍ عديدة يا بني..

- كلما قلَّ معارفي ازددتُ حُريةً.. ثم إنكِ صديقتي!

ونهض بعد أن أطفأ سيجارته البغيضة مُقتربًا من والدته، فعانقَها بقوةٍ وهي تغمغم له مُشفقةً:

- ما يهمُّني هو سعادتُك فقط..

صوت جرس الباب، فأسرع يقبل جبهتها مرة أخرى قائلًا بعجلةٍ:

- وصل (مجد)..

- وفقك الله يا بني..

أسرع يفتح الباب ليطالع وجه صديقه العابس على الدوام.. فقال له بعبوسٍ مُماثِلٍ:

- تبدو بحالٍ مُزريةٍ، هل كنتَ ساهرًا؟

- حتى مطلع الفجر..



- على ماذا؟

- أفلام إباحية..

- هنيئًا لك!

وتجاوزه مُندفعًا في طريقه، فلحق به رفيقه قائلًا:

- لحظة واحدة..

توقف، والتفت مواجهًا (مجد) الذي توقّفَ هو الآخر قبل أن يواجه (سائد) بنظراتٍ مُعاتبة..

- "أأنتَ تتهرّبُ منّي حقًّا؟"

سكت (سائد) وهو يهزُّ كتفه، فسأله (مجد):

- ما الذي أصابك؟ من تراه وسوس لك ضدي؟

- لا أحد..

- لا أحد؟ لماذا تتجاهلني إذن؟ ماذا فعلتُ لك؟

- أنتَ لم تفعل شيئًا، لكني أُفضّلُ البقاء وحيدًا هذه الأيام..

- وحدك مع رِفاقك الجُدد، أليس كذلك؟

- وما شأنك أنتَ؟

- أنا صديقُك، ومن مصلحتك الإصغاء إليّ..



- أنت لم تعد كذلك بعد اليوم. اتفقنا؟

وعجّل بالسير بعصبيةٍ مُتجاهلًا نظرات (مجد) المُفعمة بالبلاهة..

***

(سائد) في المقهى مع رفيقه الجديد الذي يعلق حول عنقه قلادة فضيةً على صورة جمجمة..

قال الفتى وهو يسحب بهمةٍ دخان "النرجيلة":

- فكر بعقلانية.. (مجد) المتطفل لا يريدك صديقًا بل أداة للتفكُّه، قد يكون في كلامي إهانةً لك، لكن الإهانة الأكبر أن تستسلم للقيل والقال الذي أتى عن طريقِه!

- الحقير لا يريد تركي بسلام! لا يضيع فرصة شرح مشاكلي وكشف أسراري لكل من هبَّ ودب..

- لعنة الله عليه!

ورمَقَ الممر الفارغ من البشر..

- "لم أتوقع أن تزورني هنا!"

- "كنتُ ذاهبًا للجامعة وبدلتُ رأيي.. ما الفائدة؟ فأنا راسبٌ بكل الأحوال.."

- "هل أطلبُ لك واحدة؟"



- "معي سجائري.."

ضحك الفتى وهو يعدل الطاقية فوق رأسه هامسًا بتخابُث:

- أنت كائن نادر حقًا!

- ماذا تعني؟

- أعني أنكَ خُلقتَ للحُرية باكرًا.. أنا أحسدُك!

- على السجائر؟

- السجائر هي الحياة!

***

جلس (سائد) مع من يدعى (رزق) في مطعم لا يمتاز بالنظافة، حيث حام الذبابُ في جوّه وعبثت الجُرذان من حولهما في قمامته..

جلسا يلتهمان شطائر الكبدة بالشطة، (رزق) كان يسند دراجته البخارية العتيقة بالقرب منه قائلًا لسائد:

- لولا دراجتي الغالية ما أفدتُك بشيء.. ثم تأتِي لتقول لي: ضَعْها في متحف؟

- أنا أقول هذا لمنجزاتها العظيمة!

ناوله (رزق) وُريقةً ملوثة بالزيت قائلًا بفم ممتلئ:

- هذه هي العناوين، لا تحد عنها وستنال رزقا وافرًا..



- لستُ مُبرمجًا كباقي الروبوتات البشرية على طاعة النظام! لا بُدَّ من التزجل أحيانًا كي تنال مُبتغانا..

- يبدو لي أنك ستذهب إلى السجن هذه المرة..

- جميل أن يكون قلبك علي، لكن كفَّ عن نعيقك ولو قليلًا..

ثم قال وعيناه تشردان:

- أوضاع هذا العالم أوضاع! تعايش أوضاعا حتى تجنَّ أو تُصابَ بالاكتئاب، وأخرى تتمنى حدوثها لك حتى وإن كانت مؤذية..

- لم أفهم، إنك تفلسفُ الأمور..

لم يملك (سائد) تفسيرًا يمكن إفهامه لعقل كعقل رفيقه الأبله، كان يتلو تلك العبارات على مسامع شبان في مثل حال (رزق) فينبهرون به أحيانًا، تحصيلهم العلمي معدومٌ أو شبه معدوم، وقد كان هذا يُناسبُه، فكراهيته للمتحذلقين المتعلمين تعليمًا مناسبًا جَدُّ عظيمة، فهم يجيدون استحضار أسماء ومصطلحات قد يجهلها..

أما أمثال (رزق) فيجاهرون بجهلِهم من دون حرج، فهو من البسطاء الذين لا يفهمون سوى حلول سبل العيش، وعقليتهم محصورة في ادخارِ القروش وكسب النساء الممتلئات لأنهن أكثر شبَقًا! وملء بطونهم بالطعام الرخيص وإن كان غير طيب المَذاق..



و(سائد) يحب أجوبة (رزق) الخاوية، فهي بداية لمعارك كلامية من طرفٍ واحد..

لكنه لا يملك الوقت الكافي للعراك الآن، عليه الاهتمام بعمله أولًا..

أشعل سيجارة مُتناولًا كيس النفاية الأسود بجانبه، وحيا (رزق) قبل انطلاقه بدراجته البخارية التي طلب استعارتها منه.. كان (رزق) قد وافق ما دام سينال "حلاوة" لقاء ذلك..

قادها (سائد) بحذر، فهو لم يكن بارعًا في قيادة الدراجات البخارية..

ظَلَّ يقودُها حتى قَطَعَ مَسافةً إلى حيٍّ بعيدٍ مُتعدد البنايات، ثم توقَّفَ متواريا بها وراء أحدها، واستبدل ثيابه الجديدة بثيابٍ من داخل الكيس، كانت بالية ممزقة..

صعد السلالم حتى بلغ أول شقة، ودَقَّ جرسُ الباب مرات حتى فتحت له سيدة بدينة ينبعث منها رائحة سمن الطهو..

- "من أنت؟ وما الذي تريده؟"

- "حسنة لله.. حسنة لله.. أنا فقير ومسكين! أعرج بعد حادث كسر ركبتي!"

وقرن كلامه ببكاءٍ مُصطنعٍ حراق للقلوب،لكن المرأة لم تنخدع..



- "ما شاء الله! لم تعودوا تتسوّلون في الشوارع.. صرتم تصعدون إلى الشقق أيضًا!"

- "حسنة لله الله يخليك.."

صفقت الباب في وجهه قائلةً بلهجةٍ شديدة:

- الله يعطيك!

بصق على الباب بصقةً هائلة قائلًا بامتعاض:

- أخذكِ الله إلى سعيره يا بغيضةَ الرائحة!

***

على كرسي غير مريح وضعوه في غرفة مليئة بشهادات التقدير لرجال الشرطة..

مع أن الحجرة تُشبهُ حُجرات التحقيق فإنه لم يشعر بوجوده داخل قسم من أقسام الشرطة، استعمل أسلوب النعامة التي تدفن رأسها في الحفرة.. كل هذا مجرد كابوس سقيم.. كل هذا يحدث لشخص آخر لا لي!

لم يشعر بالتوتر أو الخوف فتلك أمور تافهة في نظره.. الخواء.. هذا ما شعر به.. الخواء وتساؤلات عن كيفية انتهائه بتلك البساطة داخل حجرة تحقيقات في قسم الشرطة..



فُتِحَ البابُ ليدلف ضابط كهل يحمل كوبَ قهوة من البلاستيك، رسم على ثغره بسمةً واجمة مُداعبًا فتحة أنفه بظفر خنصره الذي يطيله كطرف المفك، وجلس مواجهًا إياه قائلًا بتؤدة:

- إخص.. شاب مثلك؟ يا للأسف!

ظل (سائد) صامتا، فتنهد الضابط متناولًا من علبته سيجارة ثبتها بين شفتيه، أشعلها وسحب نفسًا وهو يتابع بناظريه الفتى، ولم يعرض واحدة عليه لسوء الحظ.. عليه بالتماسُك الآن وإلا انهار..

- "شاب سليم مثلك ويعمل بالشحاذة؟ ما الذي أصاب الدنيا؟"

- "أنا لم.."

- "ضبطناك مُتلبسا وبالجُرم المشهود.. لا تضِع وقتنا واعترف.."

عيناه لا تفارقان الفتى، تحاصرانه في كل زاوية.. في حين قال الفتى بعد التردُّد الذي بان عليه:

- أعطني سيجارة وسأعترفُ!

- سيجارة؟ لا بأس..

وببساطة ناوله سيجارة بل أشعلها له، فدخن (سائد) بأنامل مرتجفة والضابط يقول له ضاغطا زرًا على سطح مكتبه:

- خذ راحتك..



دلف عريف أدى التحية، فقال له الضابط:

- أحضر قهوةً للضيف..

- سادة أم سكر زيادة سيدي؟

نظر إلى (سائد) الذي أسرع يقول:

- سادة..

رَحَلَ العريفُ بعد أن أدى التحيةَ مُجدَّدًا، فتجاهَلَ الضابطُ وجود (سائد) مُنشغلًا عنه بتقليب مِلفٍّ كان بين يديه، وظلَّ صامتًا حتى طُرِقَ البابُ ودخلَ العريف..

كان يحملُ حبلًا وخيزرانة مُربعة الشكل! فألقى (سائد) بالسيجارة بعيدًا وهو يثب كالجرادة صائحًا:

- ماذا ستفعلون بي؟

- ماذا؟ ألم تطلب قهوة سادة؟

ثم انقضا عليه.. مُكبِّلا ساقيه بالحبال وقام العريف برفعهما، في حين انهال الضابط بالخيزرانة على قدميه الحافيتين صائحًا بغضب مُخيف:

- تشحذ يا نفاية؟ تشحذ يا حثالة؟

- خلاص! آخر مرة.. أقسم بالله العظيم!



- لا تُقسِمْ يا حثالة.. سأجعل منك عِبْرَةً!

- الرحمة!

ومن ثم انقلبت صيحات الاستعطاف إلى صراخ هستيري يشتعل غضبًا:

- يا أوباش توقفوا! يا مجانين! يا ملاعين!

- نحن ملاعين يا نفاية؟

تحوَّلَ الضرب إلى معركة، صار أقوى وأشرس، وصار التوقُّف أمنية خالصة من أعماق القلب..

ثم أتى الانهيار أخيرًا، فالبكاء والنحيب، ورغم ذلك استمر الضابط، استمر حتى بان العَرَقُ في إبطيه، وتيقَّنَ من هزيمة الشاب هزيمةً مُجحفةً..

جلس على طرف مكتبه لاهثًا مُتعرقًا قُبيلَ ابتسامته..

- "لقد أتعبتنا!"

***

بدا وكأن الطبيب قد فرغ من تسجيل اعترافاته شفهيًّا أمام البقية الباقية من الأحياء..

تمعَّن رئيس المخفر في ملامحه قبيل تبسُّمه مندهشًا..



- "لطالما تسترت السواهي بالدواهي!"

بدا (سائد) خجلًا وهو يتمتم متحسّسًا مؤخر عنقه:

- لكنني اجتهدت فيما بعد وأقلعت عن ارتياد المقاهي وتحصيل مصروف الجيب بالشحاذة، فدرست ونلتُ بعثةً وعدتُ بشهادة طِبٍّ!

- أهذه جُلُّ خطاياك؟

- ذات مرة قذفت حجرًا على قط ضالٍّ فأصبتُه في رأسه.. ماذا تريد أكثر؟

- أنت.. ولكن لا بأس! هي جنازتك، ولن يسير فيها أحد سواك، فهلمَّ اخرج!

راقبوه صامتين متوجسين، وقد توقع معظمهم انهياره في أية لحظة، لكنه خيَّبَ توقعاتِهم لمّا فَتحَ الباب وخرج بكل طُمأنينةٍ وثِقةٍ بالنفس!

ظلوا على صمتِهم وقد أصاخوا السَّمعَ جيدًا، وفي هذه المرة توقعوا جميعهم سماع أصوات صراخ، أو رؤية جثة ممزقة لأشلاء تعود إليهم عبر الباب..

إلا أن انتظارهم طال وطال، وفي النهاية قال (شاهر) بهمس خفيضٍ:

- لقد نجا الرجل.. كان صادقًا في كل اعترافاته فغَفَرَ الله له!





- "ربما!"

نظر (شاهر) إلى رئيس المخفر، فوجده عابسَ الوجه وكأنه مُتضايقٌ لنجاة الرجل، واسترسل مُحدقًا في قدميه الحافيتين إلا من جوربين أسودين:

- ربما كان موته هادئا نظرًا لتفاهة خطاياه! دَوْرُ مَن الآن؟

- أنت تتمنى هلاكنا جميعًا!

تبسَّم الرجل بسمةً عصبيةً دون أن يرد، فتوجَّه (شاهر) بحدقتيه صوب الباب قائلًا بحزمٍ:

- فليكن ما حدث عِبْرَةً لنا، طريق النجاة بات واضحًا، من الآن فصاعدًا لا مزيد من الأسرار والخفايا.. لا مزيد من التستُّر على الفضائح والجرائم..

نظر رئيس المخفر بدوره إليهم:

- "حسنٌ.. لم يتبق سوى ثلاثة، فما رأيك أيها الفيلسوف بالبدء؟"

قال (شاهر) وعيناه مغمضتان:

- حكايتي أنا؟ حكايتي طويلة.. طويلة للغاية..

- ونحن نملك كل الوقت الذي في العالم!

- وهو كذلك.. سأقصُّ عليكم كل شيء..

7

عندما أنهى (شاهر) حكايته، رفع وجهه متأمِّلًا رئيس المخفر بالذات..

سال عَرَقُ الرجلِ غزيرًا، وبصوتٍ تحشرجَ بشدةٍ تساءل وقد بدا وجهه مُحتقنًا:

- أيُّ حكايةٍ هذه يا فتى؟

- إنها.. حكايتي!

بدا مُختلفًا، كان أكثر ثقةً وتصميمًا، وعندما دنا شهر رئيس المخفر المسدس في وجهه، لكنه بدا غير مُبالٍ وهو يواصِلُ الدنوَّ منه قائلًا بتهكُّمٍ:

- هلم اسألني عن التي رأيتها في الغرفة داخل المصحة!



- إليك عني!

- أيها التَّعِس.. ألم تفهم بعد؟ إنه الاعتراف! كان يجب عليكم الاعتراف للنجاة من ظُلمات العقاب المُروِّع!

اختنقت حروف كلمات الشيخ (جبران) عندما تساءل:

- من التي رأيتها داخل الغرفة وجعلتك تولي الأدبار بهلعٍ؟

- رأيت..

عندئذ حصل الزلزال المريع، ومن حول رئيس المخفر تشقّقت الأرض بعنف!

***

صرخ رئيس المخفر كالمجنون:

- لا أستطيع التحرُّك! أوقف ذلك.. أوقفه!

وصوب السلاح مُطلقًا رصاصة طائشة، فلم يأبه (شاهر) لذلك قائلا بوجوم:

- قد كابرتَ وكابرتَ ولم تعترفْ، نصَّبتَ نفسك القاضي والجلاد وأنت نفسُك من المذنبين.. والآن آن أوان العقاب!

- أنا لم أرتكب إثمًا! سنين بعدد شعر الرأس كنتُ ولازلتُ شرطيًا شريفًا ومُتفانيا في عملي..



- وما زلتَ تكابر؟

وهنا، انهارت الأرض أسفل الرجل، فسقط مُطلقًا أعتى صرخة مُمكنة مُحاوِلًا التشبُّثَ بأيِّ شيءٍ..

إلا أن الظلمات كانت الأسرع، فابتلعتْهُ بلا هَوادةٍ..

***

سَعَلَ وبشدةٍ، فأدرك بأنه ما زال على قيد الحياة..

ثمة رضة مؤلمة كجمرة عالقة في ركبته، فتحسَّسها ضاغطا أسنانه لكتم صيحة الألم المُمِضّ، وعقب اعتياد بصره العتمة تلفت من حوله مرتعدًا والعرق يطفو على جلده..

أبصر رأسًا عِملاقًا لحيوان رنة بالقرب من خزانة تخصُّ مصحة مهجورة، إلا أنه كان مُحطمًا بعنف، مثله مثل أركان المكان وأثاثه المغطى بكتل الغبار السميكة وشباك العناكب!

سمع صوت رنين أفزعه بشدة، فتلفت ليجد جرسًا صَدئًا على طاولة الاستقبال، ضئيلًا كالناقوس، كان زره المعدني يُضغط من تلقاء نفسه!

صرخ:

- أنا لم أرتكب إثمًا! لم أرتكب إثمًا! لسنوات كنتُ شرطيًّا يُشهَدُ له الكل بالكفاءة!



- " أنا لم أرتكب إثمًا!"

بلغ مسمعه ذلك الصدى الساخر المروع، فتلفت حوله كالمصدوم باحثًا عن مصدره..

وإذ بباب إحدى الغرف يتحطم بعنفٍ، وشاهد ببصر مصعوق غير مصدق ثعبانًا أسود هائل، حجمُه يفوق التصوُّر، عيناه الضيِّقتان كدبوسين كانتا تلتمعان في الظلمات كأعين الهررة أو الضباع!

كان الثعبان يزحف بسرعةٍ مذهلةٍ وثائرةٍ مُحطِّمًا كل ما يعترض سبيله، وعَرَجَ التَّعِسُ بخطوات مُتخبطةٍ مُرتعبةٍ وهو يصرخ كمن جُنَّ أخيرًا..

استشعر الصمت أخيرًا، ولما التفت ساكنًا متعجبا فوجئ وبوغت بأنياب خنجريةٍ لا مثيل لحدها تنهشُ معدته على نحو مُقززٍ، فجر الألم الجنوني المسعور في أوصاله وبين ثنايا عقله!

***

- "الرحمة!"

أفاق ليجد نفسه على قيد الحياة، معدته سليمة لم يمسسْها أيُّ سوء!

- "مجرد كابوس لعين! مجرد.."

فوجئ بذات الرضة، وبوجوده في ذات البقعة المظلمة والمهجورة من المصحة المهجورة المُخيفة..



سمع بأذن غير مصدقةٍ صدى رنين الجرس، وبرُعبٍ أشد ذات صدى الصوت الساخر:

- " أنا لم أرتكب إثمًا! "

وبرُعْبٍ يفوق سابقيه انفجر باب الحجرة نفسِها ليخرج ذات الثعبان الرهيب الأسود الذي زحف بسرعة تفوق سابقتها، وقد كان مُدركًا مكان ضحيته بذات الدقة..

وعندما أطبق بأنيابه على معدة رئيس المخفر هذه المرة أيضًا، رفع الأخير عقيرته بالصُّراخ وقد أدرك أخيرًا العذاب الأبدي الذي حلّ به..

8

قال (شاهر) وسبابتُه مُصوبةٌ نحو الشيخ:

- ماذا عنك؟

- لا شأنَ لك بي!

- أتقصِدُ أنك ضامِن نجاتك أنت الآخر؟

- بالطبع!

- يا لها من ثقةٍ عجيبةٍ بالنفس!

- لماذا؟ ألا تمتلكها أنت الآخر بعد الصفقة المزعومة التي عقدتها؟

- لا يمتلكُها سوى أحمق أو مغرور، نحن في موقفٍ هو الأصعب على الإطلاق، وليس بإمكاننا الوثوق بشيء..



- بإمكانك التحدُّثُ عن نفسك، بإمكانكم التحدُّثُ عن أنفسكم، لكنني واثق بنجاتي، فأنا عبدٌ من عبيد الله، وخادمٌ مُطيعٌ لبيته..

- أو أن هذا ما تظنُّه..

- أنا أعلم! بل مؤمن!

- تتحدَّث كمن شعر بمنجل الموت يتحسَّس عنقه.. لماذا؟ ماذا فعلت من خطايا كي تتحدث بهذا الشكل؟

- خطاياي هي خطاياي، ولن أُجاهِرَ بالمعاصي أبدا..

- إذن، فثمةُ خطايا في حياتك المُفعمة بالتقوى.. يا لها من مفاجأة!

ظل الشيخ (جبران) صامتًا والضِّيق بادٍ على وجهه، فطفح وجه (شاهر) بِبشْرٍ غريبٍ وهو يهتف مشيرًا له بسبابته مجددًا:

- هلم، أتحفنا بمصائبك، من الواضح أنك كارثة بقدمين يا شيخ!

- أنا لا أسمحُ لك!

- وأنا لا يهمُّني..

كان مضطربًا، فأومأ (شاهر) برأسه قبل أن يقول:

- لا بأس، فالمصائر باتت مُحددة..

وبدا وكأنه سيظل واقفًا حتى مماته، لكنه في النهاية خرج..



ومثلما حَدَثَ مع الطبيب مرت دقائقُ عديدةٌ دون أن يسمع الشيخ صراخًا أو يرى جُثةً تعود مُمزقةً مُشوَّهةً!

***

- "فليأخذني (عزرائيل)!"

تأمَّل الشيخ (جبران) الباب الذي خرج منه (شاهر) مُطوَّلًا، شعر بالارتياح أخيرًا لخروج الفتى المُخيف، وأطل ببصره داخل الحفرة التي ما زالت ظاهرةً ذات قعرٍ مُظلمٍ لا يمكن تبيُّنه أبدًا..

ثم رَمَقَ الصبي المتروي خوفًا بنظرات تفيض حُنوًّا ولُطفًا، وقال بدفء كأنما يُخاطِبُه:

- "مات الشرير المُكابر! مات المدعي الشيطاني مُحاولًا إقناعنا أنه أفضل الجميع خُلقًا، مات وبقيتُ أنا العبدُ الصالح!"

وحدَّق بالسقف مُتنهدًا براحةٍ جَمَّةٍ، ثم عاود تأمُّلَ الصبي الصامت..

مرت دقيقةٌ كاملة وهو يُطالِعُه، ولما انحلت عُقدةُ لسانه سأل الصبي:

- إذن.. هل تودُّ الاعتراف أنت الآخر؟ أم تودُّ سماع اعترافي أنا؟

ثم دنا منه ببطء، فزاد الصبي من التصاقه بالجدار..



- "لا تجزع هكذا مني يا بُني! أجل.. لكلٍّ منا خطاياه! ليست المشكلة في الاعتراف، بل في التوبة النُّصوح!

وأنا قررتُ.. قررتُ أن أتوبَ توبةً نصوحًا.. من جديد!

كانت توبتي الأولى قائمة منذ سنوات عشر، صمدت وأبليت في الصمود.. والآن، حان الوقت لنيل مكافأة بسيطة على ذلك الصمود المُضني.. وبعدها.."

كان قد بلغ الصبي، فركع ليداعب بأصابع مرتعدة شعره الناعم وبشوقٍ مهووس، هامسًا بجشعٍ:

- توبة نصوحًا لا رجعة بها.. أنا أعدك! هذه المرة فقط!

رباه! كم أنت صبي جميل! ابن من أنت؟ لا تخف! أنا لن أؤذيك!

- "لا تلْمَسْهُ!"

جَمُدَ الدَّمُ في عُروق الشيخ، فنهضَ من ركوعه قبل التفاته البطيء للوراء..

عندها، وقع بصره على (شاهر) الذي وقف عند الباب والاحتقار يملأ ناظريه!

***

جحظت عينا الشيخ جحوظًا مبينًا، وقد تصلَّب عيناه في محجريهما على ملامح وجه (شاهر) الذي قال مستبشعًا:



- اتركه حالًا!

- أنت! ولكن.. كيف؟

ألم ترحل؟ كيف ولماذا عدتَ؟ ألستَ في حلٍّ من انتقام الظلمات؟

- ربما، ولكن ماذا عنك أنت يا شيخ مسجدنا المبجل؟ ماذا كنت تنوي أن تفعل مع هذا الصبي؟

كان الشيخ قريبًا من سلاح رئيس المخفر المُلقى بجوار الحفرة، أقرب من (شاهر) الذي حاول بسرعةٍ ولم يفلح..

وفي الثانية التالية كان السلاح يرقُد في قبضة الشيخ التي صوَّبها اتجاه صدر الفتى..

ضَحِكَ الشيخُ ضحكةً سالَ لُعابُه لها، وبعقيرةٍ غاضبةٍ صرخ كمن فَقَدَ رُشْدَه أخيرًا:

- أنا الأجدرُ بينكم بالمغفرة!

ثم ألصقَ فُوَّهةَ السلاح بصدْغِه وأطلقَ النَّارَ..

***

بدا المشهدُ كعرضٍ على شاشة التلفاز جُمِّدَ بكبسة زر عن طريق جهازٍ للتحكُّم عن بُعدٍ..



ثم وببطء السلحفاة، تصاعدت حول جثة الشيخ مادة لزجة بدت كالقَطران الأسود المغلي، فأحاطت بالجثة قبيل ابتلاعها، ومن ثم تلاشى كل شيء كأن لم يكن!

حتى الحفرة ارتجت بشدة وبقوة مزلزلة أركان المسجد، وببطء عادت للالتحام من جديد!

بقي (شاهر) واقفا مع الصبي، وعندما نظر للخارج عبر الباب المفتوح على مصراعيه هَمَسَ:

- الفجر ينبلج أخيرًا..

نظر الصبي له.. أخيرا نَطَقَ.. فقال بنبرةٍ بدت وكأنها آتيةٌ من قعر بئرٍ سحيقةٍ:

- أعتقدُ أنه يجب عليك الاعتراف أيضًا!

صمت (شاهر) كأن على رأسه الطير، لم يشعر بالخوف، كان شعوره الطاغي والمثقل لكاهله هو الحُزن العميق، فجلس القرفصاء متمتمًا بذُلٍّ وانكسارٍ:

- كيف أبدأ إذن؟ أنا مجرد مُدمنٍ شَقيٌّ لا يميزه شيءٌ، ولم يعرف أبًا أو أمًّا في حياته..

أنا ابن حيٍّ فقير، صنعت من جسدي آلة عمل مجنونة كي أخرج من الحضيض، عملتُ نادلًا في مطعم واحتملت إهانات الزبائن



وصاحب العمل، وحلمتُ بالمال الوفير والفتاة المثيرة كأيِّ شابٍّ حالم، ثم توقفتُ عن الحلم مُتبيِّنًا الفاجعة، لن تكون لي فتاة أبدًا، ولن أمتلك مالًا وفيرًا مهما أحاولْ!

ثم تعرفتها.. كانت فتاتي، زوجتي الحبيبة.. أنستني كل ما فكرت به سابقًا لدى زواجنا، الرحمة كانت موجودة لكنني تظاهرت بالعكس..

كنتُ أعمل لتحصيل ثمن المُخدِّرِ المُطوَّرِ، تعاطيتُه مُتجاهلًا آلام زوجتي، ثم حملت بطفلي الذي جاء للحياة مَظلومًا بسبب والد فاشل لا هَمَّ له سوى التعاطي..

وابتسم منتحبًا وأنامله تتلمَّس شفته السفلى المرتعشة:

- لم تعلم زوجتي شيئًا عن إدماني، كنتُ مُدمنًا مُحنَّكًا يعرف كيف يواري آثار إدمانه جيدًا، لكنني أخيرًا دفعتُ الثمن وبأقسى صورة ممكنة!

في ذلك اليوم طلبتْ مني زوجتي تحميم طفلنا، تركته لي لانشغالها في المطبخ، اختارت أسوأ توقيت حيث كنت أهمُّ بحقْنِ نفسي، كانت..

كانت حادثةً.. حادثةً لَعينةً! ظَلَّ الماءُ يتسرَّبُ والطفل في الحوض، وكنتُ في غيبوبةٍ جميلةٍ بجانبه، أُحلِّقُ مع طيور وهمية في سماءٍ مُلوَّنة!



وعندما أفقتُ وجدتُهُ.. وجدت..

اختلطَ دمعُه بمُخاطه، صار جاثيًا على ركبتيه آملًا بحكم الموت..

- "وجدتُ ابني غارقًا! رأسه وأطرافه الصغيرة! كانت كلها غارقة في ماء داكنٍ مُخيف.. وزوجتي..

زوجتي جُنَّت! لعنتني قبل موتها في المستشفى! كانت الكوابيس تُطاردُني دائما بشأن طفلي الذي قتلتُه بحماقتي! ولم أتعظْ، بل واصلت إدماني اللّعين هربًا من الدنيا وكوابيسها المُخيفة!"

صار الآن يلطمُ وَجْهَه بضراوة، وقال ووجهه مَدفون بالأرض:

- رأيتُها.. (لؤلؤة)! زوجتي! كانت في المصحة! ذات نظرات مُعاتبة! لسانُ حالُها يقول لي: طِفلُنا يا (شاهر)! أنتَ قتلتَ طفلَنا!

أخيرًا، رفَعَ وجهَهُ الكالح الغارقِ بسوائل الضعف البشرية، فغمغمَ بهدوء:

- لا أعلمُ: أيعدُّ اليأس خطيئة؟ لكنني أدركُ تمامًا خطيئتي، وأعلم ماهيتها ومدى خطورتها.. لقد شككتُ برحمة خالقي، ولم أستعطفْهُ في شيء قط، ولربما كان هذا السبب أكثر من كافٍ لنيل نصيب هائل من التعاسة، بقيتُ أشعر بها دائمًا وأبدًا كعذابٍ أبديٍّ..

ودمعت عيناه متأمِّلًا الصبي الجميل، حَدَّقَ في عينيه الشفافتين مَلِيًّا وهو يتساءل بحسرة:



- هل سأتحرَّرُ أخيرًا من الكوابيس؟ هل تغفِرُ لي الظُّلُماتُ يا ترى؟

أشار الصبي للباب المفتوح بسبابته، كانت عيناه مُظلمتين الآن.. وبصوت بدا آتيًا من قلب الظلام ذاته نَطَقَ:

- اللهُ يغفرُ، والظلماتُ تُنفِّذُ مَشيئتَه!

هزَّ (شاهر) رأسَه مُوافقًا، ونهض ببطءٍ وبصره مُعلَّقٌ بالباب الذي وَلَجَ عَبْرَه نُورُ الفَجْرِ الخارجيُّ المُبْهِجُ..

هكذا، خرج وشعور الطمأنينة يسكنُ رُوحَه أخيرًا..



آخِرُ جُزْءٍ



حَلَّقَ بعُلوٍّ مُنخفضٍ فوق المَوْجِ الأزرقِ المُتلاطمِ بهُدوءٍ نسبيٍّ سِرْبٌ مِنْ طيورِ النورس البيض، مُلتقطةً رزقها بين الفَينةِ والفَينةِ بمناقيرِ مُنقضةٍ نادرًا ما تخطئ إصابة الهدف..

وبين الصخور الغامقة ذات القاع الصخري الخشنِ، جَلَسَ عَددٌ من الصيادين بقصبات صناراتهم الطويلة، يجربون حُظوظهم مع البحر وأسماكه الماكرة، عَلّهم ينالونَ شيئًا من حُظوظ طيور النورس البارعة.. بعضهم أتى لمجرد التسلية وقضاء الوقت في رِحاب البحر وسَكينته المُطهِّرة لنفسية ابن المدينة المُلوّثة، والبعض الآخر قَدمَ آملًا برزقٍ شحيحٍ كونه لا يملك مَرْكبًا ولا عُدة صيدٍ من شِباكٍ وغيرِها..

وعلى الشاطئ ذهبي الرمال حيث الأطفال يمرحون ببناءِ القلاعِ الرملية المُهدَّدةِ بالاندثار لقُربها من المَدِّ، والشُّبانُ يُمارِسونَ رياضة كُرةِ اليد، والكِبارُ يجالسونَ بعضَهم البعض على مقاعدِ الشواطئ المُريحة ذات الألوان الزاهية.. تمشّى رجلٌ يُناهِزُ الستين من عُمره بقدمين



حافيتين فوق الرمل الدافئ، أشيبُ الفودين، ناصعُ البَشرة، ذقنُه حليقٌ بعناية، وإن شابَهُ جُرحٌ قديمٌ لم ولن يندمل أُصيب بهِ في سنِّ الكهولة..

تعلّق بصرُه بالأشكال التي خطّها بقدميه فوق الرمل الناعم المريح، كانت أشكالًا مُبهمةً رَسَمَها بخطواته العشوائية المُتعثرة، ثم توقّفَ وبدأ يخطُّ أحرفًا أبجديةً كما لو كان صبيًّا صغيرًا، حتى كشفت بسمتُه الواسعة عن أسنانٍ نَضيدةٍ مَرصوصةٍ بعنايةٍ، لطالما أثارت عجبَ وغيرةَ أقرانه من الزملاء والأصحاب، أولئك الذين تقاعدوا بأفواهٍ خاليةٍ من الأسنان أو ببقايا أسنانٍ سُود مُصفّرة!

ألقى وراء ظهره ببذلة أقحوانية كانت نظيفة ومكوية بعناية هذا الصباح، وتابع مسيرته بغير هدًى مُستكشفًا ببصره الضعيف تفاصيل الحياة باهتمامٍ غير مسبوق، لَبِثَ مُطولًا أمام الأمواج الهادئة، وتفكّر في مرحِ الصِّغار وحيوية الشُّبان الفائقة قبل مُعاودته التدوين على الرمال البيضاء الناعمة..

توقّف بغتةً عمّا يصنعه وقد استرعى انتباهَه شيءٌ ما، كان مدفونًا بين الرمال بعناية، كما لو أن أحدًا تعمّدَ تَرْكَهُ هُناك..

ولأن بصر المُسنّ كان ضعيفًا، مال بجذعه مُتجاهلًا الألَمَ الذي سَرَى في ظهره كتيارٍ كهربائيٍّ، مائلًا باتجاه ذلك الشيء المدفون والبَرّاقِ بشدّةٍ تحت أشعة الشمس الذهبية..



عكف (شاهر) على المجيء للشاطئ كلما أعلنت نشرة الأخبار أن الموج سيكون في حالة مد، وذلك لأجل لوحة كان يرسُمُها بعناية فائقة تتعلّقُ برُؤيته الخاصة للبحر..

في ذلك اليوم اختار بُقعتَه المُعتادة شبْهَ المنعزلة عن بَقية الرُّواد هاتكي جمال الشاطئ ورونقه بلهوهم وسُخفهم والنفايات التي يُكوِّمونها هنا وهناك، وتنهَّدَ أول ما وصل عندما لاحظ نفايات باقيةً منذ الأسبوع الفائت..

انشغل بخلط الألوان على القُرص الخشبي ذي الفتحات التي يمسكها بأصابعه، متأمِّلًا ببصره شبه الناعس لوحتَه المُثبتة على قائم خشبي ثُلاثي السيقان.. كان هذا عندما سَمِعَ صوتًا مُنبعثًا من وراء القائم يقولُ بنبرةِ تحدٍّ يسهل تبيُّنُها:

- أنتَ ترسُمُ البحرَ!

توقَّفَ عمَّا يصنعه، ونظر وراء القائم ليُطالعَه رجلٌ مُسِنٌّ حافي القدمين، يحمل على كتفه بذلة أُقحوانية نصف مُبْتلة وملطخة بذرات الرمل، فتمتم مُصطنعًا ابتسامةً:

- أستميحُك عُذرًا؟

نفخ المسنُّ بنفاد صبرٍ مُكررًا ما قاله، فتنهَّد (شاهر) شاعرًا بحُرقة سوداء، انبعثت من ثناياه لاقتحامِ شخصٍ جُدرانَ حِصْنِ عُزْلَته الذي ابتناهُ بجُهْدٍ جهيدٍ..



- "لا بُدّ أنك ترسم البحر، وماذا سيرسم واحد مثلك يقف قريبًا منه غيره؟"

واحد مثله؟ بدت كإهانة اضطر لابتلاعها.. لم يكن (شاهر) شبيهًا بالرسامين الذين يرسلون شعورهم وشواربهم طويلة بوهيمية كفرسان (ألكسندر دوماس)، في الواقع كان حليق الرأس تمامًا وقد ارتدى ثيابًا صيفيةً لا عيب فيها سوى ألوانها الباهتة من أثر الغسيل المتكرر..

أراد قولَ شيءٍ، دُعابةً بشأن "أمثاله"، لكن المُسنَّ سَبَقَهُ قائلًا بلهجةٍ ماكرة:

- أراهنُك على أنه البحر!

- تراهنُني؟

- أجل، فإن لم يكن أعطيتُك ما وجدته!

هل قال ما وَجَدَهُ؟ ماذا سيُعطيهُ إذن؟ صَدَفَةً أم سَمكةً نافقةً؟

واقتربَ الرجلُ كأنما نالَ الموافقة على ذلك الرِّهان، مُختلسًا النَّظرَ إلى اللَّوحة بوقاحة كما اعتبرها (شاهر) ، والمُضحكُ أن الرَّجُلَ بدا خائبَ الأملَ وهو يتأوَّهُ قائلًا:

- هذا ليس البحر!

نَظَرَ (شاهر) ليتأكّد ما يرسُمُه، لقد كان البحر فعلًا لكنه رسمه على غير حاله، رَسَمَهُ على حقيقتِه، بعواصفه الهوجاءِ العاتيةِ وشراستِه التي أودت بملايين الأرواح عبر السنين..



ثم إنه قال باسمًا:

- البحر غدَّارٌ!

لكن الرجل كرر بإصرارٍ مُخرجًا ما بجيبه بإحباط:

- هذا ليس البحر.. ليس البحر!

ومدَّ يده مُسقطًا شيئًا ما سارَعَ (شاهر) بتلقُّفه قبل إيقاعه أرضًا.. كانت ساعة جَيبٍ فضية بلا سلسلةٍ، شَدَّهُ لَمَّا وَقَعَ بصرُه عليها نُقوشُها البديعةُ والمُبهمةُ، فبُهِتَ قائلًا:

- أنا لا أستطيعُ قَبولَ هذه..

- أنتَ رَبِحْتَ وأنا خَسرتُ.. هذا ليس البحر!

وفي تلك اللحظة، اقتربت شابَّةٌ جذَّابةٌ ترتدي ثيابًا صيفيةً خَفيفةً، فتشبَّثت بذراعِ المُسِنِّ قائلةً بلهجةٍ لائمةٍ:

- أين ذهبتَ يا جدي؟ هأنتذا قد بلَّلتَ ثِيابَك ولَطَّختَها.. أين حذاؤك؟

وبلهجةٍ مُعتذرةٍ قالت مُتأمِّلةً (شاهر) بنظرةٍ سريعةٍ:

- لماذا تزعج هذا السيد؟ هَلُمَّ بنا..

ثم غمغمت بحرجٍ باسمةً:

- سامحنا، إن جدي مُزعجٌ بعض الشيء..



- لا عليك..

- آملُ ألا يكون قد ضايقَكَ..

- الواقع أنه شخصٌ مُسلٍّ!

ضحكت لدعابته، وعاودت جَذْبَ الرجُلِ المُخرِّفِ قائلةً بحزمِ أمٍّ تحاولُ تنشئةَ طفلها على الأخلاق القويمة:

- هَلمَّ بنا، كفاك عبثًا اليوم يا جدي.. عن إذنك!

أومأ (شاهر) برأسه مُتأمِّلًا بشفقةٍ استسلام الرجل لها وهما يبتعدان، فما إن تيقن رحيلهما بعيدًا عنه حتى حوّل بصرَه إلى ما أخفاه بقبضته، وغنمَه من ذلك العجوز المسكين!

*****

في "الشاليه" الذي استأجره بعيدًا عن صَخَبِ رُوّادِ الشاطئ، جلس على طرف فراشه مُتأمِّلًا الساعة الفضيةَ العتيقةَ، تفحَّصَها بأناملَ حَذِرَةٍ، وقد شعر بغبطةٍ تعتريه لحظِّه السعيد في تملُّك قطعةٍ أثريةٍ كالتي بين يديه..

وَجَدَها مَعطوبةً، فرقد على الفراش باسمًا بشيءٍ من خيبة الأمل، وتمتم قائلًا وبصره لا يُفارِقُ عقارب الساعة الساكنة:

- لو أن (صفير) هُنا لتمكَّنَ من إصلاحها حتمًا!



ألقاها إلى جواره، وسكن فترةً وكأنه استسلم للنوم، ثم ما لَبِثَ أن اعتدل واقفًا يتأمَّلُ اللوحاتِ المرسومةَ التي احتلَّتْ أكثر بُقَعِ المكان.. لوحات استنسخها من ذكرياتٍ عجيبة يُغلِّفها المجهولُ..

أكثر اللوحات لفتيان وفتيات، كل واحد منهم رُسِم بوضعية تُناسِبُ شخصيَّته.. فتاةٌ بدينةٌ ذاتُ شفتينِ مُلطَّختين بالشوكولاتة، أخرى حافية القدمين رغم ثيابها الأرستقراطية.. فتى يحجُب بصرَه بيديه وقد حمْلَقَت فيه مَخلوقاتٌ عجيبةُ الشكلِ كأنها آتيةٌ من المريخ، وآخر جالسٌ على مقعد مدولب وسط أكوام الكتب.. فتى يحملُ دُميةً تُماثلُه حجمًا وشكلًا.. فتى أشقرُ جميلٌ على صَهْوَةِ حصان بنيّ، وآخر بثآليل قبيحةٍ..

ثم لوحتان احتلتا الجُزء الأكبر من الغُرفة، الأولى تُمثِّلُ فتاةً جميلةً جالسةً تبتسمُ كالجيوكندا، وهي تضمُّ إلى صَدرِها برفقٍ وحُنُوٍّ طفلًا رضيعًا..

لوحاتٌ مُتعددةٌ، وذكرياتٌ تفوقُ الوصف لا يمكنُ حَصرُها في لوحاتٍ. وأسماءٌ كثيرةٌ مُبهَمةٌ ومُضحكةٌ تحمل شخوصُها قصصًا تسترعي الانتباهَ والتعجُّبِ.. (أزوريت)، (ذهب)، (صفير)، (زغدة)، (حلزون) وغيرهم!

تنبَّه للوحة أخرى.. لها مكانةٌ عميقةٌ في نفسه لدرجة حجبَها بغطاءِ ستارةٍ قديمٍ، كأنما يُحافظُ عليها من يدي مَجهولٍ آثِمٍ.. تملَّكهُ شَجَنٌ



دفعَهُ إلى إزالة الغطاء، فتبدّت فتاةٌ عَذْبَةٌ تَرفُلُ في ثوبٍ أبيضَ وأجنحة بيضاء ملائكية، فبدت كحورِ الجنة..

تلمَّسَ بحذرٍ الوجه المرسوم في اللوحة، كان يَذْكُرُ ملامحَها جيدًا..

جَهَّزَ لنفسه قَدحَ قهوةٍ، وضعَهُ على الطاولة حيثُ أوراقُ بَحْثه المُتعلّق بمادةِ (R.D.7)، التي تحوَّلت الآن إلى مُذكرات، صفحة بيضاء جديدة وقلم، لا وقتَ يُضيِّعُه، فهم آتون عمَّا قريبٍ!

أسنَدَ خَدَّهُ بيدٍ بينما يُدوِّنُ بالأخرى حُروفَ كلماتٍ مُهمةٍ:

- "كانت الإفاقةُ من حالة الموت السريري كالخروجِ من قَبْرٍ مُظلمٍ تحت الأرض، ولم أصدق حتى اليوم أن كل أولئك الذين قابلتُهم شخصياتٍ من نَسْجِ الخيال..

لكن المُخدِّرَ المُطوَّرَ لم يكن مجرد هلوساتٍ جُنونية.. كان صديقي القديم (فيصل) الذي قابلْتُه في الحي القَذِرِ وتجاهلتُه مُحبًا للمطالعة، كنا نناديه بأرسطو الفصل من أيام الثانوية، لم يتوقَّفْ يومًا عن المُطالعة، المخدر صنع له "سيناريو" بمنتهى الغرابة لما جعله مشلولًا يؤمنُ بخُرافات الصِّينيين الشَّعبية، وهو دليلٌ على أن (R.D.7) مُخدِّرٌ غير عادي!



أمَّا (داهوت) فقد كان مجرد نسخةٍ أكثر وهنًا من الفتى الذي جابهْتُه قَبْلًا، ذاك المدعو (حيدر)! (حيدر) لم يكن أشقر جميلًا، و(داهوت) لم يكن مَفْتولَ العضلات، ثمّة حالة مَزْجٍ عجيبةٍ حدثتْ، فصنعتْ منهما شخصًا واحدًا في النهاية لا قُدرةَ له على مُواجهتي أو أذيتي!

أتراها نَشْوى المخدر؟ إذلال أعدائي وجعل الفتيات أسيرات هواي؟

حتى (هدهد) بدا قَريبَ الشَّبَهِ من صاحب المطعم بالحي القَذِرِ!

أمَّا (ناردين) فسبب تذكُّري لها طيلة الوقت هو (شهد)! تلك الطالبة المقهورة من الحي القذر! الملامح واحدة وإن تبدت (ناردين) أجملَ وأرق! المخدر أثبت خطورةً حقيقيةً، أثبت أنه يعرف كيفية التسلُّلِ للدماغ والتَّلاعُبِ به عن طريق هلاوس مُتقنة!

أذكر حادثة وقعت عندما كنتُ طالبًا في الجامعة، فقريبًا من السكن قبضت الشرطة على شَيخِ مَسْجدٍ يتحرَّشُ بالأطفال! رأيتُه ورأيتُ الذي اقتاده، إنه رجلُ الأمن المتغطرس والمعتز بسلاحه الأسود في جرابه!

أتلك ترجمة المخدر لما وقع للرجلين في المسجد بتلك البلدة؟

وعندما مرضتُ زُرْتُ ذلك الطبيب الذي كان نسخةً طبق الأصل من طبيب البلدة الذي نجا! كان رجلًا طيبًا سامحني بالأجرة وتمنى لي



حظًا طيبًا بالدراسة.. ألهذا كان الناجي الوحيد من مذبحة مسجد البلدة المروعة؟!

أشهد بأن (R.D.7) نقلني إلى عوالمَ غير طبيعية، لولاه أيضًا لما وجدتُ الخلاصَ الذي أنشدُه، فشكرًا لك أيها المُعلم على تلك التجربة المُخيفة!

شكرًا لك!"

لم يدر كم لبث على حاله تلك، عندما سَمِعَ طرقاتٍ على بابه..

جَفلَ ناهضًا من مكانه، وعَلَتْ مِسحةُ تساؤلٍ وجهَه مُتجهًا صوب الباب، وعندما فتحه، تغيّرت تقاسيمُه لدهشةٍ عميقةٍ وقد تبدّى عدم تصديقٍ في عينيه المتسعتين..

وفي ذهنه، تبدى وميضٌ خاطفٌ للوحةٍ مرسومةٍ، تُمثّلُ ملاكًا بجناحين بلون الشتاء الناصع!

- (ناردين)؟

كانت هي، الفتاة ذات الأجنحة في الصورة.. هي بذاتها! ذكريات كثيرة! ذكريات ذات غموض متأرجح ما بين الوهم والحقيقة.. لا تُمحى بسهولة!

خطت الفتاةُ ببطءٍ هامسةً بشفتين مُرتعشتين وقد دمعت عيناها:

- اشتقتُ إليك!



وأنهت الحديث بأن ارتمت في أحضانه باكيةً، فشعَرَ بالدموع تغمُرُ مُقلتيه، وسعادةٌ لا متناهية تتملّكه.. أنا لم أتماثلْ للشفاء بعد، لكنني مع ذلك سعيدٌ للغاية!

لم تتبدل (ناردين) قط في نظره، لا تزال ذات المَليحة صاحبة أرق ملامح، لطالما ذكّرته بزوجته الراحلة، ذاكرته لا تخيبُ، يستطيعُ تذكُّرَ شخوصِ حكايته الغريبة واحدًا واحدًا وسط أفواج البشر، يستطيعُ تَمييزَ أصواتِهم من بين آلاف الأصوات..

لقد عاش مع أوهامٍ ووقَعَ في حُبِّ أوهامه..

***

طَرقاتٌ على بابه..

- جَفلَ ناهضًا من مكانه، وعَلَتْ مِسحةُ تساؤلٍ وجهَه مُتجهًا صوب الباب، وعندما فتحه:

- "السيد.. (كاسبار.. هاوزر)؟"

ابتسمَ وجفونهُ مُغمضةٌ، وبهمسٍ وادع أجاب:

- أجل!

فتحهما، فأبصر عددًا من رجال الشرطة على رأسهم ضابط تساءل بحيرةٍ مُطالعًا ورُيقةً بين أصابعه:

- هل أنت أجنبي يا سيدي؟



- لا..

- مسيحي؟

- لا..

- اعذرني على تطفلي لكن اسمك..

- لا عليك..

دسّ الضابط الوريقة داخل جيبه قائلًا بطريقة رجال الأمن المعتادة:

- أنت اتصلت بنا مُبلّغًا عن جريمةٍ وقعتْ، أليس كذلك؟

- بلى.. جريمة قتل!

- قتل؟ قتل؟! أين؟!

- لحظةً واحدة.. تفضلوا بالدخول رجاء..

دخلوا وراءه وقد ساورهم شكٌّ عميقٌ بشأنِه.. اتجه (شاهر) للثلاجة الصغيرة متسائلًا:

- أتشربون شيئًا؟

- مَعذرةً يا سيدي لكن وقتنا من ذَهَب..

- إذن لن أُضيّعَ مزيدًا منه..



وعندما فتح باب الثلاجة، انقلبت الوجوه ذُعرًا صريحًا، وفي الثانية التالية وجد (شاهر) فُوَّهاتٍ مُعتمةٍ لأسلحة مُصوَّبةٍ في وجهِه..

- "إياك أن تتحرَّك!"

فرفع كلتا يديه عاليًا وابتسامة تضيء ملامحَ وجهِه..

- "أهذا الذي بداخل ثلاجتك رأسٌ؟ انطق!"

- "أجل!"

- "رباهُ!"

دنا عددٌ منهم والرُّعبُ على وجوههم يفوقُ التصوُّر.. كان الرأس لرجُلٍ مُمتلئٍ، لحيتُه كثةٌ ذات لون رمادي تخللته بعض حُمرة الحناء، شبهِ أصلعَ، وقد استعان بتطويل ما تبقّى له من شعر حتى بلغ كتفيه!

أشار (شاهر) بإبهام يده اليُمنى المرفوعة لأعلى كمَنْ يؤكِّدَ جودةَ سلعةٍ ما، وبمرحٍ قالَ:

- حَفِظْتُهُ لكم كي لا يتحلّلْ.. أوليسَ جميلًا؟



مؤلفات أخرى للكاتب

- رواية "سأعطيك الحلوى شرط أن تموت": شركة المطبوعات للنشر والتوزيع - لبنان
- رواية "موت سريري": دار اكتب- مصر ط1
منشورات ضفاف- لبنان ط2
- رواية "مذكرات الجرذان الغريقة": ممدوح عدوان — سوريا
- رواية "سيمفونية وادي الظلال": سندباد للإعلام والنشر — مصر ط1
مداد للنشر — الإمارات ط2
- رواية "جنازة الملائكة": دار رواية — السعودية ط1
دار سما — الكويت ط2
- رواية "الملجأ": الرواق - مصر
- رواية "أمير وألف عدو": دار اليمام - الكويت
- "سيناريو الظلام: أمير الكوابيس"
- "سيناريو الظلام2 المحقق السري"



ترجمات:

- "القصص المنسية"

- "سجين الجحيم"- كلايف باركر .. دار سما – الكويت

- "كريبي باستاز أساطير الانترنت المرعبة": دار اليمام - الكويت

روايات:

"المصعد رقم7"ج1

"التابع الحارس"ج2

"الهائمون"ج3

"مندوب الشيطان"

"ملاك جهنمي"

"الزيبق"

صدرت عن بلاتينيوم بوك الكويت

للتواصل مع الكاتب :

E Mail: waelnovel@gmail.com

موت سريري

بعد تجربة مخدر (R.D.7) الجديد، سقط (شاهر) في فخ الموت السريري داخل مستشفى حكومي رخيص غير آبه بموته أو حياته..

الحالة استوجبت إطفاء الأجهزة، و(شاهر) رسميا ميت بقرار طبي بالإجماع..

ثم استيقظ المدمن الهالك، وأقسم عقب التجربة المروعة أن يتوقف عن إدمانه للمخدر الرهيب، وتم نقله إلى مصح منعزل لمواصلة علاجه..

لكن عقله احتفظ برؤى عجيبة، فقد منحه السم المطور مقدرة رؤية ما لا تتمكن العين المجردة من رؤيته..

لقد رأى (شاهر) العالم على حقيقته، رأى دماره الذي بات وشيكا..

صدر للكاتب

رواية: "سأعطيك الحلوى شرط أن تموت".
رواية: "مذكرات الجرذان الغريقة".
رواية: "سيمفونية وادي الظلال".
رواية: "جنازة الملائكة".
رواية: "الملجأ".
رواية: "أمير وألف عدو".
"سيناريو الظلام ١: أمير الكوابيس".
"سيناريو الظلام ٢: المحقق السري".
رواية: "المصعد رقم٧" ج١.
رواية: "التابع الحارس" ج ٢.
رواية: "الهائمون" ج٣.
رواية: "مندوب الشيطان".
رواية: "ملاك جهنمي".
رواية: "الزيبق".
ترجمات:
"القصص المنسية".
"سجين الجحيم".

Cover by *ahz_art



دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE